

جمهورية مصر العربية

وزارة الأوقاف

الخطب العصرية لوزارة الأوقاف المصرية

الجزء الثالث

إشراف وتقديم

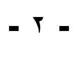
أ.د/ محمد مختار جمعة مبروك

وزير الأوقاف

رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

وعضو مجمع البحوث الإسلامية

١٤٣٧هـ /٢٠١٦م





بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

{إِنْ أُرِيــــدُ إِلَّا الْإِصْــلاَحَ مَا اسْتَطَعْــتُ

وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}

[هود: ٨٨]

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــــدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه إلى يوم الدين.

وبعد :

فيسرنا أن نقدم للسادة الأئمة والخطباء والمثقفين والمعنيين بالشأن الدعوي في مصر والعالم العربي والإسلامي الجزء الثالث من الخطب العصرية التي أعدتها الإدارة العامة لبحوث الدعوة بوزارة الأوقاف تحت إشرافنا ومراجعتنا.

وقد راعينا أن يكون الخطاب الديني في إطار سماحة الإسلام ووسطيته ، بعيدًا كل البعد عن جميع ألوان التشدد والغلو ، والإفراط أو التفريط ، محققاً لرسالة المسجد ، يجمع ولا يفرق ، ويهدف إلى تحقيق مصالح البلاد والعباد ، من منطلق أن شرع الله (عز وجل) قائم على مراعاة هذه المصالح ، فحيث تكون المصلحة فثمة شرع الله ، وبما يؤدي إلى تشكيل وعي ديني صحيح ورشيد ، وحس وطني صادق ونبيل.

وقد تنوعت موضوعاته ما بين قضايا إيمانية وتربوية وأخلاقية ، تهدف إلى إيقاظ الضمائر وتهذيب الأخلاق ، وقضايا اجتماعية تسهم في دعم وتقوية أواصر المودة والرحمة بين أبناء المجتمع ، وتسهم في حفظ

تماسكه وتلاحم نسيجه ، وأخرى تتصل بالمعاملات التي تعد جزءًا لا يتجزأ من السلوك القويم للمسلم ، وقضايا وطنية تهدف إلى تقوية الانتماء الوطني والحفاظ على أمن الوطن واستقراره ، إضافة إلى ما لا غنى عنه من بعض خطب المناسبات ، مع مراعاة السهولة واليسر ، والبعد عن التقعر والتكلف ، سائلين الله (عز وجل) أن يكتب له القبول ، وأن يكون زادًا علميًّا وفكريًّا ومعرفيًّا في مجال الثقافة الإسلامية الرصينة ، وأن يكون إضافة متميزة للمكتبة الدعوية في مصر والعالم كله ، إنه سبحانه وتعالى وليّ ذلك والقادر عليه ، {وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ}[إبراهيم:٢٠] ، {إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}[هود: ٨٨] .

والله من وراء القصد ، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

أ.د/ محمد مختار جمعة مبروك

وزير الأوقاف

واجبنا نحو القرآن الكريم

أولًا- العناصر:

١. القرآن الكريم معجزة الإسلام الخالدة.

٢. منزلة القرآن الكريم وفضائله.

٣. منزلة أهل القرآن الكريم في الدنيا والآخرة.

٤. واجب المسلمين نحو القرآن الكريم.

أ- تعظيمه وقراءته وتدبر آياته.

ب- الأدب مع القرآن ، والتخلق بأخلاقه.

ج – العمل بأوامره ونواهيه.

ثانيًا: الأدلة من القرآن والسنة:

الأدلة من القرآن الكريم:

١- قال تعالى: {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ } [الزمر: ٢٣].

٢- وقال تعالى: {لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [الحشر: ٢١] .

٣- وقال تعالى: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ}

[الشورى: ٥٢، ٥٣].

٤- وقال تعالى:{ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا}

[الإسراء: ٩] .

٥- وقال تعالى :{إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [الحجر: ٩].

٦- وقال تعالى: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ}[القمر: ١٧].

٧- وقال تعالى : {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ}

[الإسراء: ٨٢].

٨- وقال تعالى:{وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}

[البقرة: ٢٣].

٩- وقال تعالى: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ} [ص:٢٩].

١٠- وقال تعالى: {قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا}

[الإسراء: ٨٨].

الأدلة من السنة :

١- عن عائشة (رضي الله عنها) حين سئلت عن أخلاقه (صلى الله عليه وسلم) قالت: (كَانَ خلقه الْقُرْآن) (مسند أحمد).

٢- وعَنْ عَائِشَةَ (رضي الله عنها) عَنِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: (الَّذِى يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُوَ مَاهِرٌ بِهِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ وَالَّذِى يَقْرَؤُهُ وَهُوَ يَشْتَدُّ عَلَيْهِ فَلَهُ أَجْرَانِ) (سنن أبي داود).

٣- وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه) قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ) : (إِنَّ لِلَّهِ أَهْلِينَ مِنَ النَّاسِ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ هُمْ؟ قَالَ: هُمْ أَهْلُ الْقُرْآنِ، أَهْلُ اللهِ وَخَاصَّتُهُ)

(سنن ابن ماجه).

٤- وعن عَبْدَ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ (رضي الله عنه) يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لاَ أَقُولُ أَلْم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلاَمٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ) (سنن الترمذي).

٥- وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم): (اقْرَأْ عَلَيَّ)، قَالَ: قُلْتُ أَقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟ قَالَ: (إِنِّي أَشْتَهِي أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي) ، قَالَ: فَقَرَأْتُ النِّسَاءَ حَتَّى إِذَا بَلَغْتُ:{فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاَءِ شَهِيدًا} قَالَ لِي: (كُفَّ ، – أَوْ أَمْسِكْ) ، فَرَأَيْتُ عَيْنَيْهِ تَذْرِفَانِ)

(متفق عليه).

٦- وعَنْ أَبِى مَالِكٍ الأَشْعَرِيِّ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): (...وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ...) (صحيح مسلم).

٧- وعَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ (رضي الله عنه) قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم): (مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الذي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الأُتْرُجَّةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الذي لاَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ التَّمْرَةِ لاَ رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الذي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الرَّيْحَانَةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الذي لاَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ) (متفق عليه).

٨- وعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الْجُهَنِىِّ (رضي الله عنه) قَالَ : خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) وَنَحْنُ فِى الصُّفَّةِ فَقَالَ: (أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ إِلَى بُطْحَانَ أَوِ الْعَقِيقِ فَيَأْخُذَ نَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ زَهْرَاوَيْنِ بِغَيْرِ إِثْمٍ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلاَ قَطْعِ رَحِمٍ) قَالُوا: كُلُّنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: (فَلأَنْ يَغْدُوَ أَحَدُكُمْ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيَتَعَلَّمَ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ وَإِنْ ثَلاَثٌ فَثَلاَثٌ مِثْلُ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الإِبِلِ) (سنن أبي داود).

٩- وعن أبي أمامة (رضي الله عنه) قال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول: (يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَآلُ عِمْرَانَ). وَضَرَبَ لَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) ثَلاَثَةَ أَمْثَالٍ مَا نَسِيتُهُنَّ بَعْدُ، قَالَ: (كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ ظُلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ بَيْنَهُمَا شَرْقٌ أَوْ كَأَنَّهُمَا حِزْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا) (صحيح مسلم).

ومن الآثار:

١- يقول أبو عبد الرحمن السلمي (رضي الله عنه): « كُنَّا إِذَا تَعَلَّمْنَا الْعَشْرَ مِنَ الْقُرْآنِ لَمْ نَتَعَلَّمِ الْعَشْرَ الَّتِي بَعْدَهَا حَتَّى نَتَعَلَّمَ حَلَالَهَا وَحَرَامَهَا وَأَمْرَهَا وَنَهْيَهَا» (مصنف عبد الرزاق).

ثالثًا: الموضوع:

إن القرآن الكريم هو معجزة الإسلام الكبرى في كل زمان ، عجِز الإنسُ والجنُ عن أن يأتُوا بمثلِه، قال سبحانه:{قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا}[الإسراء: ٨٨] ، بل عجِزوا أن يأتوا بعشر سُورٍ مثلِه، أو بسورةٍ من مثلِه ، قال سبحانه :{أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}[هود: ١٣] ، وقال سبحانه:{وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [البقرة: ٢٣].

ولقد أنزله الله تعالى على قلب النبي (صلى الله عليه وسلم) هداية للناس إلى الطريق المستقيم ، ينير به الحياة ، ويهديَ به الحيارى ، فهو دستور المسلمين ، به تحيا القلوب ، وبه تَزْكُو النفوس ، وبه تتهذب الأخلاق ، يقول سبحانه :{الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ

يُنْفِقُونَ}[البقرة:١-٣] ، ويقول عز وجل : {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا}[الإسراء:٩] ، من تمسك به نجا من الفتن ، إنه روح المؤمن ونور هدايته ، قال تعالى:{وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ} [الشورى: ٥٢، ٥٣].

ومن جمال نوره سمعه فريق من الجن فآمنوا به وعظموه فاهتدوا به إلى الصراط المستقيم ، ثم ولوا إلى قومهم منذرين ، كما حكى القرآن الكريم ، يقول سبحانه:{وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ * قَالُوا يَاقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ * يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}

[الأحقاف : ٢٩-٣٢].

وإذا كان هذا حال الجن مع القرآن الكريم فإن للملائكة أيضًا حالاً معه ، فعَنْ أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ، قَالَ: بَيْنَمَا هُوَ يَقْرَأُ مِنَ اللَّيْلِ سُورَةَ البَقَرَةِ، وَفَرَسُهُ مَرْبُوطَةٌ عِنْدَهُ، إِذْ جَالَتِ الفَرَسُ فَسَكَتَ فَسَكَتَتْ، فَقَرَأَ فَجَالَتِ

الفَرَسُ، فَسَكَتَ وَسَكَتَتِ الفَرَسُ، ثُمَّ قَرَأَ فَجَالَتِ الفَرَسُ فَانْصَرَفَ، وَكَانَ ابْنُهُ يَحْيَى قَرِيبًا مِنْهَا، فَأَشْفَقَ أَنْ تُصِيبَهُ فَلَمَّا اجْتَرَّهُ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، حَتَّى مَا يَرَاهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ حَدَّثَ النَّبِيَّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَقَالَ: (اقْرَأْ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ، اقْرَأْ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ)، قَالَ: فَأَشْفَقْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ تَطَأَ يَحْيَى، وَكَانَ مِنْهَا قَرِيبًا ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَانْصَرَفْتُ إِلَيْهِ ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي إِلَى السَّمَاءِ ، فَإِذَا مِثْلُ الظُّلَّةِ فِيهَا أَمْثَالُ المَصَابِيحِ ، فَخَرَجَتْ حَتَّى لاَ أَرَاهَا، قَالَ: (وَتَدْرِي مَا ذَاكَ؟)، قَالَ: لاَ، قَالَ: (تِلْكَ المَلاَئِكَةُ دَنَتْ لِصَوْتِكَ، وَلَوْ قَرَأْتَ لَأَصْبَحَتْ يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهَا ، لاَ تَتَوَارَى مِنْهُمْ) (صحيح البخاري). هكذا يكون أثر القرآن حين يتلى.

إنه كلام الله (عز وجل) الذي لا تنقضي عجائبه ، تكفل الله تعالى بحفظه من التحريف والتبديل ، فقال :{إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}[الحجر:٩] ، من قال به صدق ، ومن عمِل به أُجِر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم ، جعله الله – عز وجل– رحمة وشفاء ، فقال سبحانه :{وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ}[الإسراء: ٨٢] ، وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) عَنِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ مَأْدُبَةُ اللَّهِ فَاقْبَلُوا مِنْ مَأْدُبَتِهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ، إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ حَبْلُ اللَّهِ ، وَالنُّورُ الْمُبِينُ، وَالشِّفَاءُ النَّافِعُ عِصْمَةٌ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ، وَنَجَاةٌ لِمَنْ تَبِعَهُ، لَا يَزِيغُ فَيُسْتَعْتَبَ، وَلَا يَعْوَجُّ فَيُقَوَّمُ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، وَلَا يَخْلَقُ مِنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ، اتْلُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ

يَأْجُرُكُمْ عَلَى تِلَاوَتِهِ كُلَّ حَرْفٍ عَشْرَ حَسَنَاتٍ ، أَمَا إِنِّي لَا أَقُولُ الم حَرْفٌ ، وَلَكِنْ أَلِفٌ وَلَامٌ وَمِيمٌ) (مستدرك الحاكم).

رفع الله منزلته فوصفه بأجل الصفات ، وذكره بأعظم الأسماء ؛ ليعلم الناس قدره وعظمته، فوصفه الله تعالى بقوله:{كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ}[هود:١]، وقوله : {وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [فصلت: ٤١، ٤٢]، إلى غير ذلك من الصفات التي تدل على عظمته ومنزلته وقدره.

ولقد أخبرنا النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بفضائل كثيرة للقرآن الكريم تعود بالنفع على الإنسان في الدنيا والآخرة ، من هذه الفضائل:

- الخيرية لأهله ، لحديث عُثْمَان بن عفان (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) عَنْ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ : (خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ) (صحيح البخاري).
- الرفعة لصاحبه ، لحديث عبد الله بن عمرو (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما) قال: قال رسولُ الله (صلَّى الله عليه وسلم) : (يقالُ لصاحبِ القرآن: اقرَأ وارتَقِ، ورتِّل كما كُنْتَ ترتِّل في الدُنيا، فإن منزِلَكَ عندَ آخرِ آية تقرؤها) (سنن أبي داود).

- الشفاعة لصاحبه ، لحديث أَبي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيّ (رضي الله عنه) قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَقُولُ: (اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ) (صحيح مسلم).
- الأجر العظيم لقارئه ، لحديث عَبْد اللهِ بْن مَسْعُودٍ (رضي الله عنه) قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لاَ أَقُولُ الْم حَرْفٌ ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلاَمٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ) (سنن الترمذي).
- الحفظ للبيوت العامرة بقراءته ، لحديث أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) أَنَّ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ، إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ) (صحيح مسلم)، إلى غير ذلك من الفضائل التي لا تنتهي، فعَنِ ابْنِ سِيرِينَ ، قَالَ : " الْبَيْتُ الَّذِي يُقْرَأُ فِيهِ الْقُرْآنُ تَحْضُرُهُ الْمَلائِكَةُ ، وَتَخْرُجُ مِنْهُ الشَّيَاطِينُ ، وَيَتَّسِعُ بِأَهْلِهِ وَيَكْثُرُ خَيْرُهُ ، وَالْبَيْتُ الَّذِي لاَ يُقْرَأُ فِيهِ الْقُرْآنُ تَحْضُرُهُ الشَّيَاطِينُ ، وَتَخْرُجُ مِنْهُ الْمَلائِكَةُ ، وَيَضِيقُ بِأَهْلِهِ وَيَقِلُّ خَيْرُهُ " (مصنف ابن أبي شيبة).

ولو تأملنا حال الصحابة الكرام (رضي الله عنهم) مع القرآن الكريم لوجدنا أنهم لم يكتفوا بالقراءة أو الاستماع فقط ، بل قرأوا وتدبروا ، فتعلقت به قلوبهم ، وارتبطت به نفوسهم ، فكانوا يطبقونه قولاً وعملاً، يأتمرون بأوامره ، ويبتعدون عن نواهيه ، لذلك ما بلغوا ما بلغوه من الفضائل والرفعة إلا بفضل العمل بالقرآن الكريم ، واستجابة لأوامره ، لقد

حفظ سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) سورة البقرة في ثماني سنوات ليس لبطء في حفظه ولكن لأنه كان يحرص على العلم والعمل معًا ، يقول أبو عبد الرحمن السلمي (رضي الله عنه): «كُنَّا إِذَا تَعَلَّمْنَا الْعَشْرَ مِنَ الْقُرْآنِ لَمْ نَتَعَلَّمِ الْعَشْرَ الَّتِي بَعْدَهَا حَتَّى نَتَعَلَّمَ حَلَالَهَا وَحَرَامَهَا وَأَمْرَهَا وَنَهْيَهَا» (مصنف عبد الرزاق).

ولأن الصحابة الكرام (رضي الله عنهم أجمعين) كانوا يفقهون آيات القرآن الكريم ويتعايشون معها وجدناهم يسارعون إلى طاعة أوامر الله (عز وجل) واجتناب نواهيه ، فحين نزلت آيات النهي عن شرب الخمر ونادى منادٍ : " ألا إن الخمر قد حُرِّمَت" تجاوبوا جميعًا مع القرآن ، فالذي كان في يده شيء من الخمر رماه ، والذي كان في فمه شربة مجَّها ، والذي كان عنده في أوان أراقها، استجابة لأوامر القرآن الكريم ، حتى امتلأت بها سكك المدينة وقالوا انتهينا يا ربنا ، وكذلك حين نزل قول الله تعالى:{لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ}[آل عمران: ٩٢] قام سيدنا أبو الدحداح إلى أجمل حديقة عنده وأحبها إليه وتصدق بها، ومن هنا استطاع الصحابة الكرام (رضي الله عنهم) حفظ كتاب الله لأنه لم يكن بالنسبة لهم مجرد كلمات ؛ بل كان منهجًا تربويًّا سلوكيًّا إيمانيًّا ظهر في تعاملاتهم فيما بينهم؛ بل ومع غيرهم.

ومن ثمَّ فإن المنزلة التي جعلها الله (عزّ وجلّ) لأهل القرآن الذين يشتغلون به من أرقى وأعلى المنازل، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه) قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ) : (إِنَّ لِلَّهِ أَهْلِينَ مِنَ النَّاسِ ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ هُمْ؟ قَالَ: هُمْ أَهْلُ الْقُرْآنِ ، أَهْلُ اللهِ وَخَاصَّتُهُ) [سنن ابن ماجه]، فقارئ القرآن منتسب إلى الله- تعالى- ، فما أعظمه من شرف ، وبقدر ما يحفظ الإنسان من القرآن يكون الشرف والمنزلة، فأهل القرآن يرفع الله قدرهم بين العباد .

أما واجبنا نحو القرآن الكريم فيتمثل فيما يلي:

* **تعلمه وتعليمه ، والمداومة على قراءته ومدارسته** ، فإن أفضل الناس من يتعلم القرآن ويعلمه ، ففي الحديث (خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ) ، وقد أمرنا النبي (صلى الله عليه وسلم) بقراءته وتعاهده ، فعن أَبِي مُوسَى (رضي الله عنه) عَنِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (تَعَاهَدُوا القُرْآنَ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُوَ أَشَدُّ تَفَصِّيًا مِنَ الإِبِلِ فِي عُقُلِهَا) (صحيح البخاري)، فالقرآن الكريم مُكَوِّنٌ أساسيٌّ من مكونات الشخصية المسلمة، فمنه يستمد المسلم تعاليم دينه وآدابه، فعلى المسلم أن يسعى إلى تعلم قراءته جيدًا ، وهذا الأمر ليس عسيرًا، فإننا نجد من الناس من يلجأ إلى تعلم اللغات الأجنبية، وتكبد المشاقّ في سبيل تحصيل ألوان من العلوم للحصول على وظيفة تدر عليه دخلًا وفيرًا ، فكيف بمثل هذا

أن يتكاسل عن تعلم كلام الله تعالى متعللًا بصعوبة قراءته، فعَنْ عَائِشَةَ (رضي الله عنها) عَنِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: (الَّذِى يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُوَ مَاهِرٌ بِهِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ وَالَّذِى يَقْرَؤُهُ وَهُوَ يَشْتَدُّ عَلَيْهِ فَلَهُ أَجْرَانِ) (سنن أبي داود). ولقد وعدنا الحق سبحانه وتعالى أن ييسر كتابه علينا قراءةً وتعبدًا ، قال تعالى:{وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ} [القمر: ١٧].

* **تدبر آياته وكأنه يتنزل على قارئه** ، فإن واجبنا نحو القرآن الكريم لا يتوقف عند حد التلاوة فحسب ، بل علينا أن نتدبره حتى نتذوق حلاوته ونستشعر عظمته ، قال تعالى:{أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}[محمد:٢٤] ، وقال عز وجل:{أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا}[النساء:٨٢] ، فإن أعلى أهل القرآن أجرًا هم الذين يقرؤون بألسنتهم ويتدبرون بعقولهم وقلوبهم، قال تعالى :{كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ}[ص:٢٩]، ولقد أثنى الله على من تلا آياته فازداد إيمانًا بتدبرها، قال تعالى : {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}[الأنفال:٢]، قال ابن عباس (رضي الله عنهما) : " تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، ودليل ذلك قوله تعالى:{ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ

مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى}

[طه:١٢٣، ١٢٦].

وقد ضرب لنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) المثل في التأثر بالقرآن والتجاوب مع آياته الكريمة حيث قال يومًا لعبد الله بن مسعود (رضي الله عنه): (اقْرَأْ عَلَيَّ)، قَالَ : قُلْتُ : أَقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟ قَالَ : (إِنِّي أَشْتَهِي أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي) ، قَالَ: فَقَرَأْتُ النِّسَاءَ حَتَّى إِذَا بَلَغْتُ:{فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا}قَالَ لِي: (كُفَّ – أَوْ أَمْسِكْ- فَرَأَيْتُ عَيْنَيْهِ تَذْرِفَانِ) (متفق عليه)، إن شأن المؤمن أن يتفاعل كيانه كله مع كلام الله (عز وجل)، يقول الله تعالى:{اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ}[الزمر: ٢٣].

* **الأدب مع القرآن الكريم والتخلق بأخلاقه** ، فإن من الواجب على قارئ القرآن الكريم أن يتأدب بآدابه ، ويتخلق بأخلاقه ، ويتمسك بتعاليمه ، فبأخلاقه يتحرر الإنسان من أهوائه وشهواته ، وتتقوى نفسه بالأخلاق القويمة ، قال تعالى:{إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا}[الإسراء: ٩]

وأسوتنا في ذلك رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد كان قرآنا يمشي على الأرض ، يتخلق بخلقه ، يرضى برضاه، ويسخط لسخطه ، وقد سئلت السيدة عائشة (رضي الله عنها) عن أخلاقه (صلى الله عليه وسلم) فقالت: (كَانَ خلقه الْقُرْآن) (مسند أحمد).

ولقد دعانا القرآن الكريم في معظم آياته البينات إلى مكارم الأخلاق ومحاسن العادات ، فمنه نتعلم الرحمة ، والصدق ، والعدل ، والسماحة ، والأمانة ، والوفاء بالعهد ، وغير ذلك من الأخلاق التي يجب على المسلم أن يتحلى بها ، ففي ذلك سعادته في الدنيا والآخرة.

* التزام أوامره ونواهيه ، فإن واجبنا نحو القرآن الكريم لا يقف عند تلاوته أو جمعه في الصدور أو حتى تدبره ، إنما يتم بالتزام أوامره ونواهيه ، بحيث يظهر هذا جليًا في أفعالنا وأخلاقنا كما كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه، فعلى المسلم أن يأتمر بأوامر القرآن الكريم وينتهي عن نواهيه ، يقول النبي (صلى الله عليه وسلم): (وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ) (صحيح مسلم)، يكون حجة عليك حين تقرؤه فلا يتجاوز آذانك ، ولا ينعكس على سلوكياتك وتصرفاتك ، فرب قارئ للقرآن والقرآن يلعنه.

* **ومن واجبنا نحو القرآن الكريم أن نواجه تحريف الغالين وتأويل المبطلين** الذين يحاولون توظيف القرآن الكريم سياسيًا أو أيديولوجيًا للحصول على مأرب أو مغنم ، فيجب أن يُتَلقى القرآن الكريم لفظًا ومعنى من أهل الذكر المتخصصين من علماء الأمة

الموثوق بعلمهم الذين يعلمون الناس صحيح الدين ومنهج الإسلام القويم ، والذين لا يوظفونه لمصالحهم أو يفسرونه وفق أهوائهم.

فما أشد حاجة العالم اليوم إلى هداية القرآن الكريم ، فإن أزمة العالم الآن أزمة أخلاقية، وما من كتاب دعا إلى مكارم الأخلاق مع كل الناس مثل القرآن ، وإذا كان خطأ المسلمين في هذا الزمان بعدهم عن أخلاق القرآن فإن من أوجب الواجبات عليهم العودة إلى أخلاقه متمثلين النموذج العملي الأكمل في امتثال الأخلاق القرآنية وهو من تنزل عليه القرآن (صلى الله عليه وسلم) وهو الذي وصفه ربه بأنه على خلق عظيم لامتثاله الأخلاق القرآنية المبثوثة في طول القرآن وعرضه، فقد كان أجمع الخَلْق خُلُقا، لأنه كان أجمعهم للقرآن تطبيقا وامتثالا ، يقول تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}[القلم: ٤]، كما هو منطوق حديث عائشة (رضي الله عنها) حين سئلت عن أخلاقه (صلى الله عليه وسلم) قالت: (كَانَ خلقه الْقُرْآن) (مسند أحمد).

وإننا إذ نذود عن القرآن الكريم الآن لنرجو أن يكون القرآن خير من يدافع عنا يوم لا نجد نصيرًا ولا مدافعًا، فعن أبي أمامة (رضي الله عنه) قال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول: (يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَآلُ عِمْرَانَ). وَضَرَبَ لَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) ثَلاثَةَ أَمْثَالٍ مَا نَسِيتُهُنَّ بَعْدُ، قَالَ: (كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ ظُلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ بَيْنَهُمَا شَرْقٌ أَوْ كَأَنَّهُمَا حِزْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا) (صحيح مسلم).

فإذا داوَم المُسلمون على تلاوتِه، وتدبّر معانِيه، وعمِلوا به، وتعلَّموه وعلَّموه أبناءَهم ، كان له أعظم النفع، فبه صلاح المجتمع، حيث تنتشُر الرحمة والعدل، وتنصلِح القلوب، وتكثر الخيرات، وتندفعُ الشُّرور والمُهلِكات.

* * *

محمد (صلى الله عليه وسلم) نبي الرحمة

أولاً : العناصر :

١- النبي (صلى الله عليه وسلم) رحمة للعالمين .

٢- من مظاهر رحمته (صلى الله عليه وسلم) .

- رحمته (صلى الله عليه وسلم) بالنساء .
- رحمته بالأطفال .
- رحمته بالمذنبين والمخطئين.
- رحمته بغير المسلمين .
- رحمته بالحيوان .

٣- الاقتداء بالرحمة النبوية وأثره في حياتنا المعاصرة.

ثانيًا - الأدلة:

الأدلة من القرآن الكريم:

١- يقول الله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: ١٠٧].

٢- ويقول تعالى:{ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [التوبة: ١٢٨].

٣- ويقول تعالى:{فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ }[آل عمران: ١٥٩].

٤- ويقول تعالى:{يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} [الإنسان:٣١].

الأدلة من السنة النبوية:

١- عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): (إِنِّي لأَدْخُلُ الصَّلاَةَ أُرِيدُ إِطَالَتَهَا فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ فَأُخَفِّفُ مِنْ شِدَّةِ وَجْدِ أُمِّهِ بِهِ) (متفق عليه).

٢- وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ (رضي الله عنهما) أَنَّ النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) تَلاَ قَوْلَ اللَّهِ (عَزَّ وَجَلَّ) فِي إِبْرَاهِيمَ: { رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّى} الآيَةَ. وَقول عِيسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ { إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: (اللَّهُمَّ أُمَّتِى أُمَّتِي وَبَكَى فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ - وَرَبُّكَ أَعْلَمُ- فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ؟ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ (عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ) فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) بِمَا قَالَ. وَهُوَ أَعْلَمُ. فَقَالَ اللَّهُ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِى أُمَّتِكَ وَلاَ نَسُوءُكَ) (صحيح مسلم).

٣- وعَنْ أَنَسٍ (رضي الله عنه) أَنَّ غُلاَمًا مِنَ الْيَهُودِ كَانَ مَرِضَ فَأَتَاهُ النَّبِىُّ (صلى الله عليه وسلم) يَعُودُهُ فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَقَالَ لَهُ: (أَسْلِمْ). فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ : أَطِعْ أَبَا الْقَاسِمِ. فَأَسْلَمَ فَقَامَ

النَّبىُّ (صلى الله عليه وسلم) وَهُوَ يَقُولُ: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنْقَذَهُ بِى مِنَ النَّارِ) (سنن أبي داود).

٤- وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ : قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ، قَالَ : (إِنِّى لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً)

(صحيح مسلم).

٥- وعن أَنَس بْن مَالِكٍ (رضي الله عنه) قَالَ : كَانَ لِلنَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) حَادٍ يُقَالُ لَهُ أَنْجَشَةُ، وَكَانَ حَسَنَ الصَّوْتِ ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم): (رُوَيْدَكَ يَا أَنْجَشَةُ لاَ تَكْسِرِ الْقَوَارِيرَ)، قَالَ قَتَادَةُ : يَعْنِي ضَعَفَةَ النِّسَاءِ. (صحيح البخاري).

٦- وعَنْ عَائِشَةَ (رضي الله عنها) قَالَتْ: (إِنْ كُنْتُ لَآتِي النَّبِيَّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بِالْإِنَاءِ فَآخُذُهُ فَأَشْرَبُ مِنْهُ فَيَأْخُذُهُ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَيَضَعُ فَاهُ مَوْضِعَ فِيَّ، وَإِنْ كُنْتُ لآخُذُ الْعَرْقَ مِنَ اللَّحْمِ فَآكُلُهُ فَيَأْخُذُهُ فَيَضَعُ فَاهُ مَوْضِعَ فِيَّ فَيَأْكُلُهُ وَأَنَا حَائِضٌ)

(صحيح ابن حبان).

٧- وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه) قَالَ: (كَانَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم) أَرْحَمَ النَّاسِ بِالْعِيَالِ، وَكَانَ لَهُ ابْنٌ مُسْتَرْضَعٌ فِي نَاحِيَةِ الْمَدِينَةِ، وَكَانَ ظِئْرُهُ قَيْنًا، وَكُنَّا نَأْتِيهِ ، وَقَدْ دَخَنَ الْبَيْتُ بِإِذْخِرٍ ، فَيُقَبِّلُهُ وَيَشُمُّهُ) (الأدب المفرد للبخاري).

٨- وعن أبي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ: قَامَ أَعْرَابِيٌّ فَبَالَ فِي الْمَسْجِدِ فَتَنَاوَلَهُ النَّاسُ، فَقَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم) : (دَعُوهُ

وَهَرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ سَجْلاً مِنْ مَاءٍ ، أَوْ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ) (صحيح البخاري).

٩- وعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ :كَانَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا ثُمَّ قَالَ: (....اغْزُوا وَلاَ تَغُلُّوا ، وَلاَ تَغْدِرُوا وَلاَ تَمْثُلُوا ، وَلاَ تَقْتُلُوا وَلِيدًا، وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلاَثِ خِصَالٍ – أَوْ خِلاَلٍ – فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ....)

(صحيح مسلم).

١٠- وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ (رضي الله عنهما) قَالَ: أَرْدَفَنِي رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) خَلْفَهُ ذَاتَ يَوْمٍ فَأَسَرَّ إِلَيَّ حَدِيثًا لاَ أُحَدِّثُ بِهِ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ، وَكَانَ أَحَبُّ مَا اسْتَتَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) لِحَاجَتِهِ هَدَفًا أَوْ حَائِشَ نَخْلٍ. قَالَ : فَدَخَلَ بُسْتَانًا لِرَجُلٍ من الْأَنْصَارِ فَإِذَا جَمَلٌ، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَمَسَحَ ذِفْرَاهُ فَسَكَتَ، فَقَالَ: (مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ، لِمَنْ هَذَا الْجَمَلُ؟)، فَجَاءَ فَتًى مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ: (أَفَلَا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا؟، فَإِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ) (سنن أبي داود).

ثالثًا- الموضوع :

لقد جمع الله سبحانه وتعالى لرسولنا محمد (صلى الله عليه وسلم) مكارم الأخلاق البشرية، وتألّقت روحه الطاهرة بعظيم الشمائل والخِصال، وسيرته العطرة نبع سخيّ ومصدر ثريّ لكل أنواع العظمة الإنسانيّة، وكيف لا يكون كذلك وقد اصطفاه الله تعالى على بني آدم، وختم به أنبياءه، فكانت حياته أنصع حياة عرفتها الإنسانيّة منذ نشأتها، ويكفيه (صلى الله عليه وسلم) شرفًا أن الله سبحانه وتعالى قد شهد له بعظمة الأخلاق فقال تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم: ٤].

الرحمةُ المهداةُ جاء مبشِّرا *** ولأفضلِ الأديان قام فأنذرا

ولأكرمِ الأخلاق جاء مُتمِّمًا *** يدعو لأحسنِها ويمحو المنكرا

صلى عليه اللهُ في ملكوته *** ما قام عبدٌ في الصلاة وكبّرا

ومن عظيم الأخلاق التي تحلَّى بها الرسول (صلى الله عليه وسلم) خُلُقُ الرحمة، فلقد وهبه الله قلبًا رحيمًا ، يرقُّ للضعيف، ويحنو على المسكين، ويعطف على الخلق أجمعين، فكانت الرحمة له سجيّة، فشملت الصغير والكبير، والقريب والبعيد، والمؤمن والكافر، فهو رحمة الله للعالمين: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: ١٠٧]،

وهو (صلى الله عليه وسلم) رحمة ربانية مهداة لكل الخلق، وما سنته وسيرته وحياته كلها إلا مظاهر من رحمته (صلى الله عليه وسلم)، بل من مظاهر رحمة الله تعالى بالخلق أن بعث هذا النبي الكريم، فقد جاء بمنهج شامل للحياة، كانت الرحمة من أهم ركائزه، ولقد علَّمَنا بمواقفه العظيمة وتعامله مع الجميع كيف ننسج من الرحمة ثوبًا نهديه إلى من حولنا، ليتحول العدو إلى حبيب بتلك اللمسة الحانية.

ومن رحمته (صلى الله عليه وسلم) أنه كان حريصًا على الناس شديد الخوف عليهم، يسعى بكل سبيل لرفع المشقة عنهم، يقول الله تعالى: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ}[التوبة: ١٢٨]، إنه من أَنْفُسِنا ومن أَنْفَسِنا شفوق بنا، حريص علينا يشق عليه عصياننا، رؤوف بنا يقف على الصراط يقول: ربِ سَلِّمْ سَلِّمْ، ويطيل السجود والدعاء يدعو لأمته بالنجاة والسعادة يوم القيامة، يسجد تحت عرش الرحمن فلا يرفع رأسه حتى يقال له: (يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ وَسَلْ تُعْطَهْ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي).

لقد قضى حياته (صلى الله عليه وسلم) في خدمة من حوله وإعانتهم، فها نحن أُولَاءِ نراه في خدمة أهل بيته، وكأنه يريد أن يخفف

عنهم وطأة متاعب أشغال المنزل، هذه الأعمال التي يأنف معظم الرجال أن يعيروها قدرًا من تعاونهم، كانت أمرًا طبيعيا في حياته (صلى الله عليه وسلم)، إن المرأة لا تحتاج إلى من يساعدها في عملٍ ما بقدر حاجتها لأن تشعر دائما بطيور الرحمة ترفرف حولها، وهكذا كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يغمر أهل بيته بالرحمة، وذلك كلُّ ما تتمناه المرأة من زوجها.

وقد تعددت مظاهر التعبير عن الرحمة من جانب النبي (صلى الله عليه وسلم) تجاه أهل بيته، فتارة نراه في خدمة أهل بيته، وتارة نراه يداعبهم ويُدخل السرور إلى قلوبهم، وتارة أخرى نراه يتجاوز عن أخطائهم برحمة وحُنُوّ، وهكذا كانت إشارات الرحمة تنتشر في بيت النبوة، فتفيض عليه حنانًا، سُئِلَتْ عَائِشَةُ (رضيَ اللَّه عنها): (ما كانَ النَّبِيُّ (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم) يَصنعُ في بَيْتِهِ ؟ قالت: كان يَكُون في مِهْنَةِ أَهْلِهِ. يَعني: خِدمَةِ أَهلِه. فإِذا حَضَرَتِ الصَّلاة، خَرَجَ إِلى الصَّلاةِ) (صحيح البخاري)، ولو قرأ الرجال سيرته واقتدوا به ما تحولت بيوتهم إلى جحيم لا يطاق!!

لقد كان النبي (صلى الله عليه وسلم) رحيمًا بالمرأة، ويوصي بالرحمة بها، بل كان يشفق على المرأة حين يسرع الحادي في قيادة

الإبل التي تركبها النساء، فيقول له: رفقا بالقوارير، فعن أَنَس بْن مَالِكٍ (رضي الله عنه) قَالَ كَانَ لِلنَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) حَادٍ يُقَالُ لَهُ أَنْجَشَةُ ، وَكَانَ حَسَنَ الصَّوْتِ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم): (رُوَيْدَكَ يَا أَنْجَشَةُ لاَ تَكْسِرِ الْقَوَارِيرَ). قَالَ قَتَادَةُ يَعْنِي: ضَعَفَةَ النِّسَاءِ (صحيح البخاري)، أراد أنّ الإبل إذا سَمِعت الحُداء أسْرعَت في الْمشي واشْتَدّت فأزْعجت الراكب وأتْعَبَتْه فنهاه عن ذلك لأنّ النساء يَضْعُفْن عن شدّة الحركة (النهاية في غريب الأثر لابن الجزري)، يوصي الحادي ألا يسرع بهن!! وما الإسراع بهن شيء يذكر بجوار ما تلاقيه المرأة من معاناة في حياتها من غلظة وجفاء في أحيان كثيرة.

وكان النبي (صلى الله عليه وسلم) إذا دخل بيته، بادر بالسلام، وإذا دخل ليلًا، خافَتَ به حتى لا تستيقظ زوجته إن كانت نائمة. كما ورد في حديث المقداد قال: (... فَيَجِيءُ مِنَ اللَّيْلِ فَيُسَلِّمُ تَسْلِيمًا لاَ يُوقِظُ نَائِمًا وَيُسْمِعُ الْيَقْظَانَ) (صحيح مسلم) ، ألهذه الدرجة؟! يخشى من أن يوقظ أهل بيته وهم نائمون حتى لا يقطع عليهم نومهم وراحتهم! يالها من رحمة عجيبة يجب أن تنحني أمامها جباه كل عظيم.

ومن عجيب رحمته (صلى الله عليه وسلم) بالمرأة أن يراعي نفسيتها في الأيام الشهرية التي يعتريها فيها ما كتبه الله تعالى على بنات

حواء، وفيها يختل نظام الهرمونات لدى المرأة وتكون في أمسِّ الحاجة إلى لطف المعاملة، والحنوّ والرأفة، وهذه أمور لا يقدرها كثير من الرجال ولا يلتفتون إليها، بل ربما زادوا من ضغوطهم عليها، وربما يغضبون حين يجدون من المرأة تغيرًا في السلوك، ويصفونها بالمتقلبة وبالعبوس، أما سيد الخلق (صلى الله عليه وسلم) فنرى أنوار رحمته تفيض على زوجه عائشة، حين تشرب فيبحث عن موضع شفتيها ليشرب منه، فعَنْ عَائِشَةَ (رضي الله عنها) قَالَتْ: (إِنْ كُنْتُ لَآتِي النَّبِيَّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بِالْإِنَاءِ فَآخُذُهُ فَأَشْرَبُ مِنْهُ فَيَأْخُذُهُ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَيَضَعُ فَاهُ مَوْضِعَ فِيَّ وَإِنْ كُنْتُ لَآخُذُ الْعَرْقَ مِنَ اللَّحْمِ فَآكُلُهُ فَيَأْخُذُهُ فَيَضَعُ فَاهُ مَوْضِعَ فِيَّ فَيَأْكُلُهُ وَأَنَا حَائِضٌ) (صحيح ابن حبان) إنها قمة الرأفة، بل قمة الإنسانية أن تحتمل من تحب في لحظات ضعفه وتحنو عليه وترحم آلامه، لا أن تتجاهل مشاعره أو تضغط عليه وتحمّله عبئًا فوق عبئه.

ولقد كان النبي (صلى الله عليه وسلم) رحيما بالصغار، إذا رأى ولده إبراهيم يأخذه فيقبله ويشمّه ، وهذا مشهد آخر يظهر عظمة محمد (صلى الله عليه وسلم) الإنسان العطوف الذي زاد شوقه إلى ولده الغائب لدرجة جعلته يقبله ويشمُّه ، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه) قَالَ:

(كَانَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم) أَرْحَمَ النَّاسِ بِالْعِيَالِ ، وَكَانَ لَهُ ابْنٌ مُسْتَرْضَعٌ فِي نَاحِيَةِ الْمَدِينَةِ، وَكَانَ ظِئْرُهُ قَيْنًا وَكُنَّا نَأْتِيهِ ، وَقَدْ دَخَنَ الْبَيْتُ بِإِذْخِرٍ ، فَيُقَبِّلُهُ وَيَشُمُّهُ) (الأدب المفرد للبخاري).

لقد اعتبر النبي (صلى الله عليه وسلم) عدم تقبيل الصغار وإشباعهم بالحب والعطف قسوة ونزعًا للرحمة، فعَنْ عَائِشَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا) قَالَتْ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) فَقَالَ: تُقَبِّلُونَ الصِّبْيَانَ! فَمَا نُقَبِّلُهُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم): (أَوَ أَمْلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللَّهُ مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ) (صحيح البخاري)، بل إن الصلاة نفسها لا تنسيه رحمته بالأطفال ورأفته بهم، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ : كُنَّا نُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) الْعِشَاءَ ، فَإِذَا سَجَدَ وَثَبَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ عَلَى ظَهْرِهِ ، فَإِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ، أَخَذَهُمَا بِيَدِهِ مِنْ خَلْفِهِ أَخْذًا رَفِيقًا، فَيَضَعُهُمَا عَلَى الأَرْضِ، فَإِذَا عَادَ عَادَا، حَتَّى قَضَى صَلاَتَهُ أَقْعَدَهُمَا عَلَى فَخِذَيْهِ) [مسند أحمد]، بل كان يسمع بكاء طفل صغير وهو في الصلاة فيخفف رحمةً بالطفل وبأمه ، فعن أَنَس بْن مَالِكٍ (رضي الله عنه) أَنَّ النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ : (إِنِّي لأَدْخُلُ فِي الصَّلاَةِ وَأَنَا أُرِيدُ إِطَالَتَهَا فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ فَأَتَجَوَّزُ فِي صَلاَتِي مِمَّا أَعْلَمُ مِنْ شِدَّةِ وَجْدِ أُمِّهِ مِنْ بُكَائِه) (صحيح البخاري).

ولقد شملت رحمته (صلى الله عليه وسلم) الجاهل فكان يعلمه برفق ولا يُعَنِّفُه على تقصيره، ولا يَنْتَقِصُ من قدره، فهذا الأعرابي الذي بال في مسجده (صلى الله عليه وسلم) ثار الناس وهموا أن يفتكوا به لهذا الجُرم الذي فعله، فماذا فعل النبي (صلى الله عليه وسلم)؟! قال: (دَعُوهُ وَأَهْرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ ، أَوْ سَجْلاً مِنْ مَاءٍ – فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ) (صحيح البخاري)، وهذه الكلمة نوجهها لكل المسلمين مع ما يقع بينهم الآن من تقاطع وصراع: إِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ.

وهذه رحمة النبي (صلى الله عليه وسلم) بالمخطئ، فماذا فعل مع هذا الشابّ الذي جاءه يستأذنه في الزنا!! فصاح به الناس، لكنه (صلى الله عليه وسلم) قربه منه وقال له في منتهى اللطف والرفق : (أَتُحِبُّهُ لأُمِّكَ؟) قَالَ: لا ، قَالَ:(وَكَذَلِكَ النَّاسُ لا يُحِبُّونَهُ لأُمَّهَاتِهِمْ، أَتُحِبُّهُ لابْنَتِكَ؟) قَالَ: لا، قَالَ:(وَكَذَلِكَ النَّاسُ لا يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ، أَتُحِبُّهُ لأُخْتِكَ؟.....) ثم وَضَعَ يَدَهُ عَلَى صَدْرِ هَذا الشَّابّ ، وَقَالَ:(اللَّهُمَّ كَفِّرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ) (المعجم الكبير للطبراني)، فخرج الشابّ وما شيء على وجه الأرض أبغض إليه من الزنا، فهذه رحمة النبي (صلى الله عليه وسلم) وتلكم ثمرتها!!

ومن مظاهر رحمته (صلى الله عليه وسلم) بغير المسلمين أنه كان يسعى إلى هدايتهم والرفق بهم، وتقديم جانب الحوار على الصدام، فهو يجنح إلى السلم ويبرم المعاهدات، وإذا صار حال العدو إلى ذلٍ وقهرٍ رَحِمَهُ (صلى الله عليه وسلم)، يرسل إلى الأمم والملوك رسائل يدعوهم فيها إلى الحق قبل أن يفكر في حربهم، وإذا أرسل جيشًا أوصاه بالرحمة بالأطفال والنساء والضعفاء والذين لا يحاربون، فعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ في خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا ثُمَّ قَالَ: (....اغْزُوا وَ لاَ تَغُلُّوا وَلاَ تَغْدِرُوا وَلاَ تَمْثُلُوا وَلاَ تَقْتُلُوا وَلِيدًا، وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلاَثِ خِصَالٍ - أَوْ خِلاَلٍ - فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ.....) (صحيح مسلم).

والعجب كل العجب أن نجد مظلة الرحمة النبوية تمتد لترفرف على من ناصبوه العداء وحاربوه وفعلوا معه كل ما يستطيعون من الكيد والإيذاء ، إن يوم الحديبية وحده يكفي دليلا على عظمة رحمة النبي (صلى الله عليه وسلم)، فها هو يقترب من مكة التي خرج منها مطرودًا، وهو اليوم في موطن القوة يستطيع أن يفاجئ القوم ويفعل بهم ما يريد،

لكنه يؤثر السلم ويقبل شروط أهل مكة التي لم يرضَ بها كثير من المسلمين في حينها ، فقبلها حتى لا تراق قطرة دم، لقد كانت الرحمة في تفاصيل حياته كلها حتى في وقت الحروب التي دُفِعَ إليها دفعًا ، فها هو يدخل مكة يدخل مكة بجيشه العظيم الذي أعجز أهل مكة أن يقاوموه – مجرد مقاومة– فيسمع سعد بن عبادة (رضي الله عنه) يقول مزهوًا: "اليوم يوم الملحمة"، فيردّ النبي (صلى الله عليه وسلم): (بل اليوم يوم المرحمة)! ثم تأتي لحظة النصر فيقف أهل مكة جميعًا أمامه خاضعين مستسلمين ينتظرون أيَّ قضاء يقضي فيهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فيقول لهم: (مَا تَرَوْنَ أَنِّى صَانِعٌ بِكُمْ؟). قَالُوا : خَيْرًا أَخٌ كَرِيمٌ وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ. قَالَ : (اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ)، قالها لهم وفيهم الذين حاصروه هو ومن معه ثلاث سنوات، يمنعون عنهم الطعام فمات من مات معه من الصغار والكبار ، وفيهم الذين قتلوا عمه حمزة (رضي الله عنه) ومثلوا بجثته وحاولوا أكل كبده، وفيهم الذين باتوا يدبرون له المكايد.

إنها رحمة عامة لكل الخلق ، ألّفت حوله القلوب ، وأذابت الأحقاد فتحولت العداوة إلى محبة قال تعالى:{فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ

لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}[آل عمران: ١٥٩]، يقول ابن كثير رحمه الله: " أي: لو كنت سيِّئَ الكلام قاسي القلب عليهم لانفضوا عنك وتركوك ، ولكن الله جمعهم عليك ، وألان جانبك لهم تأليفا لقلوبهم"

ومع كل هذا نجد أن النبي (صلى الله عليه وسلم) يعلمنا الوسطية والاعتدال حتى في خُلُقٍ كالرحمة، فلقد كانت رحمته (صلى الله عليه وسلم) مكسوة بالوسطية، فهو رحيم دون ضعف، متواضع في غير ذلة ، محارب لا يغدر ، سياسي لا يكذب ، يستخدم الحيلة في الحرب لكن لا ينقض العهود والمواثيق ، يجمع بين التوكل والتدبير ، وبين العبادة والعمل، وبين الرحمة والقوة في مواجهة الخصوم.

وهذه الرحمة النبوية لم تقف عند حدود البشر، بل امتدت لتشمل الحيوان ، فها هو يوصي بالرفق في الحيوان والإحسان إليه في هذه اللحظة التي يفارق فيها الحياة – عند الذبح– فعَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ (رضي الله عنه) أَنَّ النَّبِيَّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا القِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ) (سنن الترمذي)، إنه (صلى الله عليه وسلم)لا يريد لمخلوق لحظة عذاب لمخلوق ضعيف –

وإن كان حيوانًا- ودَخَلَ بُسْتَانًا لِرَجُلٍ الْأَنْصَارِ فَإِذَا جَمَلٌ، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَمَسَحَ ذِفْرَاهُ فَسَكَتَ، فَقَالَ: (مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ، لِمَنْ هَذَا الْجَمَلُ؟)، فَجَاءَ فَتًى مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ: (أَفَلَا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا؟، فَإِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ) (سنن أبي داود).

بعد هذه اللمحات والمشاهد من حياته التي تفيض رحمةً ندرك لماذا حثَّ النبي (صلى الله عليه وسلم) أتباعه على أن يتخذوا من الرحمة نهجًا في حياتهم، فإن الرحمن الرحيم سبحانه وتعالى يرحم من عباده الرحماء، فعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: (إِنَّهُ مَنْ لاَ يَرْحَمْ لاَ يُرْحَمْ) (متفق عليه)، وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو (رضي الله عنهما) عن النَّبِي (صلى الله عليه وسلم) قال: (الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ارْحَمُوا أَهْلَ الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِى السَّمَاءِ) (سنن أبي داود)، فَلْتَرْحَم الضعيف ولترحم اليتيم، وإن وجدت في قلبك قسوة فاعلم أنها تجرُّ صاحبها إلى النار والعياذ بالله، فإن الله تعالى جعل القسوة علامة على التكذيب بالدين فقال: {أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ

الْمِسْكِينِ}[الماعون:١-٣]، وفي حديث الهرة التي دخلت بسببها امرأة النار، والكلب الذي دخل رجل بسببه الجنة نجد أثر الرحمة والقسوة ، فما الهرة في حد ذاتها تستحق إدخال هذه المرأة النار إلا لما كانت دليلا على قسوة القلب، ولا الكلب يستحق دخول هذا الرجل الجنة إلا لما كان دليلا على رحمة في قلبه، فالله عز وجل يريد منا أن نتراحم وأن يعطف بعضنا على بعض.

فارحم أخاك الذي تجعل من أي خصومةٍ بينك وبينه مبررًا لأن تقسوَ عليه وتغلظ له القول والفعل، وتحاول الفتك به، متناسين أن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان رحيمًا - كما رأينا- حتى بالكفرة الذين كان كفرهم صريحًا لا مرية فيه، فلقد كذبوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو بين أظهرهم.

لقد كانت غاية النبي (صلى الله عليه وسلم) هي رحمة الإنسان وهدايته والسعي بكل سبيل إلى نجاته من المهالك في الدنيا والآخرة، فعَنْ أَنَسٍ (رضي الله عنه) أَنَّ غُلاَمًا مِنَ الْيَهُودِ كَانَ مَرِضَ فَأَتَاهُ النَّبِىُّ (صلى الله عليه وسلم) يَعُودُهُ فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَقَالَ لَهُ:

(أَسْلِمْ). فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ أَطِعْ أَبَا الْقَاسِمِ. فَأَسْلَمَ فَقَامَ النَّبِىُّ (صلى الله عليه وسلم) وَهُوَ يَقُولُ: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنْقَذَهُ بِى

مِنَ النَّارِ) (سنن أبي داود)، ولقد قال (صلى الله عليه وسلم) لعلي بن أبي طالب (رضي الله عنه) يوم خيبر: (عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ ، فَوَاللَّهِ لأَنْ يُهْدَى بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ) (صحيح البخاري)، لأنه سيكون سببًا في إنقاذ رجل – بل ربما أسرة ممتدة إلى يوم القيامة من الشقاء الأبدي.

فلْنتراحم فيما بيننا، لنرحم من في الأرض يرحمنا من في السماء قال تعالى : {يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} [الإنسان: ٣١] .

* * *

من مظاهر تكريم الرسول (صلى الله عليه وسلم)

<u>أولاً: العناصر:</u>

١- تكريمه (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) في بداية الخلق.

٢- تكريمه (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قبل مولده.

٣- تكريمه (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بأشرف الأنساب وأحسنها.

٤- مخاطبته باسمه (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) مقرونًا بعز النبوة وشرف الرسالة.

٥- وجوب محبته وطاعته (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).

٦- تكريمه (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بتولي الله عز وجل الدفاع عنه.

٧-عموم رسالته (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).

٨- كون رسالته (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) رحمة للعالمين.

<u>ثانيًا : الأدلة:</u>

<u>الأدلة من القرآن الكريم:</u>

١- يقول الله تعالى :{وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ} [آل عمران: ٨١].

٢- ويقول تعالى: {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}

[البقرة:١٢٩].

٣- ويقول تعالى:{وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ} [الصف: ٦] .

٤- ويقول تعالى:{مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا} [النساء: ٨٠].

٥- ويقول تعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [آل عمران: ٣١].

٦- و يقول تعالى:{يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} [المائدة: ٦٧] .

٧- ويقول تعالى:{ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ} [سبأ: ٢٨].

٨- ويقول تعالى:{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ}[الأنبياء:١٠٧].

٩- ويقول تعالى:{إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [الأحزاب:٥٦].

١٠- ويقـول تعـالى:{لا تَجْعَلُـوا دُعَـاءَ الرَّسُـولِ بَيْـنَكُمْ كَـدُعَاءِ بَعْضِـكُمْ بَعْضـاً قَـدْ يَعْلَـمُ اللَّـهُ الَّـذِينَ يَتَسَـلَّلُونَ مِـنْكُمْ لِـوَاذاً فَلْيَحْـذَرِ الَّـذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}

[النور: ٦٣].

الأدلة من السنة :

١- عـن واثِلَـة بْـن الأَسْـقَعِ (رَضِـيَ اللَّـهُ عَنْـهُ) يَقُـولُ: سَـمِعْتُ رَسُـولَ اللَّـهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ) يَقُـولُ: (إِنَّ اللَّـهَ اصْـطَفَى كِنَانَـةَ مِـنْ وَلَـدِ إِسْـمَاعِيلَ وَاصْـطَفَى قُرَيْشًـا مِـنْ كِنَانَـةَ ، وَاصْـطَفَى مِـنْ قُـرَيْشٍ بَنِـي هَاشِمٍ ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ) (رواه مسلم).

٢- وعَـنِ الْعِرْبَـاضِ بْـنِ سَـارِيَةَ السُّـلَمِيِّ قَـالَ: سَـمِعْتُ رَسُـولَ اللَّـهِ (صَلَّى اللَّـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ) يَقُـولُ : (... أَنَـا دَعْـوَةُ أَبِـي إِبْـرَاهِيمَ وَبِشَـارَةَ عِيسَـى قَوْمَـهُ ، وَرُؤْيَـا أُمِّـي الَّتِـي رَأَتْ أَنَّـهُ خَـرَجَ مِنْهَـا نُـورٌ أَضَـاءَتْ لَـهُ قُصُورُ الشَّامِ) (مسند أحمد).

٣- وعَـنْ أَبِـي سَـعِيدٍ (رضـي الله عنـه) عَـنْ رَسُـولِ اللَّـهِ (صَـلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ) أَنَّـهُ قَـالَ: (أَتَـانِي جِبْرِيـلُ فَقَـالَ: إِنَّ رَبِّـي وَرَبَّـكَ يَقُـولُ: كَيْفَ رَفَعْتُ ذِكْرَكَ؟ قَالَ: اللَّهُ أَعْلَمُ ، قَالَ: إِذَا ذُكِرْتُ ذُكِرْتَ مَعِي)

(مجمع الزوائد للهيثمي).

٤- وعَـنْ أَبَـي هُرَيْـرَةَ (رَضِـيَ اللَّـهُ عَنْـهُ) أَنَّ رَسُـولَ اللَّـهِ (صَـلَّى اللَّـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ) قَـالَ: (مَـنْ أَطَـاعَنِي فَقَـدْ أَطَـاعَ اللَّـهَ ، وَمَـنْ عَصَـانِي فَقَـدْ عَصَى اللَّهَ) (متفق عليه).

٥- وعَنْ أَنَسٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) (متفق عليه).

٦- وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ)

(رواه الحاكم في المستدرك).

٧- وعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما) ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ قَبْلِي : نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا وَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ فَلْيُصَلِّ ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ) (رواه البخاري).

ثالثًا الموضوع:

لقد كرم الله (عز وجل) نبيه محمداً (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) تكريماً لم يكرمه أحداً من العالمين ، في بداية الخلق ، وقبل مولده (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، وبعد مولده (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) في حياته ، وبعد وفاته (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).

فأما تكريم الله عز وجل لرسوله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) **في بداية الخلق : فرفع الله ذكره في الأولين والآخرين** ، فما من نبي

بعثه الله – تعالى– قبله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إلا وقد أخذ عليه العهد والميثاق إذا ما أدركه رسول الله أن يؤمن به ، وأن ينصره ، قال ربنا سبحانه:{وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ} [آل عمران: ٨١]. فزاد الله – تعالى – هذا الميثاق تشريفاً وتعظيماً حيث شهد عليه سبحانه مع أنبيائه.

وبشَّر به الأنبياء السابقون ، ففي الحديث الشريف عَنِ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ السُّلَمِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَقُولُ : (... أَنَا دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ وَبِشَارَةُ عِيسَى قَوْمَهُ ، وَرُؤْيَا أُمِّي الَّتِي رَأَتْ أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورُ الشَّامِ) (مسند أحمد) ، **فدعوة سيدنا إبراهيم** (عليه السلام) في قوله تعالى : {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [البقرة: ١٢٩] ، **وبشارة عيسى** (عليه السلام) في قوله سبحانه : {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ} [الصف: ٦].

وأما تكريم الله عز وجل لرسوله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) **قبل مولده** ، فبتسميته محمداً ، فَكَانَتْ آمِنَةُ بِنْتُ وَهْبٍ تُحَدِّثُ أَنَّهَا حِينَ حَمَلَتْ بالرسول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) (سمعت من يقول لَهَا : إِنَّكِ قَدْ حَمَلْتِ بِسَيِّدِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، فَإِذَا وَقَعَ على الْأَرْضِ فَقُولِي: أُعِيذُه بالْوَاحِدِ مِنْ شَرِّ كُلِّ حَاسِدٍ ، ثم سَمِّيهِ مُحَمَّدًا ، فَإِنَّ اسْمَهُ فِي التَّوْرَاةِ أَحْمَدُ، يَحْمَدُهُ أَهْلُ السَّمَاءِ وَأَهْلُ الْأَرْضِ، وَاسْمُهُ فِي الْإِنْجِيلِ أَحْمَدُ يَحْمَدُهُ أَهْلُ السَّمَاءِ وَأَهْلُ الْأَرْضِ وَاسْمُهُ فِي الْقُرْآنِ مُحَمَّدٌ فَسَمِّيهِ بِذَلِكَ) (شعب الإيمان للبيهقي).

ومن ذلك: شرف نسبه: فهو (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أشرف الناس نسبا ، ومما ورد في ذلك: قوله سبحانه وتعالى: {وَتَقَلُّبَكَ فِي الساجدين}[الشعراء : ٢١٩] ، قال ابن عباس : أي في أصلاب الآباء ، آدم ونوح وإبراهيم حتى أخرجه نبيًّا (تفسير ابن كثير). فهو من أشرف الأنساب ، وأكرم بيوتات العرب ، صانه الله من سفاح الجاهلية ، ونقله من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الطاهرة جيلاً بعد جيل ، فاصطفى من ولد إسماعيل كنانة ، ومن كنانة قريش ، ومن قريش بني هاشم فهو (صلى الله عليه وسلم) خيار من خيار من خيار. وعن واثِلَة بْنِ الأَسْقَعِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَقُولُ: (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِى هَاشِمٍ وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِى هَاشِمٍ) (رواه مسلم).

وأما تكريم الله عز وجل لرسوله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) **في حياته** ، فقد رفع ذكره في الدنيا والآخرة ، فلا يذكر الله تعالى إلا ذكر معه رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، وصدق الله تعالى حيث قال : {وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ} ، وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ (رضي الله عنه) عَنْ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أَنَّهُ قَالَ: (أَتَانِي جِبْرِيلُ فَقَالَ: إِنَّ رَبِّي وَرَبَّكَ يَقُولُ: كَيْفَ رَفَعْتُ ذِكْرَكَ؟ قَالَ: اللَّهُ أَعْلَمُ ، قَالَ: إِذَا ذُكِرْتُ ذُكِرْتَ مَعِي)

(مجمع الزوائد للهيثمي).

فقرن الله تعالى اسمه باسمه في كثير من الأمور ، فلا يقبل إسلام امرئ حتى يشهد له بالرسالة بعد أن يشهد لربه بالوحدانية ، قال حسان بن ثابت (رضي الله عنه) :

وضمَّ الإلهُ اسمَ النبيّ إلى اسمهِ ... إذا قَالَ في الخَمْسِ المُؤذِّنُ أشْهَدُ

وشـــقّ لهُ منِ اســـهِ ليجلـــهُ ... فذو العرشِ محمودٌ ، وهذا محمـــدُ

فهو (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يذكر بذكر ربه في الشهادتين ، وفي الأذان والإقامة ، وفي الخطب ، وفي القرآن الكريم ، فقد قرن الله تعالى طاعته بطاعته ، فقال :{مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا}[النساء:٨٠]، وكان ابْنُ عَبَّاسٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) يقول : ثَلَاثُ آيَاتٍ نَزَلَتْ مَقْرُونَةً بِثَلَاثِ آيَاتٍ لَا تُقْبَل وَاحِدَةٌ مِنْهَا بِغَيْرِ قَرِينَتِهَا ، أَوَّلُهَا:{ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ}[البقرة:٤٣] ،وَالثَّانِي قَوْله تَعَالَى:{ أن

اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ}[لقمان:١٤] ، وَالثَّالِثُ قَوْله تَعَالَى:{وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ} [النساء: ٥٩] ، فَمَنْ أَطَاعَ اللَّهَ وَلَمْ يُطِعْ الرَّسُولَ لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ.

وكذلك قرن الله تعالى بيعته (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ببيعته سبحانه ، فقال (عز وجل) : {إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ} [الفتح:١٠]. وجعل طاعته علامة للفوز بالجنة ، فقال تعالي:{وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا}[الأحزاب: ٧١]. إلى غير ذلك من الآيات. وفي الحديث عَنْ أَبِي هريرةَ (رضي الله عنه) أنَّ رَسُول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ : (كُلُّ أُمَّتِي يَدخُلُونَ الجَنَّةَ إلاَّ مَنْ أبَى) قيلَ : وَمَنْ يَأبَى يَا رَسُول الله ؟ قَالَ : (مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أبَى) (رواه البخاري). وحديث عُمَر (رضي الله عنه) حين جَاءَ إِلَى الْحَجَرِ الأَسْوَدِ فَقَبَّلَهُ، وقَالَ: (إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ لاَ تَضُرُّ وَلاَ تَنْفَعُ، وَلَوْلاَ أَنِّي رَأَيْتُ النَّبِيَّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يُقَبِّلُكَ مَا قَبَّلْتكَ) (رواه البخاري). فطاعة الله تعالى لا تتحقق ولا تتأكد إلا بطاعة رسوله الكريم (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).

كذلك من تكريم الله لنبيه (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أن جعل حبه من الإيمان بالله (عز وجل) ، بل جعل الحق سبحانه وتعالى محبته من محبة الرسول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، واتباعه (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) علامة علي المحبة ، فقال تعالى: { قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [آل عمران: ٣١].

فمحبته (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فرض لازم على كل مسلم ، ففي حديث أَنَس (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

(متفق عليه).

بل إن الإيمان لا يكتمل في قلب العبد حتى يقدم حب النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) على حب نفسه وولده والناس أجمعين بل ويقدمه على حب نفسه التي بين جنبيه ، فعن عَبْدِ اللهِ بْنِ هِشَامٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ : كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وَهْوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : يَا رَسُولَ اللهِ لأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلاَّ مِنْ نَفْسِي ، فَقَالَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (لاَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ) فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : فَإِنَّهُ الآنَ وَاللَّهِ لأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي ، فَقَالَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم) : (الآنَ يَا عُمَرُ)

(رواه البخاري).

ويكفي من أحب النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فضلا وشرفا أنه يحشر بصحبة حبيبه (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يوم القيامة ، وهذا فضل ما بعده فضل ، وكرم ما بعده كرم ، فعن أَنَسِ ابْنِ مَالِكٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ : بَيْنَمَا أَنَا وَالنَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) خَارِجَانِ مِنَ الْمَسْجِدِ فَلَقِيَنَا رَجُلٌ عِنْدَ سُدَّةِ الْمَسْجِدِ ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ مَتَى السَّاعَةُ ؟ قَالَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَا أَعْدَدْتَ لَهَا ؟) فَكَأَنَّ الرَّجُلَ اسْتَكَانَ ، ثُمَّ قَالَ

: يَا رَسُولَ اللهِ مَا أَعْدَدْتُ لَهَا كَبِيرَ صِيَامٍ ، وَلاَ صَلاَةٍ ، وَلاَ صَدَقَةٍ ، وَلَكِنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، قَالَ : (أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ) (رواه البخاري).

ومن أسمى آيات التكريم للرسول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): **أنه سبحانه وتعالى لم يخاطبه باسمه المجرد** كما خاطب سائر الأنبياء قبله ، فقد كان كل نبي يخاطبه ربه باسمه المجرد ، مثل قوله تعالى { يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ} [البقرة ٣٥]، { يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ} [آل عمران ٥٥] ، { يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ} [هود ٤٨]، { يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [القصص ٣٠]، { يَا يَحْيَى خُذْ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ} [مريم ١٢] ، {يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ } [طه: ١١، ١٢] ، {يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} [الصافات: ١٠٤، ١٠٥] ، {يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا } [مريم: ٧].

أما خاتمهم محمد (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فكان الخطاب إليه باللقب الدال على تكريمه وتعظيمه بعزّ النبوة وشرف الرسالة ، قال سبحانه: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} [الأحزاب: ٤٥] ، وقال تعالى:{يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} [المائدة: ٦٧] ، ليس هذا فحسب ، بل إن الله عز وجل نهى الأمة أن تناديه باسمه كما كانت الأمم تنادي أنبياءهم بأسمائهم ، وتوعد من يخالف ذلك بالعذاب الأليم ، فقال تعالى: {لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ

الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذاً فَلْيَحْذَرْ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [النور ٦٣].

كذلك من تكريم الله لنبيه (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) **وجوب التأسي به** (صلي الله عليه وسلم) ، فقال تعالي : {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا}[الأحزاب:٢١]. وهذه الآية أصل كبير في وجوب التأسي برسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) في أقواله وأفعاله وأحواله ، فهلا اقتدينا به وتأسينا بشمائله (صلى الله عليه وسلم) ؟!

كذلك من تكريم الله لنبيه (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أن الله (عز وجل) قد صلَّى عليه في كتابه العزيز ، وصلت عليه ملائكته ، وحثَّ المؤمنين على الصلاة عليه ، فقال سبحانه: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}[الأحزاب:٥٦].

كذلك من تكريم الله لنبيه (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) **: أن الله تعالى تولى الدفاع عنه** (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بنفسه دون غيره من الأنبياء ، فقد كان كل نبي يتهمه قومه باتهامات باطلة فيدفع ذلك بنفسه ، فهذا نوح (عليه السلام) اتهمه قومه بالضلال كما يحكي القرآن ، فيقول : { قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ } [الأعراف : ٦٠] فيدفع

ذلك عن نفسه قائلا : { يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [الأعراف: ٦١ – ٦٢].

وهذا هود (عليه السلام) اتهمه قومه بالسفاهة والجنون والكذب إذ قالوا له : {إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ}[الأعراف: ٦٦] فدافع عن نفسه قائلا:{يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ} [الأعراف :٦٧، ٦٨].

أما خاتم الأنبياء (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فكلما رماه قومه بالأباطيل وافتروا عليه الأكاذيب تولى الله تعالى الدفاع عنه ، فقد اتهمه قومه بأنه شاعر { بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ}[الأنبياء: ٥] فرد الحق عليهم في قوله تعالى : { وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ}[يس:٦٩].

وقالوا: إنه كاهن ، يتكهن بما تمليه عليه الشياطين .. فرد الله تعالى عليهم في قوله: {فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ} [الطور :٢٩] ، ويأتي القسم من الله تعالى– وما أعظمه من قسم – للدفاع عن النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ولتأكيد صدق الوحي والقرآن ودحض اتهاماتهم وافتراءاتهم في قوله تعالى: { فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ* وَمَا لا

تُبْصِرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ * وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ}

[الحاقة: ٣٨-٤٣] .

وقالوا : إنه ساحر تارة ، فرد عليهم تعالى في قوله :{ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ } [الذاريات: ٥٢] ، وتارة أخرى قالوا: إنه مسحور ، فرد الله تعالى عليهم في قوله :{وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً * انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً} [الفرقان: ٨-٩] ، وقالوا: إنه مجنون .. فرد الله سبحانه وتعالى عليهم في قوله :{أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ} [المؤمنون: ٧٠]، وقوله تعالى : { ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم: ١-٤].

واتهموه بالضلال والانحراف فردَّ الله سبحانه وتعالى عليهم بقوله : {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} [النجم: ١- ٤]. بل إنه سبحانه وتعالى قد تكفل بحفظه وحمايته مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، فقال تعالى :{يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} [المائدة: ٦٧] .

كذلك من تكريم الله لنبيه (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) **ما جاء في عموم رسالته** (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فلم تقتصر على جيل دون جيل أو قوم دون قوم ، فهي رسالة عامة للناس جميعًا ، فإن الله (عز وجل) بعث كل نبي لأمته خاصة وبعث نبينا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) للناس عامة ، وقد صرح القرآن الكريم بذلك ، فقال تعالي : {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } [سبأ: ٢٨]. وعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما) ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ قَبْلِي نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا وَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ فَلْيُصَلِّ وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ) (رواه البخاري).

كذلك من تكريم الله لنبيه (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) **تفضيله على غيره من الأنبياء عليهم السلام**، فالحق سبحانه وتعالى فضل نبيه (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) علي سائر الأنبياء والرسل الكرام ، وهذا ما وضحه القرآن الكريم في قوله تعالى:{ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ للَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ }[البقرة:٢٥٣] ،والذي عليه المحققون من العلماء والمفسرين أن المقصود بقوله تعالي: { وَرَفَعَ

بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ} هو سيدنا محمد (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) لأنه هو صاحب الدرجات الرفيعة ، وصاحب المعجزة الخالدة ، المتمثلة في القرآن الكريم ، وصاحب الرسالة الجامعة لمحاسن الرسالات السماوية السابقة.

وفي الحديث الذي رواه الإمام مسلم والترمذي ، من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) أن النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قال: (فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ - وفي رواية البخاري: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ - وَأُحِلَّتْ لِيَ الغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ).

كذلك من تكريم الله لنبيه (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : **أن الله تعالى أقسم بحياته** ولم يقسم بحياة أحد من البشر ، فالحق سبحانه وتعالى حين يقسم على أشياء ليؤكدها ، يقسم بأشياء كثيرة، من أجناس شتى، من جماد وحيوان وملائكة ، من أماكن وأزمنة وظواهر كونية ، لكنّه سبحانه وتعالى لم يقسم في القرآن ببشر مطلقاً ، اللهم إلا برسوله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) في قوله تعالى:{لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ}[الحجر:٧٢] أي : بحق حياتك يا محمد إنهم لفي غفلة عمّا سينزل بهم ، إنهم لضالون في حيرة لا يعرفون لأنفسهم طريقاً ولا حقاً ولا رشداً .. ولما زعم المشركون أن الله تعالى قد قلى محمدًا وهجره أقسم

الله تبارك وتعالى على أنه ما ودّعه وما قلاه ، فقال تعالى:{وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى * وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنْ الأُولَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى} [الضحى:١-٥].

فأما تكريم الله عز وجل لرسوله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بعد وفاته ، فاختصه الله تعالى بالشفاعة العظمى يوم الدين ، ففي الحديث الذي رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) أن النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قال: (أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ).

ومن أعظم آيات التكريم : أن الله (عز وجل) جعله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) رحمة للعالمين أجمعين ، حيث قال سبحانه: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ}[الأنبياء: ١٠٧]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ) (رواه الحاكم في المستدرك)، وفي رواية : (بُعِثْتُ رَحْمَةً مُهْدَاةً).

❋ ❋ ❋

دعوة الأنبياء والرسل للإصلاح في ضوء القرآن الكريم

أولاً : العناصر:

١. الإسلام دين الصلاح والإصلاح.
٢. نماذج من دعوات الأنبياء والمرسلين للإصلاح في القرآن الكريم.
٣. حاجتنا إلى إصلاح النفس أولاً.
٤. أثر الإصلاح على الفرد والمجتمع.
٥. أضرار ترك الإصلاح.

ثانياً :الأدلة :

الأدلة من القرآن الكريم :

١- قال تعالى :{وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}[الأنعام : ٤٨].

٢- وقال تعالى على لسان شعيب (عليه السلام):{قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}[هود : ٨٨] .

٣- وقال تعالى على لسان شعيب (عليه السلام):{أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ * وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ}[الشعراء: ١٨١– ١٨٣] .

٤- وقال تعالى:{وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} [الأعراف : ٥٦].

٥- وقال تعالى:{ وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ} [الأعراف :١٤٢].

٦- وقال تعالى: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [الأنعام: ١٥١].

٧- وقال تعالى:{وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ}

[هود : ١١٧] .

٨- وقال تعالى:{وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ}

[القصص: ٥٩].

٩- وقال تعالى:{وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ} [هود: ٦١].

١٠- وقال تعالى :{لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء: ١٤].

١١- وقال تعالى:{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}

[الأنفال :١].

الأدلة من السنة :

١- عَنْ زَيْدِ بْنِ مِلْحَةَ (رَضِيَ اللهُ عنْهُ) أَنَّ رَسُولَ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) قال : (... إِنَّ الدِّينَ بَدَأَ غرِيبًا وَيَرْجِعُ غرِيبًا ، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفَسَدَ النَّاسُ مِنْ بَعْدِي مِنْ سُنَّتِي) (سنن الترمذي).

٢- وعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلاَةِ وَالصَّدَقَةِ ، قَالُوا: بَلَى، قَالَ: صَلاَحُ ذَاتِ البَيْنِ، فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ البَيْنِ هِيَ الحَالِقَةُ (سنن الترمذي) ، وفي رواية قَالَ: (هِيَ الحَالِقَةُ لاَ أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعَرَ، وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ).

٣- وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، يَقُولُ: (اللهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي ، وَاجْعَلِ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَاجْعَلِ الْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ)

(صحيح مسلم).

٤- وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (كُلُّ سُلاَمَى مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ ، كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ، يَعْدِلُ بَيْنَ الِاثْنَيْنِ صَدَقَةٌ ، وَيُعِينُ الرَّجُلَ عَلَى دَابَّتِهِ فَيَحْمِلُ

عَلَيْهَا ، أَوْ يَرْفَعُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ ، وَالكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ ، وَكُلُّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ ، وَيُمِيطُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ)

(البخاري ومسلم).

٥- وعَنْ عُبَادَةَ بْنِ عُمَيْرِ بْنِ عُبَادَةَ بْنِ عَوْفٍ ، قَالَ: قَالَ لِي أَبُو أَيُّوبَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ): قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (يَا أَبَا أَيُّوبَ أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى صَدَقَةٍ يُحِبُّهَا اللهُ وَرَسُولُهُ؟ تُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ إِذَا تَبَاغَضُوا، وتَفَاسَدُوا) (المعجم الكبير للطبراني).

٦- وعن أنس بن مالك (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قال : قال رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (إِنْ قَامَتْ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا تَقُومَ حَتّى يَغْرِسَهَا فَلْيغرسها) (رواه الإمام البخاري في الأدب المفرد).

ثالثاً : الموضوع :

من القيم الإسلامية التي حث عليها ديننا الحنيف ونادى بها قيمة الصلاح والإصلاح ، فهو خلق عظيم تسعد به النفس البشرية وتميل إليه ، وهو قيمة إنسانية لابد منها لتحقيق عمارة الكون، وهو أيضا مطلب شرعي يدور معناه حول إزالة أسباب الفساد والشقاق ، والسعي للتقارب بين الناس حتى تستقيم أحوالهم في الحياة.

ولا شك أن الصلاح والإصلاح هو الغاية المنشودة من العباد في أعمالهم وأقوالهم ، فبغير الصلاح لا يُقبَل العمل ، ومن ثمَّ فلا بد أن يكون الإنسان صالحاً في نفسه وقوله وعمله ، مُصلحًا يحمل هموم الخلق ، ويعمل على إصلاحهم.

ومن يتدبر آيات القرآن الكريم يجد أنها عُنيت بهذه القيمة العظيمة ـ قيمة الإصلاح ـ عناية فائقة ، فقد ورد لفظ الإصلاح بمشتقاته في القرآن الكريم نحو مائة وسبعين مرة ، والإكثار من ذكر الشيء دليل على العناية به ، وعلى علو شرفه وعظم مكانته ، فوردت مادة (صلح) بمعاني متعددة تدل في مجملها على أن الإسلام يهدف إلى إصلاح الإنسان في اعتقاده وسلوكه وعباداته ومعاملاته وسائر حياته.

ولقد ربط القرآن الكريم بين الإيمان بالله (عز وجل) والإصلاح في مواضع متعددة وفي ذلك إشارة إلى أن الإصلاح من علامات الإيمان بالله (عز وجل) ، قال تعالى:{فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}[الأنعام:٤٨]. وقال تعالى:{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}[الأنفال :١].

وكذلك ربط القرآن الكريم بين التقوى والإصلاح ، فقال تعالى:{فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}[الأعراف:٣٥]، وربط – أيضًا – بين التوبة والإصلاح ، فقال تعالى:{إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا}[البقرة:١٦٠] ، وقال تعالى:{فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا}[النساء:١٦] ، وقال تعالى:{إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[النور:٥] ، فالإصلاح إذًا هو ثمرة الإيمان بالله (عز وجل) والتقوى والتوبة النصوح الخالصة لرب العالمين.

كما رغب القرآن الكريم في الإصلاح لما فيه من الأجر العظيم ، قال تعالى:{ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء : ١١٤].

وإذا تتبعنا أخبار الأنبياء والرسل مع أقوامهم وجدنا أنهم أرسلوا جميعًا ليصلحوا ما أفسده الناس في الأرض ، فكانت رسالة كل الأنبياء واحدة ، وهي إصلاح الكون من الفساد والمعاصي، ومن الأمراض التي تفشت فيهم ، جاء كل نبي ليصلح فسادًا قد انتشر في زمانه، فأرسلهم الله (عز وجل) إلى خلقه مبشرين ومنذرين بعقيدة وشريعة وأخلاق تصلح النفوس وتجردها من دنس الشرك ، قال تعالى:{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ}[الأنبياء :٢٥] ، وجاءت دعوتهم لتصلح عمل الإنسان في الدنيا لينال رضا ربه في الآخرة.

فهذا نوح (عليه السلام) دعا قومه إلى إصلاح أنفسهم بدين الله فيعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، ويتركوا عبادة الأصنام التي لا تضر ولا تنفع من يعبدها ، قال تعالى:{وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا * وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا} [نوح :٢٣،٢٤] ، ورغبهم في الإصلاح بالاستغفار حتى يكثر الرزق ، وينعم الله عليهم بالمال والولد، قال تعالى:{فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا

* يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا * مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا}[نوح :١٠– ١٣].

وها هو خطيب الأنبياء شعيب (عليه السلام) يعالج الفساد العقدي وما ترتب عليه من فساد اقتصادي في قومه ، فيدعوهم إلى عدم التطفيف في الكيل والميزان ، وكان هذا الخلق المذموم منتشرًا بين قومه ، فجاء بدعوة الإصلاح التي تحفظ حق البائع والمشتري ، فقال تعالى على لسان شعيب – عليه السلام–: { يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ * وَيا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ}[هود:٨٤– ٨٥] ، ثم بين لهم حقيقة دعوته وأن جوهرها هو الإصلاح ، فقال (عليه السلام) :{إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَما تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}[هود: ٨٨] ، وفي موضع آخر نجد عزمه (عليه السلام) على إصلاح ما أفسده قومه في الأرض من نقصان في الكيل والميزان ، فيقول لهم:{ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ * وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ}

[الشعراء: ١٨١– ١٨٣] .

ولنا أن نلحظ ملحظًا دقيقًا في قول سيدنا شعيب (عليه السلام) وهو ينادي بالإصلاح فيقول :{وَما تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ

أُنِيبُ}، فقد بين أن هناك مقصدًا عظيمًا لا بد وأن يراعى عند كل مصلح ، وهو استحضار قيمة الإخلاص في الإصلاح.

إنه إصلاح لا يريد من خلاله تحصيل مصالح ومآرب شخصية ، ولا ينطلق من بواعث ونوازع نفسية أو من صراع شخصي ، إنما هو إصلاح يعود بالنفع العام على سائر أفراد المجتمع.

وهذا نبي الله صالح (عليه السلام) ينادي قومه فيقول : { فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ *وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ} [الشعراء:١٥٠-١٥٢].

وعندما استخلف موسى (عليه السلام) أخاه هارون (عليه السلام) في قومه أوصاه بالإصلاح وعدم اتباع سبيل المفسدين ، قال تعالى:{وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ}[الأعراف : ١٤٢].

وجاء نبي الإسلام (صلى الله عليه وسلم) ليستكمل دعوة الإصلاح في جميع مناحي الحياة دينياً واجتماعياً واقتصادياً وسياسياً ، التي بدأها من سبقه من الأنبياء والرسل (عليهم السلام) ، وبنظرة عميقة في حياته وسيرته نجد أنه (صلى الله عليه وسلم) بنى حضارة إسلامية مرتبطة بالقيم والأخلاق ، بعد أن كان المجتمع ملوثًا بمفاسد أخلاقية كثيرة ، كالزنا والسرقة ، والقتل والربا ، وأكل أموال الناس بالباطل وأكل مال اليتيم ، وغيرها من الفواحش والمنكرات ، لكن رسول الله قابل كل

هذه المشكلات بالمنهج الإصلاحي ، فكانت دعوته (صلى الله عليه وسلم) هي دعوة حياة وإصلاح للفرد والمجتمع ، قال تعالى:{ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ للّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ }[الأنفال: ٢٤]. ففي الجانب الديني : جاءت دعوته (صلى الله عليه وسلم) لإصلاح النفس بالدين ، فبينت أن الله واحد لا شريك له ، وأقامت الأدلة على وحدانيته وصدق رسوله (صلى الله عليه وسلم) ، وفي جانب إصلاح السلوك دعا (صلى الله عليه وسلم) إلى حسن الخلق ، وبين أنه جوهر الدعوة ، فقد روى البيهقي في سننه أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: (إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ).

كما دعا (صلى الله عليه وسلم) إلى القيم والمبادئ الإنسانية التي يتحقق بها إصلاح المجتمع ، والحفاظ على وحدته وقوته وتماسكه وترابطه، لكي تعيش البشرية في سلام وصفاء ، لا نزاع ولا شقاق ، ولا عنف ولا إرهاب ، بعكس ما نشاهده على الساحة من العنف ، والإفساد في الأرض بالقتل والتخريب .

ومن هذه القيم التي أجمعت عليها الشرائع السماوية كلها في سبيل الإصلاح : العدل، والتسامح، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة ، والصدق في الأقوال والأفعال ، وبر الوالدين ، وحرمة مال اليتيم ، ومراعاة حق الجوار ، والكلمة الطيبة ، وذلك لأن مصدر التشريع السماوي واحد، ولهذا قال نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ) (صحيح البخاري) ، فقد تختلف

الشرائع في العبادات وطريقة أدائها وفق طبيعة الزمان والمكان ، لكن الأخلاق والقيم الإنسانية التي تكون أساساً للتعايش لم تختلف في أي شريعة من الشرائع، يقول نبينا صلى الله عليه وسلم : (إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت) ، فأي شريعة من الشرائع أباحت قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، أو أباحت عقوق الوالدين ، أو أكل السحت ، أو أكل مال اليتيم ، أو أكل حق العامل أو الأجير ؟.

وأي شريعة أباحت الكذب ، أو الغدر ، أو الخيانة ، أو خُلف العهد ، أو مقابلة الحسنة بالسيئة ؟، بل على العكس فإن جميع الشرائع السماوية قد اتفقت وأجمعت على هذه القيم الإنسانية السامية ، من خرج عليها فإنه لم يخرج على مقتضى الأديان فحسب ، وإنما يخرج على مقتضى الإنسانية وينسلخ من آدميته ومن الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها .

ولهذا قال ابن عباس (رضي الله عنهما) عن قوله تعالى :{قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ

عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأنعام: ١٥١، ١٥٣] " هذه آيات محكمات لم ينسخهن شيء من جميع الكتب ، وهي محرمات على بني آدم جميعاً، وهن أم الكتاب – أي أصله وأساسه – من عمل بهن دخل الجنة، ومن تركهن دخل النار" .

ومن هنا فإن كل دعوة للإصلاح تخالف دعوة الأنبياء ، وتبتعد عن طريق الشرع ، فهي في الحقيقة دعوة للإفساد في الأرض.

ولقد ضرب النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) المثل الأعلى في الصلاح والإصلاح ، قولا وعملا، فكان من دعائه (صلى الله عليه وسلم) طلب الإصلاح في كل الأمور ، ومن ذلك قوله : (اللهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي ، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي ، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي ، وَاجْعَلِ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ ، وَاجْعَلِ الْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ) (صحيح مسلم) ، فكان يقوم بالصلح بين الناس بنفسه ، ويسعى إليه ترغيباً فيه ودرءًا للفتنة وإزالة للخلافات ، فعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ): أَنَّ أَهْلَ قُبَاءٍ اقْتَتَلُوا حَتَّى تَرَامَوْا بِالحِجَارَةِ ، فَأُخْبِرَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بِذَلِكَ ، فَقَالَ: (اذْهَبُوا بِنَا نُصْلِحُ بَيْنَهُمْ) (رواه البخاري في صحيحه) .

إن الصلاح والإصلاح هما الحصن الحصين لبقاء المجتمع وتقدمه ، فنحن بحاجة إلى إصلاح النفس أولاً وتطهيرها إصلاحاً يشمل مجالات الحياة المتنوعة سياسيًّا واجتماعيًّا واقتصاديًّا وعلميًّا ، فإصلاح النفس مطلب شرعي وواجب ديني.

وإن من الإصلاح أن يعي الفرد ما له وما عليه ، فلا يعتدي على حقوق الآخرين ، وأن يدرك الفرد واجباته فيقوم بها خير قيام ، فإن استقامته وتزكية نفسه على المكارم والأخلاق الفاضلة ، وصرفه وانتهاءه عن الانحراف والإفساد في الأرض والظلم وامتلاء قلبه بالشحناء والبغضاء ، فهذا هو عين الإصلاح ، فكل إنسان يحقق استقامةً مع نفسه ومع ربه ومع بني جنسه ومع الكون فهو الإنسان المتحقق بالصلاح في نفسه ليكون صالحًا لغيره ، فكأن تزكية النفس بالأخلاق الفاضلة هو وسيلة الإصلاح التي تمنع من الظلم والإثم والوقوع فيما نهى الله عنه ، والعمل على تعمير الأرض واستخراج كنوزها وأسرارها التي تأتي بالنفع العام للمجتمع.

فبالإصلاح تكون الألفة لا الفرقة وهو عينه ما يدعو إليه القرآن الكريم. بالإصلاح تنعكس قيم الرحمة والتسامح والعفو على أفراد المجتمع ومن ثم الأمة كلها ، وبالإصلاح ننبذ بذور العنف والكراهية والحقد والبغض.

ولا يتوقف الإصلاح على وقت معين ، بل لا بد وأن يسعى الإنسان للإصلاح حتى آخر نفس في حياته ، وإلى ذلك أشار الرسول (صلى الله عليه وسلم) في الحديث الذي رواه أنس بن مالك (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) عَنِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (إنْ قَامَت السَّاعةُ وَفِي يَد أَحَدِكُم فَسِيلةٌ فَإنْ استَطاعَ أنْ لَا تَقُومَ حَتى يَغرِسَهَا فَليَغِرسْهَا)

(رواه الإمام البخاري في الأدب المفرد).

جدير بالذكر أن الإصلاح لن يتحقق ولن يؤتي ثماره إلا إذا بدأ الإنسان بنفسه ثم بأسرته ثم بمجتمعه، فإصلاح المجتمع واجب لا بد منه لتستقيم الحياة وتنعم البلاد بالأمن والعمل والتقدم ، وتحل المودة والمحبة بين الناس ، والصالح المصلح- الذي يبذل جهده وماله ليصلح بين المتخاصمين- دعا له النبي (صلى الله عليه وسلم) ، فقال: (إِنَّ الدِّينَ بَدَأَ غَرِيبًا وَيَرْجِعُ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ مِنْ بَعْدِي مِنْ سُنَّتِي) (سنن الترمذي) .

إن للإصلاح أثارًا عظيمة على الفرد والمجتمع ، منها : تحقيق الحياة الطيّبة ، قال تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النحل:٩٧].

ومنها: النجاة من الهلاك والدمار ، قال تعالى:{وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ} [هود:١١٧].

ومنها: وراثة الأرض ، فوراثة الأرض مشروطة بمهمة الإصلاح ، قال تعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ} [الأنبياء: ١٠٥].

ومنها تحقيق ولاية الله عز وجل ورعايته لعبده الذي أخذ بمبدأ الإصلاح ، وقام به على الوجه الأكمل ، قال تعالى :{إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ} [الأعراف:١٩٦] .

ومنها أيضا: حفظ الذرية ، قال تعالى: {وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً}[الكهف:٨٢] ، فقصة بناء جدار اليتيمين في قصة موسى (عليه السّلام) مع العبد الصالح معروفة ، ولم تكن عملية بناء الجدار محض صدفة ، وإنما كانت أثراً لصَلاح أبيهما. عن ابن عباس (رضي الله عنهما) حفظا بصلاح أبيهما ولم يذكر لهما صَلاحاً .

ومنها: أن الإصلاح يحقق الأمن من الفزع في الدنيا والآخرة ، قال تعالى:{ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ }[الأنعام:٤٨]. وكذلك يجلب المغفرة والرحمة، قال تعالى :{ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً } [النساء: ١٢٩] .

فالإصلاح إذا دخل على الشيء زينه وحسنه ، وهو خلق يحبه الله تعالى ورسوله (صلى الله عليه وسلم) ، به تستقيم الحياة ، وتكون الأمة قوية متماسكة يعز فيها الضعيف ، وبه يتحد المسلمون وتجتمع كلمتهم ، وتسود بينهم المحبة والمودة ، وهو دليل أخوة الإيمان ، قال تعالى: { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ}[الحجرات :١٠].

وإذا ما فقدنا قيمة الإصلاح فسد المجتمع ، وانهدمت الأسر ، وعمت الفوضى ، واستشرى الفساد ، وانتهكت محارم الله ، واقتُرفت

الشهوات بل انهدم المجتمع والدولة والحضارة ، فترك الإصلاح يـؤدي إلى تعميم العذاب في الدنيا والهلاك المعنوي ،كالفقر والذلة والهوان.

❋ ❋ ❋

صفات المؤمنين في القرآن الكريم

أولاً: العناصر:

١- معرفة الله طريق الإيمان.

٢- الإيمان والعمل الصالح قرينان.

٣- من صفات المؤمنين:

أ ـ الخشية من الله (عز وجل).

ب ـ حسن التوكل على الله (عز وجل).

ج ـ المحافظة على الصلاة والخشوع فيها.

د ـ الإنفاق في سبيل الله .

هـ – الصدق ، والأمانة ، والوفاء بالعهد ، والحياء ، وكريم الأخلاق.

٤- ما أعده الله عز وجل للمؤمنين من النعيم المقيم.

ثانيــاً: الأدلـــة:

الأدلة من القرآن الكريم :

١- قال تعالى:{قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ} [المؤمنون :١-١٠].

٢- وقال تعالى:{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} [الأنفال: ٢، ٤]

٣- وقال تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ} [المؤمنون:٥٧: ٦١].

٤- وقال تعالى:{فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ * إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [آل عمران: ١٩٥ : ١٦٠].

٥- وقال تعالى:{وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا } [الفرقان : ٦٣ : ٦٧].

٦- ويقول تعالى: { يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} [التوبة: ١١٩].

٧- ويقول تعالى:{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ} [المائدة:١].

الأدلة من السنة :

١- عن عُمَر بْن الْخَطَّابِ (رضي الله عنه) قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ وَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنْ الْإِسْلَامِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ، قَالَ : صَدَقْتَ ، قَالَ : فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ ، قَالَ : فَأَخْبِرْنِي عَنْ الْإِيمَانِ ، قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ ، قَالَ : صَدَقْتَ ، قَالَ : فَأَخْبِرْنِي عَنْ الْإِحْسَانِ ، قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ ، قَالَ : فَأَخْبِرْنِي عَنْ السَّاعَةِ قَالَ مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنْ السَّائِلِ قَالَ فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا قَالَ أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ قَالَ ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا ثُمَّ قَالَ لِي يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنْ السَّائِلُ قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ) (صحيح مسلم).

٢- وعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه) أَنَّ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) خَرَجَ يَوْمًا فَاسْتَقْبَلَهُ شَابٌّ مِنَ الْأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ: حَارِثَةُ بْنُ

النُّعْمَانِ، فَقَالَ لَهُ: " كَيفَ أَصْبَحْتَ يَا حَارِثَةُ؟ " قَالَ: أَصْبَحْتُ مُؤْمِنًا حَقًّا، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " انْظُرْ مَا تَقُولُ، فَإِنَّ لِكُلِّ حَقٍّ حَقِيقَةً ، فَمَا حَقِيقَةُ إِيمَانِكَ؟" قَالَ: فَقَالَ: عَزَفَتْ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا، فَأَسْهَرْتُ لِيَلِي وَأَظْمَأْتُ نَهَارِي، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى عَرْشِ رَبِّي بَارِزًا، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ كَيْفَ يَتَزَاوَرُونَ فِيهَا، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ النَّارِ كَيْفَ يَتَعَادَوْنَ فِيهَا، فَقَالَ: فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أَبْصَرْتَ فَالْزَمْ، مَرَّتَيْنِ، عَبْدٌ نَوَّرَ اللهُ الْإِيمَانَ فِي قَلْبِهِ "(شعب الإيمان).

٣- وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): (الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ) (صحيح مسلم) .

٤- وعن عُمَر (رضي الله عنه) قَالَ: سمعتُ رَسُول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول: (لَوْ أَنَّكُمْ تَتوكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ ، تَغْدُو خِمَاصاً وَتَرُوحُ بِطَاناً) (رواه الترمذي).

٥- وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ (رضي الله عنهما) قَالَ: دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عَلَى عُمَرَ وَمَعَهُ أُنَاسٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: (أَمُؤْمِنُونَ أَنْتُمْ؟) فَسَكَتُوا – ثَلَاثَ مَرَّاتٍ – فَقَالَ عُمَرُ فِي آخِرِهِمْ: نَعَمْ، نُؤْمِنُ عَلَى مَا أَتَيْتَنَا بِهِ، وَنَحْمَدُ اللَّهَ فِي الرَّخَاءِ، وَنَصْبِرُ عَلَى الْبَلَاءِ، وَنُؤْمِنُ بِالْقَضَاءِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (مُؤْمِنُونَ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ) (رواه الطبراني).

ثالثاً: الموضـــــوع :

من رحمة الله (عز وجل) ولطفه بعباده أن أرسل إليهم رسلاً لهدايتهم إلى طريق الحق، وإلى الصراط المستقيم ، حتى لا يكون لأحد من الخلق حجة أمام الله عز وجل ، قال تعالى: {رُسُلا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} [النِّسَاءِ: ١٦٥] .

والإيمان بالله – تعالى– هو أسمى علاقة جاء بها الرسل (عليهم السلام) ، ومعناه : استقرار العقيدة في القلب بالإيمان بالله وبملائكته، وكتبه، ورسله، وباليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، وعلى المؤمنين أن يؤدوا مطلوب الإيمان ، وهو تنفيذ التكاليف التي يأتي بها المنهج الإلهي ، والمبلِّغ عنه سيدنا رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) في الأوامر و النواهي.

ومعرفة الله (عز وجل) هي أول طريق الإيمان ، قال تعالى:{فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ} [محمد:١٩] .

ومن المعلوم أن الإيمان بالله (عز وجل) مرتبط بالعمل الصالح ، لا ينفك أحدهما عن الآخر، كما جاء في القرآن الكريم في آيات كثيرة ، ومنها: قوله سبحانه: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة: ٨٢] ، وقوله عز وجل : {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي

جَنَّاتِ النَّعِيمِ}[يونس: ٩] ، وقوله : {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا} [الكهف: ١٠٧] ، إلى غير ذلك الآيات الكريمة ، والإيمان يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، وله شعب متعددة تتفاوت من مؤمن لآخر حسب درجة إيمانه بالله تعالى ، فعنْ أَبِى هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): (الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّه، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ)، والأعمال الصالحة من جملة شعب الإيمان.

وقد جاء في حديث جبريل– عليه السلام– المشهور بيان لحقيقة الإيمان الّذي ينبغي أن يتحقق في قلب المؤمن ، يقول الفاروق عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ (رضي الله عنه) : بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ وَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنْ الْإِسْلَامِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ، قَالَ : صَدَقْتَ ، قَالَ : فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ ، قَالَ : فَأَخْبِرْنِي عَنْ الْإِيمَانِ ، قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ ، قَالَ :

صَدَقْتَ ، قَالَ : فَأَخْبِرْنِي عَنْ الْإِحْسَانِ ، قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ ، قَالَ : فَأَخْبِرْنِي عَنْ السَّاعَةِ قَالَ مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنْ السَّائِلِ قَالَ فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا قَالَ أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ قَالَ ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا ثُمَّ قَالَ لِي يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنْ السَّائِلُ قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ) (صحيح مسلم).

ولقد ذكر الحق سبحانه وتعالى في كتابه الحكيم صفات كثيرة لعباده المؤمنين ، **منها: كمال الخشية لله تعالى** ، إذ أن الخشية من الله تعالى من أعلى المقامات وأجلها ، يقول الله تعالى :{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ}[الأنفال:٢- ٤]. والوجل هو كمال الخشية لله تعالى ، قال تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ } [المؤمنون:٥٧ -٦٠] ، وقال تعالى:{إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ} [يس:١١] .

ولقد ضرب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أروع الأمثلة في كمال الخشية من الله تعالى ، فعَنْ مُطَرِّفٍ ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ

(صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يُصَلِّي وَلِصَدْرِهِ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ الْمِرْجَلِ) (رواه ابن خزيمة). وكان (صلى الله عليه وسلم) يسأل الله تعالى الخشية ، فعَنْ أَبِي مِجْلَزٍ (رضي الله عنه) قَالَ : صَلَّى بِنَا عَمَّارٌ صَلَاةً، فَأَوْجَزَ فِيهَا، فَأَنْكَرُوا ذَلِكَ، فَقَالَ: أَلَمْ أُتِمَّ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: أَمَا إِنِّي قَدْ دَعَوْتُ فِيهِمَا بِدُعَاءٍ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَدْعُو بِهِ:(اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ، أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الْحَيَاةَ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي، أَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، وَكَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا، وَالْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى ، وَلَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، وَمِنْ فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ، اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مَهْدِيِّينَ)

(رواه أحمد).

يقول الشاعر:

خف الله وارجوه لكلِّ عظيمةٍ * * * ولا تطع النَّفس اللّجوج فتندما

وكن بين هاتين من الخوف والرَّجا* * * وأبشر بعفو الله إن كنت مسلما

ومن صفات المؤمنين كذلك التوكل على الله (عز وجل) ، ومعناه: صدق اعتماد القلب على الله (عزّ وجلّ) في استجلاب المصالح ودفع المضارّ ، وتفويض الأمور كلّها إليه، مع اعتقاد أنّه لا يعطي ولا يمنع ، ولا يضرّ ولا ينفع سواه سبحانه وتعالى ، فالمؤمن يتوكل على الله (عز وجل) ويأخذ بالأسباب المؤدية لإتمام الأعمال دون الاعتماد عليها ، فالأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل، فعن عُمَر (رضي الله عنه)

قَالَ : سمعتُ رَسُول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول: (لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصاً وَتَرُوحُ بِطَاناً) (رواه الترمذي).

أمّا من يدعي التوكل على الله (عز وجل) دون السعي والعمل فليس من التّوكّل في شيء ، وإنّما هو اتّكال أو تواكل حذّرنا منه رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم)، ونهى عن الأسباب المؤدّية إليه، فعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ (رضي الله عنه) قَالَ: كُنْتُ رِدْفَ رَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ عُفَيْرٌ ، قَالَ: فَقَالَ: (يَا مُعَاذُ تَدْرِى مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ) قَالَ: قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: (فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ لاَ يُعَذِّبَ مَنْ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا) قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلاَ أُبَشِّرُ النَّاسَ قَالَ :(لاَ تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا) (صحيح مسلم) فحسن التوكل على الله (عز وجل) مرتبط ارتباطا وثيقا بحياة المؤمن ، لا يتحقق جلب النفع أو دفع الضر إلا بحسن التوكل.

ومن صفات المؤمنين – أيضًا – المحافظة على الصلاة والخشوع فيها ، وفي ذلك يقول الله تعالى : { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ } ، فالصلاة هي شعار الإسلام جاء الأمر بها في آيات عديدة منها ، قوله تعالى:{وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ} [البقرة:٤٣] ، وجعلها النبي (صلى الله عليه وسلم) أحد أركان الإسلام الخمسة ، فعن ابن عمر (رضي الله عنهما) قَال: قال رَسُول اللهِ (صلى الله عليه وسلم) :

(بُنِيَ الإِسْلامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَحَجِّ البَيْتِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ) (متفقٌ عَلَيهِ) .

والناس متفاوتون في أحوالهم مع الخشوع في الصلاة ، فمنهم من يحظى بأجر الصلاة كاملا، ومنهم من ليس له من صلاته إلا النصب والتعب ، فعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) يَقُولُ: (رُبَّ قَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ قِيَامِهِ السَّهَرُ ، وَرُبَّ صَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ صِيَامِهِ الْجُوعُ وَالْعَطَشُ) (سنن البيهقي) ، فالصلاة سببٌ في تهذيب السلوك والأخلاق، والبعد عن المنكرات ، فمن أقامها كانت سبباً في بعده عن المعاصي والفواحش ، قال تعالى:{... وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ }[العنكبوت: ٤٥]. ومما يدل على وجوب الخشوع في الصلاة ما رواه أنس بن مالك (رضي اللّه عنه) قال: قال رسول اللّه (صلى الله عليه وسلم) : (مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَرْفَعُونَ أَبْصَارَهُمْ إِلَى السَّمَاءِ فِي صَلاَتِهِمْ ، فَاشْتَدَّ قَوْلُهُ فِي ذَلِكَ حَتَّى قَالَ : لَيَنْتَهُنَّ عَنْ ذَلِكَ ، أَوْ لَتُخْطَفَنَّ أَبْصَارُهُمْ) (صحيح البخاري).

ومن صفات المؤمنين كذلك : الإنفاق في سبيل اللّه تعالى بمفهومه الشامل المتضمن الزكاة المفروضة وصدقات التطوع ، فعن ابن عمر (رضي الله عنه) عن النَّبيّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: (اليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ، وَخَيْرُ الصَّدَقَةِ مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ غِنىً، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ) (صحيح البخاري) ،

وعن أَبي مسعود البدري (رضي الله عنه) عن النَّبيّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: (إِذَا أَنْفَقَ الرَّجُلُ عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةً يَحْتَسِبُهَا فَهِيَ لَهُ صَدَقَةٌ) (صحيح مسلم) ، فالمؤمن يعلم أنه مستخلف في المال، وأن الفضل بيد الله فينفق لينفق الله عليه، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبيِّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: (بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِفَلاَةٍ مِنَ الأَرْضِ، فَسَمِعَ صَوْتاً في سَحَابَةٍ، اسقِ حَدِيقَةَ فُلانٍ، فَتَنَحَّى ذَلِكَ السَّحَابُ فَأَفْرَغَ مَاءهُ في حَرَّةٍ، فإِذَا شَرْجَةٌ مِنْ تِلْكَ الشِّرَاجِ قَدِ اسْتَوْعَبَت ذَلِكَ الماءَ كُلَّهُ، فَتَتَبَّعَ المَاءَ، فإِذَا رَجُلٌ قَائمٌ في حَدِيقَتِهِ يُحَوِّلُ الماءَ بِمسحَاتِهِ، فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ اللهِ، ما اسمُكَ؟ قال: فُلانٌ للاسم الذي سَمِعَ في السَّحابةِ، فقال له: يا عبدَ الله، لِمَ تَسْأَلُنِي عَنِ اسْمِي؟ فَقَالَ: إنِّي سَمِعْتُ صَوتْاً في السَّحابِ الَّذِي هَذَا مَاؤُهُ، يقولُ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلاَنٍ لاسمِكَ، فَمَا تَصْنَعُ فِيهَا، فَقَالَ: أمَا إذ قلتَ هَذَا، فَإنِّي أَنْظُرُ إِلَى مَا يَخْرُجُ مِنْهَا، فَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثِهِ، وَآكُلُ أَنَا وَعِيَالِي ثُلُثاً، وَأَردُّ فِيهَا ثُلُثَهُ) (صحيح مسلم)

وقد أشار القرآن الكريم إلى صفات أخرى للمؤمنين إضافةً إلى ما ذكر ، ومنها : أنهم عن اللغو معرضون ، وللأمانات والعهود راعون ، وفي ذلك يقول تعالى : {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ *

أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [المؤمنون:١-١١] . فبينت الآيات أن الفلاح والفوز لمن اتصف بهذه الصفات من خشوع في الصلاة ، وإعراض عن اللغو ، وإيتاء للزكاة ، وحفظ للفروج عن الحرام ، والحفاظ على الأمانات وتأديتها لأصحابها ، والوفاء بالعهود ، كل ذلك عده القرآن من صفات المؤمنين وأخلاقهم.

فحري بكل مسلم أن يتخلق بهذه الأخلاق الواردة في القرآن الكريم بحق أهل الإيمان ليضمن لنفسه النجاة في الدنيا والآخرة ، فالإيمان إذا تحقق في قلب العبد كما ينبغي صانه عن كل صور الانحراف والتشدد والتعصب ، وجعله محبًّا للخير لنفسه ولغيره ، ويتجنب شهادة الزور والكذب ومجالس اللغو ، ويسعى لتحقيق الخير والصلاح لمجتمعه ووطنه ، أما من ادعى الإيمان وانحرف بأخلاقه وتصرفاته عن الوجهة الشرعية الصحيحة فلم يكتمل إيمانه ، لأن الإيمان لابد له من حقيقة تدل عليه ، فعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه) أَنَّ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) خَرَجَ يَوْمًا فَاسْتَقْبَلَهُ شَابٌّ مِنَ الْأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ: حَارِثَةُ بْنُ النُّعْمَانِ، فَقَالَ لَهُ: (كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا حَارِثَةُ؟) قَالَ: أَصْبَحْتُ مُؤْمِنًا حَقًّا، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (انْظُرْ مَا تَقُولُ، فَإِنَّ لِكُلِّ حَقٍّ حَقِيقَةً ، فَمَا حَقِيقَةُ إِيمَانِكَ؟) قَالَ: فَقَالَ: عَزَفَتْ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا، فَأَسْهَرْتُ لِيَلِي وَأَظْمَأْتُ نَهَارِي، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى عَرْشِ رَبِّي بَارِزًا،

وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ كَيْفَ يَتَزَاوَرُونَ فِيهَا، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ النَّارِ كَيْفَ يَتَعَادَوْنَ فِيهَا، فَقَالَ: فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (أَبْصَرْتَ فَالْزَمْ ، مَرَّتَيْنِ، عَبْدٌ نَوَّرَ اللهُ الْإِيمَانَ فِي قَلْبِهِ ") (شعب الإيمان).

على أن المؤمن إنما يتصف بكل الصفات الكريمة من الصدق ، والأمانة ، والوفاء بالعهد، والكرم والحياء ، والاستقامة ، والرحمة ، والسماحة ، والتواضع ، والعدل ، والإحسان ، والإيثار ، وسائر مكارم الأخلاق التي حث عليها القرآن الكريم ، قال تعالى :{ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ}[التوبة:١١٩]، وقال سبحانه:{ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ } [المعارج: ٣٢]، وقال في علامات الصادقين المتّقين:{ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}

[البقرة: ١٧٧].

وقد أعد الله تعالى للمؤمنين المتصفين بكريم الأخلاق نعم الجزاء وحسن الثواب ، قال سبحانه : {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا}

[الكهف: ١٠٧– ١٠٩] .

سماحة الإسلام ونبذه لكل مظاهر العنف

أولا : العناصر :

١- الإسلام دين اليسر والسماحة.

٢- من مظاهر السماحة في الإسلام.

أ- سماحة الإسلام في الدعوة إلى الله عز وجل.

ب- سماحة الإسلام في يُسْر العبادات.

ج – سماحة الإسلام في المعاملات.

٣- سماحة الإسلام في التعامل مع غير المسلمين.

٤- أثر سماحة الإسلام في جوانب الحياة.

ثانيًا : الأدلــة :

الأدلة من القرآن الكريم :

١- قال تعالى:{يرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً}

[سورة النساء: ٢٨].

٢- وقال تعالى:{ ...يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ...}

[سورة البقرة : ١٨٥).

٣- وقال تعالى:{فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}[آل عمران: ١٥٩].

٤- وقال تعالى : { قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران: ٦٤].

٥- وقال تعالى:{ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى* فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} [طه: ٤٣، ٤٤].

٦- وقال تعالى:{لا يُكلِّفُ اللهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَها لها ما كَسَبَتْ وعليها مَا اكتَسَبَتْ...} [البقرة:٢٨٦].

٧- وقال تعالى : {وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}[البقرة:٢٨٠].

٨- وقال تعالى:{لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ...}

[البقرة: ٢٥٦].

الأدلة من السنة :

١- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) عَنِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ : (إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ وَلَن يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلاَّ غَلَبَهُ ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا ، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ)

(رواه البخاري).

٢- وعَنْ أَنَسٍ بن مالك (رضي الله عنه) عَنِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ : (يَسِّرُوا وَلاَ تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا وَلاَ تُنَفِّرُوا) (رواه البخاري ومسلم).

٣- وعَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّ النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) بَعَثَهُ وَمُعَاذًا (رضي الله عنهما) إِلَى الْيَمَنِ فَقَالَ : (يَسِّرَا وَلاَ تُعَسِّرَا ، وَبَشِّرَا وَلاَ تُنَفِّرَا ، وَتَطَاوَعَا وَلاَ تَخْتَلِفَا) (رواه الشيخان).

٤- وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ (رضي الله عنه) قَالَ :قَالَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ بِالْيَهُودِيَّةِ وَلاَ بِالنَّصْرَانِيَّةِ ، وَلَكِنِّي بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ ...) (رواه أحمد).

٥- وعَنْ عَائِشَةَ (رضي الله عنها) عَنِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ : (إِنَّ الرِّفْقَ لاَ يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلاَّ زَانَهُ ، وَلاَ يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ شَانَهُ). (رواه مسلم).

٦- وعَنْ عَائِشَةَ (رضي الله عنها) أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: (اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ) (رواه مسلم).

٧- وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ : قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ، قَالَ : (إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً) (رواه مسلم).

٨- وعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا) أَنَّ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ : (رَحِمَ اللهُ رَجُلًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ وَإِذَا اشْتَرَى وَإِذَا اقْتَضَى) (رواه البخاري).

٩- وعن أبي حُذَيْفَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم): (تَلَقَّتِ الْمَلاَئِكَةُ رُوحَ رَجُلٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ قَالُوا: أَعَمِلْتَ

مِنَ الْخَيْرِ شَيْئًا ؟ قَالَ : كُنْتُ آمُرُ فِتْيَانِي أَنْ يُنْظِرُوا وَيَتَجَاوَزُوا عَنِ الْمُوسِرِ ، قَالَ : قَالَ فَتَجَاوَزُوا عَنْهُ) (رواه البخاري).

١٠- وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا) أَنَّ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ : (رَحِمَ اللهُ رَجُلًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ وَإِذَا اشْتَرَى وَإِذَا اقْتَضَى) (رواه البخاري) .

ثالثًا: الموضـــــوع:

لما كان الدين الإسلامي هو خاتم الأديان فإن الله – عز وجل – حباه بخصائص تؤهله لأن يكون دينًا صالحًا لكل زمان ومكان ، ومن أبرز تلك الخصائص وأجلّها : السماحة واليسر في كل شأن من شئون الحياة.

إنه دين عظيم بأحكامه وتعاليمه ، يتميز بالسماحة في تعاليمه وفي تعاملاته ، سماحة في عقيدته وعباداته ومعاملاته وآدابه وسائر تشريعاته ، سواء مع المسلمين أو غير المسمين ، فلم يجبر أحدًا على اعتناقه ، ولم ينتشر بحد السيف كما يقال هذه الأيام ، إنما انتشر بتعاليمه السمحة وأخلاقه الكريمة وقيمه النبيلة ، وانتشر بأخلاق النبي (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه من بعده ، مما يبرهن على أن الإسلام بريء من العنف والإرهاب والتطرف ، وأنه دين اليسر والسماحة والتلطف.

ولم تعرف البشرية نظامًا ولا دينًا اشتملت مبادئه على السماحة واليسر كالإسلام ؛ لأن تعاليمه تتفق وطبيعة الإنسان ، لا حرج فيه ولا مشقة، ولا شدّة فيه ولا تعسير ، ومن ينظر في كتاب الله تعالى وفي سيرة

المصطفى (صلى الله عليه وسلم) يجد أن اليسر والسماحة من خصائص هذا الدين ، يقول الله سبحانه في كتابه العزيز: {يرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً } [النساء : ٢٨] ، ذلك ما أراده الله تعالى لهذه الأمة اليسر والتخفيف، وتلك صفة الدين العامة ، قال تعالى:{ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} [البقرة : ١٨٥].

ويؤكد الرسول (صلى الله عليه وسلم) على هذه المعاني في سنته الشريفة ، حيث أوصى باليسر والسماحة ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ : (إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلاَّ غَلَبَهُ ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا ، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ) (رواه البخاري). وعَنْ أَنَسٍ بن مالك (رضي الله عنه) عَنِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ : (يَسِّرُوا وَلاَ تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا وَلاَ تُنَفِّرُوا)

(رواه البخاري ومسلم).

وهكذا نجد أن تعاليم الإسلام التي جاء بها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سمحة ميسرة لكل إنسان ، فعَنْ أَبِي أُمَامَةَ (رضي الله عنه) قَالَ :قَالَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ بِالْيَهُودِيَّةِ وَلاَ بِالنَّصْرَانِيَّةِ ، وَلَكِنِّي بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ ...) (رواه أحمد).

ومما لا شك فيه أن للسماحة والتيسير أهمية كبرى وأثرًا واضحًا في سرعة انتشار الإسلام وارتفاع رايته ودوام بقائه بين الأمم والشعوب التي اعتنقته ، فالتاريخ يشهد بأن سرَّ انتشار الإسلام واعتناق الناس له ، ودخولهم في دين الله أفواجًا هو هذا المنهج الرباني المبني على

السماحة واليسر ، وحسن المعاملة وعدم التعصب والتشدد ، أما صور التعصب الممقوت التي يساء فيها إلى الإسلام ، والتي تتجاوز أصل السماحة إلى الشدة والمشقة والعنت ، فإنها لا تدفع الناس إلى الدخول فيه ، بل تدفعهم إلى النفور منه ، أو التفريط في بعض تعاليمه.

وتفاديًا من الوقوع في هذا الجانب السلبي وصّى النبي (صلى الله عليه وسلم) معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري (رضي الله عنهما)حينما أرسلهما داعيَيْن إلى اليمن ، وقال لهما: (يَسِّرَا وَلاَ تُعَسِّرَا ، وَبَشِّرَا وَلاَ تُنَفِّرَا ، وَتَطَاوَعَا وَلاَ تَخْتَلِفَا) (متفق عليه).

بهذه النظرة الإنسانية وما فيها من محبة وتسامح ساد الإسلام وارتفعت رايته ؛ لأنه جاء بما يتوافق مع فطرة الإنسان وبما جبلت عليه العقول السليمة من حب الخير للناس أجمعين، وإذًا فليس في ثقافة الإسلام ولا تعاليمه ما يدعو إلى العنف والكراهية.

وتتجلى سماحة الإسلام في مظاهر كثيرة ، منها:

السماحة في الدعوة إلى الله (عز وجل) : فالإسلام دين الناس قاطبة ، وبه بعث الله كل الأنبياء ليُبلغوه للناس ، فهو أصل رسالتهم ، وإن اختلفت شرائعهم وأحكامهم ، فإنهم متفقون على أن الأصل الأول هو التوحيد.

ومن مظاهر سماحة الإسلام في الدعوة إلى التوحيد : أن الله تعالى امتنَّ على نبيه (صلى الله عليه وسلم) بالشفقة واللين ، فقال تعالى:

{ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ...} [آل عمران: ١٥٩].

ويتجلى هذا التسامح كذلك في مخاطبة أهل الكتاب بالأسلوب الراقي الجميل ، قال تعالى : { قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران: ٦٤].

ويتضح هذا الأسلوب اللين السمح – أيضا– في أمر الله تعالى نبييه موسى وهارون (عليهما السلام) بإلانة القول لفرعون في دعوتهما له ، فقال تعالى : {اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} [طه: ٤٣، ٤٤]. ولذا قال الخليفة المأمون لما عنّفه واعظ : (يا رجل ارفق؛ فقد بعث الله من هو خير منك إلى من هو شر مني وأمره بالرفق).

وإلى هذا النهج رغَّب النبي (صلى الله عليه وسلم) أصحابه بقوله : (إِنَّ الرِّفْقَ لاَ يَكُونُ فِى شَىْءٍ إِلاَّ زَانَهُ وَلاَ يُنْزَعُ مِنْ شَىْءٍ إِلاَّ شَانَهُ).. (رواه مسلم) ، بل دعا النبي (صلى الله عليه وسلم) لمن رفق بأمته بقوله: (اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ). (رواه مسلم) .

كذلك تتجلى سماحة الإسلام ويسره في العبادات : حيث جاء بتنظيم العلاقة بين العبد وربه بالعبادات التي تزكي النفوس وتطهر القلوب ، والتي تمتازُ باليُسْرِ والسُّهولةِ ؛ لأنها مَشروطةٌ بالقُدْرة على أدائها ،

مع مُراعاةِ الحالاتِ المُختلفةِ عند القصور أو العَجْزِ ، وهذا مِن تَجلِّياتِ السَّماحةِ التي لا يُجارَى فيها الإسلامُ ولا يُبارَى، ولعلَّ مِن أشهر القواعدِ الفقهيَّة التي بُنيتْ عليها الأحكامُ التَّشريعيَّةُ (الضَّرُوراتُ تُبِيْحُ المَحْظُوراتِ) ، و(لا ضَرَرَ ولا ضِرارَ).

وقد حافظ الإسلامُ على وصف السَّماحة لأحكامِهِ ، وأقامها على التَّيسير ورَفْعِ الحَرَج ودَفْعِ الضَّرَر، مُنْتهِجًا فيها أُصولَ التدرُّج في التَّشريع، مُراعاةً للطَّبيعة البشريَّة ، مُشرِّعًا مِن التَّكاليف ما تَحتمِلُهُ طاقةُ المُكلَّف ، وذلك مِن سماحة الدِّين واعتِدالِهِ ووَسَطيَّتِهِ ، قال تعالى:{لا يُكلِّفُ اللهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَها لها ما كَسَبَتْ وعليها مَا اكتَسَبَتْ} [البقرة:٢٨٦].

وإذا كان هذا الحالُ في العباداتِ فالنَّاسُ في المُعاملاتِ أحوجُ إلى السَّماحةِ واليسر، لذا جاء الإسلام بتنظيم المعاملات بين البشر بعضهم لبعض ليعيش الناس في أمن وعدل ورخاء ، ومن سماحة الإسلام وتيسيره أنه جعل الأصل في المعاملات الإباحة إلا ما دل عليه الدليل ، والمُعاملاتُ الماليّةُ لها صُوَرٌ كثيرةٌ ومُتعدِّدةٌ، منها مُعاملاتُ البيع والشِّراء والدَّيْنِ والقُرُوضِ وغيرِ ذلك.

ففي البيع والشراء حث النبي (صلى الله عليه وسلم) على السماحة ، حيث قَالَ : (رَحِمَ اللهُ رَجُلًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ وَإِذَا اشْتَرَى وَإِذَا اقْتَضَى) (رواه البخاري) ، ففي الحديث : حث على السماحة في المعاملة واستعمال مكارم الأخلاق وترك المشاحنة ، والحض على ترك

التضييق على الناس في المطالبة وأخذ العفو منهم. فينبغي أن يكون المسلِمُ سَمْحًا في بيعه وشرائه.

ومن سماحة الإسلام: أنه راعى المصالح والظروف، ورفع المشقة والحرج عن الناس في البيوع ، إذ قد يقع البيع فجأة من غير تأمل ولا نظر، فيحتاج المتبايعان أو أحدهما، إلى التريث والتروِّي في أمره، من أجل ذلك أعطى الإسلام طرفي البيع فرصة ومهلة للنظر في مصلحتهما من تلك الصفقة ؛ فشرع لهما الخيار في البيع ، لاختيار ما يناسب كلاً منهما من إمضاء البيع أو فسخه ، فعن حكيم بن حزام (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (البيِّعان بالخيار ما لم يتفرَّقا ، أو قال: حتى يتفرقا ، فإن صدقا وبَيَّنا بُورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما). (رواه البخاري).

كما حثَّ الإسلام على السماحة في القرض وإنظار المعسر ، قال تعالى :{وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [البقرة:٢٨٠]. وفي ذلك يقول (صلى الله عليه وسلم) : (مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضَعَ عَنْهُ أَظَلَّهُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ).(رواه مسلم).

كذلك رغَّب النبي (صلى الله عليه وسلم) في التجاوز عن المعسر ، فعن أبي حُذَيْفَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم): (تَلَقَّتِ الْمَلَائِكَةُ رُوحَ رَجُلٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ قَالُوا: أَعَمِلْتَ مِنَ الْخَيْرِ شَيْئًا ؟ قَالَ : كُنْتُ آمُرُ فِتْيَانِي أَنْ يُنْظِرُوا وَيَتَجَاوَزُوا عَنِ الْمُوسِرِ، قَالَ

: قَالَ فَتَجَاوَزُوا عَنْهُ) (رواه البخاري) ، وفي صحيح مسلم ، عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الأنصاري (رضي الله عنه) قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): (حُوسِبَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَلَمْ يُوجَدْ لَهُ مِنَ الْخَيْرِ شَيْءٌ إِلاَّ أَنَّهُ كَانَ يُخَالِطُ النَّاسَ ، وَكَانَ مُوسِرًا ، فَكَانَ يَأْمُرُ غِلْمَانَهُ أَنْ يَتَجَاوَزُوا عَنِ الْمُعْسِرِ ، قَالَ : قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : نَحْنُ أَحَقُّ بِذَلِكَ مِنْهُ ، تَجَاوَزُوا عَنْهُ).

وكما راعى الإسلام السماحة بين المسلمين ، راعى السماحة في معاملة غير المسلمين ، فلم تقتصر سماحته على المسلمين فحسب ، بل شملت غير المسلمين ، حتى في حالة الحرب، فنهى عن قتل الأطفال، والنساء، والشيوخ، والعجزة، فعن بريدة (رضي الله عنه) قال: كَانَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ، أَوْ سَرِيَّةٍ، أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللهِ، وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا، ثُمَّ قَالَ: (اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ، اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تَمْثُلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا، وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ – أَوْ خِلَالٍ – فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَإِنْ أَجَابُوكَ، فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ)

(صحيح مسلم).

ومن صور السماحة في الإسلام: أنه كفل الحرية لكل فرد، فلا إكراه لأحد في دخول الإسلام إلاّ بعد القناعة التامة بهدايته، قال تعالى:{لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ...}[البقرة: ٢٥٦].

كذلك من صور سماحة الإسلام مع غير المسلمين: أنه حرّم التعرض بالأذى – بالقول أو الفعل – لكل معاهد أو مستأمن دخل ديار الإسلام ، ووعد وأغلظ في العقوبة لمن تعرض لهم بالأذى ، فقد روى البخاري في صحيحه عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) عَنْ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ : (مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا).

وكذلك من صور سماحة الإسلام مع غير المسلمين: أنه أوجب على المسلمين سلوك العدل في التعامل مع غيرهم ؛ ولم يجعل عدم دخولهم في الإسلام سببًا في ظلمهم أو خيانتهم ، كما قال تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}[المائدة: ٨].

ولو تتبعنا سيرة النبي (صلى الله عليه وسلم) لوجدنا فيها ضروبًا من التسامح والموادعة فكان (صلى الله عليه وسلم) مثالاً للكمال البشري في حياته كلها ، مثالًا للكمال في علاقته بربه ، وفي علاقته بالناس كلهم بمختلف أجناسهم وأعمارهم وألوانهم ، مسلمين وغير مسلمين.

وقد تجلّت روح التسامح عند النبي (صلى الله عليه وسلم) يَوْمَ الْفَتْحِ حين قال: (مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ وَمَنْ أَلْقَى السِّلَاحَ

فَهُوَ آمِنٌ وَمَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ) (مسلم). وما أروع قوله (صلى الله عليه وسلم) يوم الفتح لمن ناصبوا له العداء وكانوا حربا على الدعوة : (اذهبوا فأنتم الطلقاء) .

وقد أوصى النبي (صلى الله عليه وسلم) بالقبط خيرًا ، حيث قال: (إِذَا فَتَحْتُمْ مِصْرَ فَاسْتَوْصُوا بِالْقِبْطِ خَيْرًا، فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا) (رواه الطبراني في المعجم الكبير). وفي صحيح مسلم عن أَبي ذَرٍّ (رضي الله عنه) قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): (إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ أَرْضًا يُذْكَرُ فِيهَا الْقِيرَاطُ فَاسْتَوْصُوا بِأَهْلِهَا خَيْرًا فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا).

لم تكن هذه الأخلاقُ العظيمةُ في الإسلام شِعارًا فَضْفاضًا ، ولا قِيَمًا خالية مِن مَضامِينها الإنسانيَّةِ ، بل كانت حركةً نابضةً بالحياة جَسَّدَها الرَّسولُ الكريمُ (صلَّى الله عليه وسلَّمَ) في قُدوَتِهِ لنا بصورةٍ مُضيئةٍ ، فقد آذته قريشٌ في معركة أُحُد ، وجمعت جهدَها لقتْلِهِ ووَأْدِ دعوتِهِ، وخرج من المعركة جريحًا وقد كُسِرت رَباعيَّتُهُ وشُجَّ وجهُهُ الكريمُ، فقيل له: يا رسولَ الله ادْعُ على المُشركين، فقال: (إنِّي لم أُبْعَثْ لَعّانًا وإنَّما بُعِثْتُ رحمةً) (رواه مسلم).

إنَّ رحمتَهُ (صلَّى الله عليه وسلَّمَ) وشفقتَهُ العظيمةَ وسماحَتَهُ القلبيَّةَ هي التي تغلِبُ في المواقف العصيبةِ ، التي تبلغُ فيها المُعاناةُ أشدَّ مراحلِها ، وهذا ما بَرزَ واضحًا حين ذهب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى الطائف يدعو الناس إلى الإسلام ، إلا أنهم رموه بالحجارة

وأدموا قدمه الشريفة، فرجع (صلى الله عليه وسلم) و هو مهموم ، فأرسل الله تعالى له جبريل (عليه السَّلامُ) ومعه ملك الجبال ، فقال له جبريلُ : (إنَّ اللهَ قد سمِعَ قولَ قومِكَ لكَ وما ردُّوا عليكَ، وقد بعثَ اللهُ إليكَ مَلكَ الجبالِ لتأمُرَهُ بما شِئْتَ فيهم، فناداني ملك الجِبال فسَلَّمَ عليَّ، ثمَّ قال: يا مُحمَّدُ! إنْ شِئتَ أنْ أُطْبِقَ عليهمُ الأَخشَبَيْنِ. فقال النَّبيُّ (صلَّى الله عليه وسلَّم): (بل أرجو أن يُخرِجَ اللهُ مِن أصلابِهِم مَن يعبُدُ اللهَ وحدَهُ لا يُشرِكُ به شيئاً) (متفق عليه). هكذا نظر رسول الله إلى قومه بنور الإسلام وسماحته.

وعلى نهجه (صلى الله عليه وسلم) سار الصحابة (رضي الله عنهم) ، فهذا أبو بَكرٍ الصِّدِّيقِ (رَضِيَ اللهُ عَنهُ) كَانَ يُنفِقُ عَلَى مِسطَحِ بنِ أُثَاثَةَ لِقَرَابَتِهِ مِنهُ وَفَقْرِهِ - فَلَمَّا وَقَعَ المُنَافِقُونَ في عِرضِ ابنَتِهِ عَائِشَةَ الصِّدِّيقَةِ (رَضِيَ اللهُ عَنهَا) وكَانَ مِسطَحٌ فِيمَن وَقَعُوا- قَالَ الصِّدِّيقُ: وَاللَّهِ لاَ أُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ مَا قَالَ ، فَأَنزَلَ اللهُ تَعَالَى:{وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[النور:٢٢] فَقَالَ أَبُو بَكرٍ الصِّدِّيقُ: (بَلَى وَاللهِ، إِنِّي لأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي ، فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ وَقَالَ وَاللَّهِ لاَ أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا) (صحيح البخاري).

إِنَّ أَعظَمَ السَّمَاحَةِ وَأَعلَى دَرَجَاتِهَا، أَن يَتَسَامَحَ المَرءُ مَعَ مَن أَسَاءَ إِلَيهِ، أَو جَحَدَ فَضلَهُ وَنَسِيَ مَعرُوفَهُ.

تلك نماذج من صفحات التاريخ الإسلامي ، والتي تنمّ عن يسر الإسلام وسماحته، وكم لها من آثار في جميع الجوانب التي تؤدي إلى المحبة والتآلف ونبذ العنف والتنافر.

إننا بحاجة إلى خلق السماحة لنطهّر بها أنفسنا من الغلّ والشحناء ـ والمنازعة والبغضاء، ونرسم في مجتمعاتنا شعائر المحبّة والإخاء .حتّى إذا أصرّت فئة أو طائفة على خلاف ذلك وجدت في مجتمع المؤمنين رفضا عمليا لأخلاق الجفاء، واستنكارا جماعيا لموارد الهلكة والشحناء.

أسس التعايش السلمي

في حياة النبي (صلى الله عليه وسلم)

أولا: العناصر:

١. مراعاة الإسلام للبعد الإنساني.

٢- ضرورة التعايش السلمي بين طوائف المجتمع.

٣- أسس التعايش السلمي وصوره مع غير المسلمين.

- حرية الاعتقادِ.
- حُسنُ الجوارِ مَعَ غيْرِ المسلمينَ .
- حُسْنُ الصِّلَةِ والإحسانِ إِلَى الآخرينَ.
- العدل والإنصاف، وعدم ظلم الآخرين .

٤. أثر التعايش السلمي على المجتمعات.

ثانيا: الأدلة:

الأدلة من القرآن الكريم :

١- يقول تعالى:{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ }

[الحجرات : ١٣].

٢-ويقول تعالى: { وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ} [يونس : ١١٨] .

٣. ويقول تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} [النحل: ١٢٥].

٤. ويقول تعالى: { وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } [العنكبوت: ٤٦].

٥- ويقول تعالى:{لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}

[البقرة: ٢٥٦].

٦- ويقول تعالى: { وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ } [يونس : ٩٩].

٧- ويقول تعالى : { وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأنعام :١٠٨] .

٨. ويقول تعالى:{ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [الممتحنة:٨].

٩- ويقول تعالى: { إِنّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى}

[النحل:٩٠].

١٠- ويقول تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتّقْوَى}

[المائدة: ٨].

الأدلة من السنة :

١. عَنْ أَبِي ذَرٍّ (رضي الله عنه) قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): (إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ مِصْرَ وَهِيَ أَرْضٌ يُسَمَّى فِيهَا الْقِيرَاطُ ، فَإِذَا فَتَحْتُمُوهَا فَأَحْسِنُوا إِلَى أَهْلِهَا فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا) (صحيح مسلم).

٢- وعَنْ أَنَسِ بنِ مالكٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: كَانَ غُلامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) فَمَرِضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم) يَعُودُهُ، فقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ :(أَسْلِمْ). فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ: أَطِعْ أَبَا الْقَاسِمِ (صلى الله عليه وسلم) فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم) وَهُوَ يَقُولُ : (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنْ النَّارِ)

(رواه البخاري).

٣. وعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) قَالَتْ: قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قُلْتُ: وَهِيَ رَاغِبَةٌ، أَفَأَصِلُ أُمِّي؟ قَالَ: (نَعَمْ صِلِي أُمَّكِ) (متفق عليه) .

٤. وعن صَفْوَانَ بْنَ سُلَيْمٍ عَنْ عِدَّةٍ، مِنْ أَبْنَاءِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، عَنْ آبَائِهِمْ دِنْيَةً (بكسر الدال وسكون النون وفتح الياء معناه لاصقو النسب متصلو النسب) عَنْ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا، أَوِ انْتَقَصَهُ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ، فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) (أخرجه أبو داود) .

ثالثاً: الموضــــــوع :

إن الإسلام دين الله للبشرية جميعاً ، فلم ينزل لتنظيم حياة المسلمين فحسب ، بل شرعه الله لتنظيم حياة الناس جميعاً ، فدعا إلى التواصل والتعايش بين أتباع الديانات ، وجعل العلاقة بين الناس جميعًا تقوم على أساس التعارف والتآلف والتعايش السلمي ، ذلك لأن أصلهم واحد ، قال تعالى:{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } [الحجرات : ١٣] ، فالناس على اختلاف ألوانهم ولغاتهم وعقائدهم إخوة في الإنسانية تنشأ بينهم علاقات اجتماعية واقتصادية وسياسية قوامها التعارف والتآلف ، نلمح هذا من خلال تعامل النبي (صلى الله عليه وسلم) مع مجتمع المدينة ، فقد أسس نظاماً عاماً أساسه التعايش السلمي بين الناس جميعا، والمسلمون اليوم في بلادهم، ومع من يعيشون معهم من مختلف الطوائف والملل، والنحل هم في أشد الحاجة إلى هذا المفهوم ، وهو : كيف يعيش الإنسان مع الآخر في سلام وأمان .

ومن الحقائق المؤكدة أن الاختلاف بين الناس سنة كونية من سنن الله عز وجل ، يجب أن نحترمها، لأن الناس لا يفكرون بطريقة واحدة ، قال تعالى: { وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ}[يونس : ١١٨] فهذا الاختلاف دليل على أن الله (تعالى) منح عباده حرية الاختيار ، ومن ثم يجب علينا التعامل في الحياة مع كل

الناس على اختلاف أفكارهم وتباين عقائدهم دون السعي إلى الإقصاء للمختلفين معنا .

لقد أمرَنَا الإسلامُ بالمعاملة الحسنة معَ سائِرِ النَّاسِ، وطلبَ منَّا أنْ ندعُوَ إلَى هذَا الدِّينِ علَى أساسِ الحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ، قالَ تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}

[الحجرات : ١٣].

إن التعايش السلمي بين الناس جميعاً حقيقة تاريخية ، وضرورة مجتمعية ، وأمر حتمي يفرضه الواقع الذي يعيشه الإنسان ، ولن يتحقق ذلك إلا إذا شعر الجميع بأنهم أبناء وطن واحد، وعملوا على رفعته، وتطويره، وتنميته تنمية شاملة للجوانب الروحية والمادية.

من أجل هذا رغب الإسلام أتباعه في العيش بسلام مع الآخرين ، فحين هاجر النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى المدينة وجد مزيجاً إنسانياً متنوعاً من حيث الدين والانتماء ، وجد بها يهودا توطنوا، ومشركين مستقرين، فلم يتجه فكره إلى رسم سياسة للإبعاد أو المصادرة والخصام، بل قبل ـ عن طيب خاطر ـ وجود اليهود والوثنية، وعرض على الفريقين أن يعاهدهم معاهدة الند للند، على أن لهم دينهم وله دينه، فكان أول ما فعله بعد بناء المسجد والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وضع صحيفة المعاهدة مع اليهود الذين كانوا يسكنون المدينة ، وهذه الصحيفة تدل بوضوح وجلاء على عبقرية الرسول (صلى الله عليه وسلم)

في صياغة موادها وتحديد علاقات الأطراف بعضها ببعض ، فقد كانت موادها مترابطة وشاملة، وتصلح لعلاج الأوضاع في المدينة آنذاك، وفيها من القواعد والمبادئ ما يحقق العدالة المطلقة، والمساواة التامة بين البشر، وأن يتمتع بنو الإنسان على اختلاف ألوانهم ولغاتهم وأديانهم بالحقوق والحريات بأنواعها.

ولقد أمر الإسلامُ أتباعَه بالمحافظة على كرامة غير المسلمين ومراعاة مشاعرهم حتى في موطن الحوار أو الجدل ، وحثَّهم على أن تكون المجادلة بالتي هي أحسن ، فقال تعالى:{ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ }

[العنكبوت: ٤٦] .

ويتجلَّى حِفْظ الكرامة الإنسانية في التعامل النبوي مع غير المسلمين ، فقد كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يعامل كل الناس مسلمين وغير مسلمين باحترام لحقوقهم وحرياتهم، فقد أرسى (صلى الله عليه وسلم) مبادئ التعايش والاحترام المتبادل وحقوق الإنسان بين كل طوائف المجتمع منذ نشأة الدولة الإسلامية في المدينة المنورة بعقد الوثيقة التي أبرمها مع يهود المدينة وغيرهم ، حيث أعطى اليهود كل حقوق المسلمين في الأمن والسلام والحرية والدفاع المشترك ومن بين بنودها المهمة : (وَأَنَّ الْيَهُودَ يُنْفِقُونَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ مَا دَامُوا مُحَارِبِينَ ، وَأَنَّ يَهُودَ بَنِي عَوْفٍ أُمَّةٌ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ، لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ

وَلِلْمُسْلِمِينَ دِينُهُمْ ، مَوَالِيهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ ، إِلَّا مَنْ ظَلَمَ أَوْ أَثِمَ فَإِنَّهُ لَا يُوتِغُ (أَيْ يُهْلِكُ) إِلَّا نَفْسَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ)، وجاء فيها كفالة حرية الدين والأمن والدفاع المشترك ضد أي معتد على المسلمين أو على اليهود (كتاب الأموال لأبي عبيد) .

وهذا يعنى أن الدولة الإسلامية تتسع للجميع مسلمين وغير مسلمين ، فلهم ما لنا وعليهم ما علينا بشرط الالتزام بالضوابط المجتمعية التي تحفظ للجميع الحقوق والواجبات وفى مقدمتها السلم وعدم الاعتداء ، وعدم خرق بنود العقد الاجتماعي (الدستور) الذي ينظم العلاقة بين الناس جميعا.

إن التعايش بين الناس جميعًا – مسلمين وغير مسلمين – يقوم علَى أُسسٍ قويَّةٍ متينةٍ ثابتةٍ لاَ تتغيَّرُ ولاَ تتبدَّلُ، مِنْ هذهِ الأُسسِ :

* حرية الاعتقاد وعدمُ الإكراهِ علَى الدخول في الدين ، قالَ تعالى :{ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}[البقرة: ٢٥٦] ، وقدْ طبَّقَ النَّبيُّ (صلى الله عليه وسلم) وأصحابُهُ (رضوانُ اللهِ عليهمْ أجمعينَ) هذَا الأساسَ تطبيقاً عمليًّا، فلمْ يُكرهُوا أحداً علَى الدُّخولِ فِي هذَا الدِّينِ العظيمِ، ولَمْ يهدمُوا لأحدِ كنيسةً أوْ صومعةً أوْ أيَّ مكانٍ للعبادةِ، بَلْ كانَتْ أمكنةُ العبادةِ محترمةً مُصانَةً عندَ المسلمينَ.

ذلك لأن الإسلام كفل حرية الاعتقاد لبني البشر جميعًا ، ولم ولن يملك أحد تغيير هذا التنوع والاختلاف ، ويجب أن يُقرّ الناس جميعًا بذلك ، قال تعالى :{ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا

أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}[يونس: ٩٩] ، فاحترام المعتقدات والمبادئ الأساسية مسألة بالغة الأهمية ولها أثرها الطيب على العلاقات بين الأمم والمجتمعات ، فلكل أمة عقيدة ومبادئ تقدسها وتلتزم بها ، وتعتبرها أسمى من غيرها ويدخل في هذا أركان الإيمان عند المسلمين ، من إيمان بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره ، ولغير المسلمين ما يقدسونه ويحتفون به من آلهة يعبدونها ، أو مبادئ يعتزون بها ، لذا أوجب الإسلام الإيمان بجميع الأنبياء والرسل السابقين – عليهم السلام – قال تعالى : { آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ } [البقرة : ٢٨٥] ، وألزمنا بعدم السب أو التعرض لأصحاب الديانات الأخرى بما يسيئ لهم أو لمعتقدهم ، فقال تعالى: { وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأنعام : ١٠٨] .

* كذلك رسَّخَ الإسلامُ فِي نفوسِ أتباعه أساسَ البرِّ وحُسنِ الجوارِ مَعَ غيْرِ المسلمينَ، فجاءتِ النُّصوصُ تؤكد هذَا الأساسَ، وتُوضِّحُ صورَهُ التَّطبيقيَّةَ فِي المجتمعِ المسلمِ، فعَنْ أَبِى ذَرٍّ (رضي الله عنه) قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): (إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ مِصْرَ وَهِىَ أَرْضٌ يُسَمَّى فِيهَا الْقِيرَاطُ ، فَإِذَا فَتَحْتُمُوهَا فَأَحْسِنُوا إِلَى أَهْلِهَا فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا) (صحيح مسلم).

وقدْ حفِلَتِ السيرةُ النَّبويَّةُ بصُوَرِ حُسْنِ الجوارِ وتعايش الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) مع جيرانه من غيْرِ المسلمينَ، فعَنْ أَنَسِ بنِ مالكٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: كَانَ غُلامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) فَمَرِضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم) يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ :(أَسْلِمْ). فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ: أَطِعْ أَبَا الْقَاسِمِ (صلى الله عليه وسلم) فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم) وَهُوَ يَقُولُ :(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنْ النَّارِ) (رواه البخاري).

* ومن أهم الأسس التي يقوم عليها التعايش السلمي: حُسْنُ الصِّلةِ والإحسانِ إِلَى الآخرينَ ، والمتتبع لنصوص الشرع الحكيم يجد أنها تحث على التعايش مع الآخر طالما كان هناك احترام متبادل ومراعاة للحقوق والواجبات ، قال تعالى : { لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}[الممتحنة: ٨] . قال ابن كثير : أَيْ لَا يَنْهَاكُمْ عَنِ الْإِحْسَانِ إِلَى الْكَفَرَةِ الَّذِينَ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ فِي الدِّينِ، كَالنِّسَاءِ وَالضَّعَفَةِ مِنْهُمْ،{أَنْ تَبَرُّوهُمْ} أَيْ: تُحْسِنُوا إِلَيْهِمْ {وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ} أَيْ: تَعْدِلُوا {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}.

والمتأمل في حياة النبي (صلى الله عليه وسلم) وتعامله مع الناس جميعًا- مسلمين وغير مسلمين - يقف على المنهج العملي والخلقي للدين الإسلامي الذي جاءَ بالرَّحمةِ والإحسانِ للإنسانيَّةِ جمعاءَ، ولاَ يمكنُ أنْ تستقيمَ الحياةُ بدونِ تعايشٍ سلمِيٍّ وتعاونٍ بَنَّاءٍ بيْنَ أبناءِ

المجتمعِ الواحدِ وبيْنَ أفرادِ الإنسانيَّةِ جميعاً ، فالإسلامُ يدعُو إلَى حُسْنِ الصِّلةِ والإحسانِ إلَى الآخرينَ برغْمِ اختلافِ الدِّينِ، فعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ (رضيَ اللهُ عنْهما) قَالَتْ: قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ قُرَيْشٍ إِذْ عَاهَدَهُمْ فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ رَاغِبَةٌ، أَفَأَصِلُ أُمِّي؟ قَالَ:(نَعَمْ صِلِي أُمَّكِ) (متفق عليه).

كذلك من أهم الأسس التي يقوم عليها التعايش السلمي بين أفراد المجتمع: العدل والإنصاف ، وعدم ظلم الآخرين ، فالإسلامَ قَدْ حفظَ حقوقَ الآخرينَ وصانَهَا، ونصوصُ الكتابِ والسُّنَّةِ شاهِدَةٌ علَى هذَا، فقد جاءت آيات القرآن الكريم تأمر بالعدل وتحث عليه وتدعو إلى التمسك به ، يقول تعالى: { إِنّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى}[النحل:٩٠] ، ويقول تعالى:{وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ } [النساء: ٥٨] ، فالمسلم مطالب بأن يعدل مع جميع الناس سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتّقْوَى}[المائدة: ٨] أي: لا تحملكم عداوتكم وخصومتكم لقوم على ظلمهم، بل يجب العدل مع الجميع سواء أكانوا أصدقاء أم أعداء.

وقد ذكر القرآن الكريم براءة يهودي اتهمه مسلم بالسرقة فنزلت آيات القرآن الكريم تنفي عنه ما اتُّهِم به زورًا ، فقال تعالى : { إِنَّا أَنْزَلْنَا

إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا *وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا * وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا * يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا *هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا }

[النساء : ١٠٦، ١٠٩] .

وكذلك حثّ النبي (صلى الله عليه وسلم) على العدل وعدم الظلم وخاصة مع غير المسلمين في أحاديث كثيرة ، منها ما أخرجه أبو داود في سننه ، عن عدة من أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) عَنْ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا، أَوِ انْتَقَصَهُ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ، فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ).

ولقد سار الخلفاء الراشدون على هذا المنهج النبوي في العدل مع غير المسلمين ، فهذا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يقتص للقبطي في مظلمته من عمرو بن العاص والي مصر وابنه، وقال مقولته التي أضحت مثلاً : (يا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟) .

وهذا عليّ (رضي الله عنه) فقد دِرْعَهُ عِنْدَ رَجُلٍ نَصْرَانِيٍّ فَأَقْبَلَ بِهِ إِلَى شُرَيْحٍ يُخَاصِمُهُ، فَقَالَ شُرَيْحٌ لِلنَّصْرَانِيِّ: مَا تَقُولُ فِيمَا يَقُولُ أَمِيرُ

الْمُؤْمِنِينَ؟ فَقَالَ النَّصْرَانِيُّ: مَا الدِّرْعُ إِلَّا دِرْعِي وَمَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عِنْدِي بِكَاذِبٍ ، فَالْتَفَتَ شُرَيْحٌ إِلَى عَلِيٍّ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هَلْ مِنْ بَيِّنَةٍ؟ فَضَحِكَ عَلِيٌّ وَقَالَ أَصَابَ شُرَيْحٌ ، مَا لِي بَيِّنَةٌ، فَقَضَى بِهَا شريح للنصراني، قال فأخذه النصراني ومشى خطا ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ: أَمَّا أَنَا فَأَشْهَدُ أَنَّ هذه أحكام الأنبياء ، أمير المؤمنين يدنيني إلى قاضيه يَقْضِي عَلَيْهِ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، الدِّرْعُ وَاللَّهِ دِرْعُكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ اتَّبَعْتُ الْجَيْشَ وَأَنْتَ مُنْطَلِقٌ إِلَى صِفِّينَ فَخَرَجَتْ مِنْ بَعِيرِكَ الْأَوْرَقِ . فَقَالَ: أَمَا إِذْ أَسْلَمْتَ فَهِيَ لَكَ ، وَحَمَلَهُ عَلَى فَرَسٍ)

(البداية والنهاية لابن كثير).

هذا هو منهج الإسلام الذي يدعو إلى التعايش مع الآخر والحفاظ على حقوقه وحرماته، وتأمين المجتمع وقيمه مما يهدد أمنه وسِلْمَه ويحافظ على الأصل الذي على أساسه تُبنَى المجتمعات ، وهو التعارف والتآلف والتعايش السلمي .

إن التعايش السلمي مع الآخر والذي يدعو إليه الإسلام جدير بأن يحقق للجميع ثمرات عظيمة ، وفوائد عديدة - سياسية، واجتماعية، واقتصادية، وثقافية - ومن أبرزها: تحقيق السعادة والأمن والاستقرار والتقدم ، ويخلق جوًّا من التسامح والتحاب والتعاون الذي هو أحوج ما تكون البشرية إليه الآن .

* * *

فضل العلم وأخلاق طلابه

أولاً : العناصر :

١. فضل العلم ومكانة العلماء في الإسلام.

٢. الحث على طلب العلم والعمل به.

٣. بالعلم والأخلاق ترتقي الأمم.

٤. طلاب العلم يبنون ولا يهدمون.

ثانيًا ـ الأدلة :

الأدلة من القرآن :

١. قال تعالى: {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [المجادلة: ١١].

٢. وقال تعالى : {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ} [الزمر:٩].

٣. وقال تعالى : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ } [فاطر: ٢٧-٢٨].

٤. وقال تعالى : {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [آل عمران: ١٨].

٥. وقال تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا

أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ}   [البقرة: ٣١ – ٣٣] .

٦. وقال تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}

[العلق:١– ٥].

٧. وقال تعالى: {الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ }   [غافر:٣٥].

٨. وقال تعالى: :{ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ}   [العنكبوت:٤٩].

الأدلة من السنة والآثار:

١. عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ (رضي الله عنه) قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) يَقُولُ: (مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ، كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ)   (سنن أبي داود).

٢. وعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): (فَضْلُ الْعِلْمِ خَيْرٌ مِنْ فَضْلِ الْعِبَادَةِ، وَخَيْرُ دِينِكُمُ الْوَرَعُ)   (رواه الحاكم في المستدرك).

٣. وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ البَاهِلِيِّ (رضي الله عنه) قَالَ: ذُكِرَ لِرَسُولِ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) رَجُلاَنِ أَحَدُهُمَا عَابِدٌ وَالآخَرُ عَالِمٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ: (فَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ)، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم): (إِنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالأَرَضِينَ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الخَيْرَ)

(سنن الترمذي).

٤. وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) : (تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ وَتَعَلَّمُوا لِلْعِلْمِ السَّكِينَةَ وَالْحِلْمَ وَتَوَاضَعُوا لِمَنْ تُعَلِّمُونَ وَلْيَتَوَاضَعْ لَكُمْ مَنْ تُعَلِّمُونَهُ ، وَلَا تَكُونُوا مِنْ جَبَابِرَةِ الْعُلَمَاءِ فَلَا يَقُومُ عِلْمُكُمْ بِجَهْلِكُمْ)

(أدب الدنيا والدين).

٥. وعَنْ رَجَاءِ بْنِ حَيْوَةَ عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ (رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ) قَالَ: (تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ؛ فَإِنَّ تَعَلُّمَهُ لِلَّهِ تَعَالَى خَشْيَةٌ، وَطَلَبَهُ عِبَادَةٌ، وَمُذَاكَرَتَهُ تَسْبِيحٌ، وَالْبَحْثَ عَنْهُ جِهَادٌ، وَتَعْلِيمَهُ لِمَنْ لَا يَعْلَمُ صَدَقَةٌ، وَبَذْلَهُ لِأَهْلِهِ قُرْبَةٌ؛ لِأَنَّهُ مَعَالِمُ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَمَنَارُ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَالْأُنْسُ فِي الْوَحْشَةِ، وَالصَّاحِبُ فِي الْغُرْبَةِ، وَالْمُحَدِّثُ فِي الْخَلْوَةِ، وَالدَّلِيلُ عَلَى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَالسِّلَاحُ عَلَى الْأَعْدَاءِ، وَالدِّينُ عِنْدَ الْأَجِلَّاءِ، يَرْفَعُ اللهُ تَعَالَى بِهِ أَقْوَامًا، وَيَجْعَلُهُمْ فِي الْخَيْرِ قَادَةً وَأَئِمَّةً، تُقْتَبَسُ آثَارُهُمْ، وَيُقْتَدَى بِفِعَالِهِمْ، وَيُنْتَهَى إِلَى رَأْيِهِمْ، تَرْغَبُ الْمَلَائِكَةُ فِي خِلَّتِهِمْ، وَبِأَجْنِحَتِهَا تَمْسَحُهُمْ، يَسْتَغْفِرُ لَهُمْ كُلُّ رَطْبٍ وَيَابِسٍ، حَتَّى الْحِيتَانُ فِي الْبَحْرِ وَهَوَامُّهُ، وَسِبَاعُ الطَّيْرِ وَأَنْعَامُهُ، لِأَنَّ الْعِلْمَ حَيَاةُ الْقُلُوبِ مِنَ الْجَهْلِ، وَمِصْبَاحُ الْأَبْصَارِ مِنَ الظُّلْمِ، يَبْلُغُ بِالْعِلْمِ

مَنَازِلَ الْأَخْيَارِ، وَالدَّرَجَةَ الْعُلْيَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَالتَّفَكُّرُ فِيهِ يَعْدِلُ بِالصِّيَامِ، وَمُدَارَسَتُهُ بِالْقِيَامِ، بِهِ تُوصَلُ الْأَرْحَامُ، وَيُعْرَفُ الْحَلَالُ مِنَ الْحَرَامِ، إِمَامُ الْعُمَّالِ، وَالْعَمَلُ تَابِعُهُ، يُلْهَمُهُ السُّعَدَاءَ، وَيُحْرَمُهُ الْأَشْقِيَاءِ)

(حلية الأولياء وطبقات الأصفياء).

ثالثًا : الموضوع:

نستقبل في هذه الأيام عامًا دراسيًا جديدًا ، نسأل الله تعالى أن يكون عام فلاحٍ ونجاحٍ لكل طالب علم يخلص لله تبارك وتعالى في طلبه للعلم، وهذا يجعلنا نتحدث اليوم عن فضل العلم وأخلاق المتعلم ، فمما لا شك فيه أن للعلم مكانة عالية في الإسلام ، فهو حياة القلوب ونور الأبصار، به يبلغ الإنسان منازل الأبرار ، وبه يطاع الله ، وبه يعبد ، وبه يوحد، وبه يُمَجَّد وبه توصل الأرحام ، وبه ترفع الأمم أعلى الدرجات ، فالإسلام دين العلم، لا يُعرَفُ دينٌ مثلُه أشاد بالعلم وحثَّ عليه ، ورغب في طلبه ، ونوَّه بمكانة أهله ، وأعلى من قدرهم ، وبين فضل العلم وأثره في الدنيا والآخرة ، وحضَّ على التعلم والتعليم ، وحسبنا أن أول آيات نزلت من الوحي على قلب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أشارت إلى فضل العلم ، حيث أمرت بالقراءة وهي مفتاح العلم ، ونوّهت بالقلم وهو أداة نقل العلم ، وذلك في قوله تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} [العلق:١– ٥].

فهذه أول صيحة تنوِّه بقيمة العلم، وتعلن الحرب على الأُمِّيّة الغافلة، وتجعل اللبنة الأولى في بناء كل إنسان عظيم أن يقرأ وأن يتعلَّم ، فهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن مكانة العلم في الإسلام لا تدانيها مكانة ، وقد دل على ذلك أنه المنحة الإلهية التي رفع الله بها مقام آدم على ما دونه من الملائكة (عليهم السلام) ، قال تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ} [البقرة: ٣١ – ٣٣] .

ولقد عني الإسلام بالعلم عناية فائقة ، وحث أتباعه على طلبه ، والبحث والتفكير في كل ميدان من ميادين المعرفة، وكل مجال من مجالات الحياة ، والقرآن الكريم به الكثير من الآيات التي تشير إلى هذا ، قال تعالى :{بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ} [العنكبوت:٤٩].

إنّ العلم يثمر لصاحبه الخير والهداية، وفضله يزداد عند طالبه، وقد شرف الحق سبحانه وتعالى العالم وميزه عن غيره، وأخبر أنه لا يعقل آياته ويفهمها حق فهمها وينزلها المكانة اللائقة بها إلا العالمون، فقال سبحانه: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ} [الزمر: ٩] ، فالعلم في ذاته غاية ؛ يدل على ذلك ما جاء

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) قَالَ: (تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ؛ فَإِنَّ تَعَلُّمَهُ لِلَّهِ تَعَالَى خَشْيَةٌ، وَطَلَبَهُ عِبَادَةٌ، وَمُذَاكَرَتَهُ تَسْبِيحٌ، وَالْبَحْثَ عَنْهُ جِهَادٌ، وَتَعْلِيمَهُ لِمَنْ لَا يَعْلَمُ صَدَقَةٌ، وَبَذْلَهُ لِأَهْلِهِ قُرْبَةٌ؛ لِأَنَّهُ مَعَالِمُ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَمَنَارُ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَالْأُنْسُ فِي الْوَحْشَةِ، وَالصَّاحِبُ فِي الْغُرْبَةِ، وَالْمُحَدِّثُ فِي الْخَلْوَةِ، وَالدَّلِيلُ عَلَى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَالسِّلَاحُ عَلَى الْأَعْدَاءِ، وَالدِّينُ عِنْدَ الْأَجِلَّاءِ..

وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) : (تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ وَتَعَلَّمُوا لِلْعِلْمِ السَّكِينَةَ وَالْحِلْمَ وَتَوَاضَعُوا لِمَنْ تُعَلِّمُونَ وَلْيَتَوَاضَعْ لَكُمْ مَنْ تُعَلِّمُونَهُ ، وَلَا تَكُونُوا مِنْ جَبَابِرَةِ الْعُلَمَاءِ فَلَا يَقُومُ عِلْمُكُمْ بِجَهْلِكُمْ) (أدب الدنيا والدين).

فطبيعة الإسلام تفرض على الأمة المسلمة أن تكون أمة متعلمة ترتفع فيها نسبة المثقفين، وتهبط أو تنعدم نسبة الجاهلين ، فإن قيمة العلم في الإسلام كقيمة الحياة بالنسبة للإنسان.

وكذلك أعلى القرآن الكريم من شأن العلم، فعبَّر عنه بالسلطان ، فقال تعالى:{الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا } [غافر:٣٥]، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ}[غافر:٥٦]. ولله در سيدنا عليٍّ (رضي الله عنه) حين قال: (العلم

خيرٌ من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والعلم حاكم والمال محكوم ، والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو بالإنفاق).

فالعلم ضرورة مُلِحَّة، وحاجة ماسَّة ، عليها تتوقف سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة. ومن هنا كان طلب العلم فريضةً ، كما روى ابن ماجة عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): (طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ).

وأما عن فضل العلماء ومنزلتهم ؛ فقد مدح الله أهل العلم وأثنى عليهم وشرفهم ، ورفع منازلهم وقدَّر جهودَهم ، وسما بدرجاتهم حتى قرَنَهم الحق سبحانه بنفسه وملائكته في الشهادة بوحدانيته والإقرار بعدالته، قال تعالى:{شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[آل عمران:١٨]. وقال عز وجل: {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}[المجادلة:١١]، وما ذلك إلا لأن العلماء أكثر الناس معرفة بربهم، وأحرص الناس على تبليغ كلام خالقهم ، بل هم أكثر الناس خشية لله بما أدركوا من آثار قُدرته وعظمته، فقال: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ} [فاطر: ٢٨].

ومن ثم فإن للعلماء مكانة عظيمة حفظها لهم الشرع الحنيف لعظم قدرهم في الأمة، فهم ورثة الأنبياء وهم المفضلون بعد الأنبياء على سائر البشر ، فعَنْ أَبِي أُمَامَةَ البَاهِلِيِّ (رضي الله عنه) قَالَ: ذُكِرَ

لِرَسُولِ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) رَجُلاَنِ أَحَدُهُمَا عَابِدٌ وَالآخَرُ عَالِمٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم): (فَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ)، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم): (إِنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالأَرَضِينَ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الخَيْرَ) (سنن الترمذي). لذلك أمر سبحانه وتعالى بسؤال أهل العلم والرجوع إليهم فيما يشكل ، فقال: {فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [النحل: ٤٣].

وأما عن الحث على طلب العلم والعمل به ، فإن طلب العلم والسعي في تحصيله واجب على كل مسلم ومسلمة ، ولقد أوضح رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فضيلة طلبه في حديث يدفع كل من قرأه بتدبر إلى المسارعة في طلب العلم ، وإفناء العمر في سبيل تحصيله ، فقالَ : (مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ، كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ) (سنن أبي داود).

وقد جاء عن سلف الأمة الصالح (رضي الله عنهم وأرضاهم) عدة معان جديرة بالذكر والعناية؛ تبين حقيقة الطلب الشرعي للعلم والهمة التي ينبغي أن يكون عليها طالب العلم ، من ذلك: ما روي عن ابن مسعود (رضي الله عنه) قال: ليس العلم بكثرة الرواية؛ وإنما العلم الخشية، وكان الحسن البصري (رضي الله عنه) يقول: اعملوا ما شئتم أن تعملوا فو الله لا يؤجركم الله تعالى عليه حتى تعملوا؛ فإن السفهاء همتهم الرواية ؛ وإن العلماء همتهم الرعاية. وَقَالَ مالك: العلم نور يجعله الله حيث يشاء وليس بكثرة الرواية ؛ ولذلك قال الشافعي (رضي الله عنه): إذا ذكر العلماء فمالك النجم الثاقب ؛ وما أحد أمنّ عليّ من مالك

ولقد كان في الأمة الإسلامية نماذج من العلماء الذين أثْرُوا الحياة بعلمهم وأخلاقهم ، وإعمال فكرهم، منهم على سبيل المثال: عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) حبر الأمة وترجمان القرآن، عُرِفَ بشيخ المفسرين ، وعبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) من السبعة المكثرين لرواية الحديث ، ومعاذ بن جبل (رضي الله عنه) حامل لواء العلماء يوم القيامة ، وأتى من بعدهم أئمة أعلام ملؤوا الأرض علمًا منهم : ابن النفيس الدمشقي الذي نبغ في الطب وأول من اكتشف الدورة الدموية ، وأبو بكر الرازي ، وابن سينا، وغيرهم كثير ممن أفادوا البشرية بعلمهم وكانوا مثلًا يحتذى بهم ، فالواجب على شباب الأمة أن يحذوا حذوهم وأن ينهلوا من العلم حتى ينهضوا بالأمة، على أن من الخطورة بمكان أن يتصدى الإنسان للفتوى بدون علم، فيضل الناس، يقول النبي (صلى

الله عليه وسلم): (إِنَّ اللَّهَ لاَ يَنْتَزِعُ الْعِلْمَ مِنَ النَّاسِ انْتِزَاعًا وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعُلَمَاءَ فَيَرْفَعُ الْعِلْمَ مَعَهُمْ وَيُبْقِى فِى النَّاسِ رُءُوسًا جُهَّالاً يُفْتُونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَيَضِلُّونَ وَيُضِلُّونَ) (صحيح مسلم).

ومن هذا يتضح أن الإسلام يدعو إلى العلم ويُحرر العقل ، ويحثّ على النظر في الكون، ويُنشِئ العقلية العلمية التي تبدع وتبتكر، ويرفض العقلية الجاهلة المستسلمة لكل ما يتوارثه الناس، دون مناقشة له ، فالأمة الإسلامية لا يمكن لها أن تنهض إلا بالعلم ، ولا يمكن لها أن تتبوأ مكان الصدارة إلا بالعلم ، ولا يمكن لها أن تقضي على التخلف والأمراض والفقر إلا بالعلم ، ولا يمكن لها أن تقود غيرها إلا بالعلم ، فالعلم هو الأساس لوحدتها ، هو الأساس لفلاحها أفرادًا وجماعات ، فالعلم مأمور به قبل العمل ، لأنه أساس له قال الله تعالى : {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ}

[محمد: ١٩].

فالعلم يبني الأفراد وينهض بالمجتمعات؛ وبه تقوى الدول وتتقدم الأمم ؛ والواقع خير شاهد على أن الأمم والدول التي اعتمدت العلم سبيلاً لنهضتها ؛ صارت في مقدمة الأمم؛ وأن غيرها ممن تقاعست بقيت في ذيل الأمم. ومن ثم رأينا الحق حين ذكر العلوم جملة وتفصيلاً؛ قدم العلوم التجريبية على العلوم الدينية؛ لأن عمارة الأرض إنما تكون بتطبيق نظريات الكتاب على واقع الحياة والأحياء. قال عز وجل: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا

أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غفُورٌ * إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ * لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ}[فاطر: ٢٧ – ٣٠] ، فلنعد إلى العلم؛ فالعلم ينبغي أن يكون أولاً؛ وثانياً،،،،،،، وعاشراً؛ على أن يتبعه العمل؛ باعتباره الترجمة الحرفية لقوانين العلم ونظرياته؛ ليتم بذلك التفاعل بين النظرية والتطبيق.

ولابد لطالب العلم من آداب يجب أن يتحلى بها، نتعلمها مما فعله سيدنا موسى كليم الله (عليه السلام) – وهو نبي مرسل من أولي العزم من الرسل – مع عبدٍ من عباد الله يتعلم منه، كما حكى القرآن الكريم ذلك في قوله تعالى : {قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا * قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا * قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا }

[الكهف: ٦٦ – ٦٩].

كما أن على العالم أن يكون متزينًا بجميل الأخلاق، فالعلم إن لم يرافقه أخلاق وقيم لا وزن له ولا اعتبار، ولا أثر له في سلوك صاحبه ولا في تغيير الآخرين ، وصدق الشاعر حين قال :

لا تَحْسَبَنَّ العِلمَ يَنفعُ وَحدَهُ *** ما لَمْ يُتَوَّجْ ربُّهُ بِخَلاقِ

فلابد إذًا للعالم ولطالب العلم أن يتحليا بكريم الأخلاق وأن يكون عملهما متفقًا مع قولهما حتى يؤثر ذلك في المجتمع ، فعندما ربطت الأمة بين العلم والأخلاق ، عاشت في عزة ورفعة بين الأمم ، وحيث كان الخلق والعلم توأمين ، كان الرقي ، وكان الازدهار ، ولم يعرف في التاريخ مثل حضارة أمتنا العظيمة ، التي كان أساسها العلم والأخلاق الفاضلة المستقاة من الإسلام ، وصدق النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) حيث قال: (إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ)

(رواه الحاكم في المستدرك).

والعلم النافع هو العلم الذي يقود صاحبه إلى الفضائل ، ويحمله على التحلي بالأخلاق العالية ، ويوجهها ويرشّدها ويحافظ عليها ، فمن ثمرات العلم النافع أنه يساعد على البناء والتعمير، وليس الهدم والتخريب ، يساعد في الإصلاح لا الإفساد ، فعلى كل طالب علم أن يتخلق بأخلاق الإسلام ، وأن يتأدب بآداب العلماء ، وأن يسخر العلم الذي تعلمه لخدمة البشرية وبناء القيم في النفوس ، حتى لا تنتشر الفوضى ويعم الفساد، فهِمَّةُ طالب العلم الابتكار والإبداع والتفوق، لا الهدم والتخريب والإفساد، فالعلم يدفع صاحبه إلى البناء لا الهدم، وإلى استخدام العقل لا إلى إهماله ولا إلى تعطيله.

إننا بحاجة إلى تذكير أبنائنا وبناتنا في المدارس والمعاهد والجامعات بفضل العلم؛ وحثهم على طلبه خدمة لأنفسهم ومجتمعاتهم ورفعة لأهليهم وأوطانهم.

ويجدر بنا ونحن نتحدث عن فضل العلم وأخلاق المتعلم أن نتذكر هذه الأُسَرَ غير القادرة وما تتكبده في بداية الدراسة، وأن نقف إلى جوارهم فيمتد نهر العطاء إليهم والأخذ بأيدي أبنائهم إلى طريق التفوق والنجاح ، فهؤلاء لَبِناتٌ قوية في صرح التنمية والتقدم ، وأفضل أبواب النفقة تعليم الناس الخير.



علـو الهــمة في خدمة الدين والوطن

أولاً: العناصر:

١. علو الهمة من معالي الأمور.
٢. فوائد علوّ الهمة.
٣. أثر عُلُوّ الهمَّة في إصلاح المجتمع.
٤. دعوة الإسلام إلى استثمار الهمم في البناء والتعمير.
٥. نماذج لبعض أصحاب الهمم العالية .

ثانيًا: الأدلة:

الأدلة من القرآن الكريم:

١. يقول الله تعالى: {وَسارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} [آل عمران: ١٣٣].

٢. ويقول تعالى: {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [التوبة:١٠٥].

٣. ويقول تعالى:{فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} [المائدة: ٤٨].

٤. ويقول تعالى:{سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [الحديد: ٢١].

٥. ويقول تعالى :{إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَيَدْعُونَنا رَغَباً وَرَهَباً وَكانُوا لَنا خاشِعِينَ} [الأنبياء:٩٠].

٦. ويقول تعالى: {وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} [النساء: ١٢٨].

٧. ويقول تعالى:{وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا * كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا * انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا} [الإسراء: ١٩-٢١].

الأدلة من السنة والآثار:

١- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (الْمُؤْمِنُ الْقَوِىُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِى كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلاَ تَعْجِزْ....) (صحيح مسلم).

٢- وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (... إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ ، فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ وَأَعْلَى الجَنَّةِ – أُرَاهُ – فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ) (صحيح البخاري).

٣- وعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ : قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (إِنَّ اللَّهَ كَرِيمٌ يُحِبُّ الْكَرَمَ وَمَعَالِيَ الأَخْلاَقِ وَيَبْغَضُ سَفْسَافَهَا) (السنن الكبرى للبيهقي).

٤- وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) يَقُولُ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَنْ خَافَ أَدْلَجَ وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ، أَلاَ إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ أَلاَ إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةُ) (سنن الترمذي).

٥- وعن رَبِيعَة بْن كَعْبٍ الأَسْلَمِي (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ : كُنْتُ أَبِيتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ ، فَقَالَ لِي : (سَلْ). فَقُلْتُ : أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ. قَالَ : (أَوَ غَيْرَ ذَلِكَ). قُلْتُ : هُوَ ذَاكَ. قَالَ : (فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ)

(رواه مسلم).

٦- وعَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ (رضي الله عنه) عَنْ أَبِيهِ ، قَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ (رضي الله عنه) يَقُولُ: " أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أَنْ نَتَصَدَّقَ فَوَافَقَ ذَلِكَ عِنْدِي مَالًا ، فَقُلْتُ: اليَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا ، قَالَ: فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟) قُلْتُ: مِثْلَهُ، وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ ، فَقَالَ: (يَا أَبَا بَكْرٍ مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟) قَالَ: أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، قُلْتُ: لَا أَسْبِقُهُ إِلَى شَيْءٍ أَبَدًا" (رواه الترمذي).

٧- وعن عبد الله بن مسعود (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أنه قال: (لَوْ أَعْلَمُ رَجُلا أَعْلَمُ بِكِتَابِ اللَّهُ مِنِّي تَبْلُغُهُ الإِبِلُ لأَتَيْتُهُ) (المعجم الكبير للطبراني).

ثالثًا: الموضوع:

إن من محاسن الأخلاق وطيب الصفات التي حثّ عليها ديننا الإسلامي الحنيف " علوّ الهمة وقوة العزيمة "، فهي سلم الرقي إلى

الكمال في كل أبواب الخير ، من تحلى بها فاز برفع الدرجات في الدنيا والآخرة ، لذا دعانا إليها ديننا الحنيف ، قال تعالى :{وَسارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ}[آل عمران: ١٣٣] ، وعن رَبِيعَة بْن كَعْبٍ الأَسْلَمِي قَالَ : كُنْتُ أَبِيتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ ، فَقَالَ لِي : (سَلْ). فَقُلْتُ : أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ. قَالَ : (أَوَ غَيْرَ ذَلِكَ). قُلْتُ : هُوَ ذَاكَ. قَالَ : (فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ) (رواه مسلم) ، فما وصل السابقون إلى ما وصلوا إليه إلا بعلوِّ هممهم وقوة عزائمهم ، لذلك فإن الأمة اليوم في أمس الحاجة إلى المخلصين من أبنائها الذين يواصلون الليل بالنهار والسير بالسُرى ، يقومون على البذل والعطاء في سبيل ارتفاع شأن أمتهم وتقدم أوطانهم ، ويغيرون مجرى الحياة بعلو همتهم وقوة عزيمتهم.

ولله درُّ القائل:

على قدْرِ أهلِ العزمِ تأتي العزائمُ ... وتأتي على قدْرِ الكرامِ المكارمُ

فتعظُمُ في عين الصَّغيرِ صغارُها ... وتصغر في عين العظيمِ العظائمُ

إن عظيم الهمّة لا يرضى بالمرتبة السفلى أو المرتبة المتوسطة من معالي الأمور ، ولا تهدأ نفسه إلا بالمنزلة العالية ، بل تتحدى همته ما يراه مستحيلاً ، وينجز ما ينوء به أولو القوة ، ويقتحم الصعاب والأهوال ، يجود بالنفس والنفيس في سبيل تحصيل غايته ، وتحقيق بغيته ، لأنه يعلم

أن المكــارم منوطــة بالمكــاره ، وأن المصــالح والخــيرات ، واللــذات والكمالات لا يُتوصل إليها إلا بالجهد والمشقة ، يقول أبو تمام:

بصُرْتَ بالرَّاحةِ الكُبرى فلمْ ترها ** تُنالُ إلاَّ على جسرٍ منَ التَّعبِ

ولولا الهمم العالية ما تقدمت الأمم ، ولا اخترعت المخترعات ، ولا ابتكرت الآلات ، ولا تقدمت البشرية ، فكيف كان يمكن أن يصل إلينا الإسلام لولا رجال جاهدوا وارتفعت همتهم وعلت عزيمتهم فاجتازوا العقبات وتخطوا الصعاب وتكبدوا المشاقَّ حتى نشروا الخير في كل مكان؟! كيف كان يمكن أن يصل إلينا العلم والدين لولا أئمة علت همتهم فواصلوا الليل بالنهار يجمعون أطراف العلوم؟!

ولقد جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ما يحثُّ المؤمنين على رفع الهمة وارتياد معالي الأمور ، والتسابق في الخيرات ، والتحذير من سقوط الهمة والرضا بالدون.

فها هو القرآن الكريم يثني على أصحاب الهمم العالية وعلى رأسهم الأنبياء (عليهم السلام) وفي مقدمتهم نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) حيث تجلت هممهم العالية في مثابرتهم ودعوتهم إلى الله عز وجل ، قال تعالى :{فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ}
[الأحقاف: ٣٥].

وكذلك دعانا القرآن الكريم – أيضًا – إلى الهمة العالية والسعي نحو الأفضل ، والتسابق في الخيرات ، يقول تعالى: {.. فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ

تَخْتَلِفُونَ}[المائدة: ٤٨]. وقال تعالى :{سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}[الحديد:٢١]. ويقول تعالى :{ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خاشِعِينَ} [الأنبياء:٩٠].

إن الله (عز وجل) يحب أصحاب العزائم القوية والهمم العالية ويعينهم ويوفقهم ، ويُبغض أصحاب الهمم الضعيفة الذين يكتفون من كل شيء بأقله ، فعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّ اللَّهَ كَرِيمٌ يُحِبُّ الْكَرَمَ وَمَعَالِيَ الأَخْلاَقِ وَيَبْغَضُ سَفْسَافَهَا). وقد أُثِر عَنْ الفاروق عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أَنَّهُ قَالَ : « لَا تُصَغِّرَنَّ هِمَّتَكُمْ فَإِنِّي لَمْ أَرَ أَقْعَدَ عَنْ الْمَكْرُمَاتِ مِنْ صِغَرِ الْهِمَم » (أدب الدنيا والدين للماوردي).

إنّ عظيم الهمّة لا يرضى بالمرتبة السّفلى أو المرتبة المتوسّطة من معالي الأمور ، ولا يهدأ إلّا حين يضع نفسه في أسمى منزلة وأقصى غاية ، ويعبّر عن هذا المعنى النّابغة الجعديّ بقوله:

بلغنا السّماء مَجْدُنَا وجُدُودُنَا ** وإنّا لنبغي فوق ذلك مظهرا

ويقول أبو فراس الحمداني :

وَنَحْنُ أُنَاسٌ لا تَوَسُّطَ عِنْدَنَا ** لَنَا الصّدرُ دُونَ العالَمينَ أو القَبرُ

فعلو الهمة دليل على كمال الرّجولة وكمال المروءة ، وهو خلق يوصل إلى محبّة اللّه ومحبّة النّاس ، ويحقّق الرّفاهية والسّعادة للأفراد والشّعوب . ويثمر السعادة في الدّنيا والآخرة.

وفي السنة النبوية تربية للمؤمنين على السعي نحو الكمال وبلوغ القمم ومحاولة الوصول إلى الأفضل والأحسن ، ففي الصلاة : يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله ، فعَنْ أَبِى مَسْعُودٍ الأَنْصَارِىِّ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) : (يَؤُمُّ الْقَوْمَ أَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ ، فَإِنْ كَانُوا في الْقِرَاءَةِ سَوَاءً فَأَعْلَمُهُمْ بِالسُّنَّةِ ، فَإِنْ كَانُوا في السُّنَّةِ سَوَاءً فَأَقْدَمُهُمْ هِجْرَةً ، فَإِنْ كَانُوا في الْهِجْرَةِ سَوَاءً فَأَقْدَمُهُمْ سِلْمًا ، وَلاَ يَؤُمَّنَّ الرَّجُلُ الرَّجُلَ فِى سُلْطَانِهِ وَلاَ يَقْعُدْ فِى بَيْتِهِ عَلَى تَكْرِمَتِهِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ)

(رواه مسلم).

وفي قراءة القرآن الكريم : الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة ، فعَنْ عَائِشَةَ (رضي الله عنها) قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): (الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ وَالَّذِى يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ) (رواه مسلم).

وفي قصة مشروعية الأذان : حينما رأى عبد الله بن زيد (رضي الله عنه) الرؤيا ، قال له الرسول (صلى الله عليه وسلم): (أَلْقِهِ عَلَى بِلاَلٍ ، فَإِنَّهُ أَنْدَى مِنْكَ صَوْتًا ، فَلَمَّا أَذَّنَ بِلَالٌ نَدِمَ عَبْدُ اللهِ فَأَمَرَهُ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَأَقَامَ) (السنن الكبرى للبيهقي).

فالحرص على بلوغ الكمال في العمل قربة وطاعة لله (عز وجل) ، وإن لم ينتفع الإنسان بذلك في الدنيا لأنه فعل شيئًا يحبه الله تعالى، فعَنْ

عَاصِمِ بْنِ كُلَيْبٍ الْجَرْمِيِّ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي كُلَيْبٍ أَنَّهُ شَهِدَ مَعَ أَبِيهِ جَنَازَةً شَهِدَهَا رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وَأَنَا غُلَامٌ أَعْقِلُ وَأَفْهَمُ، فَانْتَهَى بِالْجَنَازَةِ إِلَى الْقَبْرِ وَلَمَّا يُمْكِن لَهَا ، قَالَ فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَقُولُ: (سَوُّوا لَحْدَ هَذَا) حَتَّى ظَنَّ النَّاسُ أَنَّهُ سُنَّةٌ ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِمْ ، فَقَالَ: (أَمَا إِنَّ هَذَا لَا يَنْفَعُ الْمَيِّتَ وَلَا يَضُرُّهُ ، وَلَكِنَّ اللهَ يُحِبُّ مِنَ الْعَامِلِ إِذَا عَمِلَ أَنْ يُحْسِنَ) (شعب الإيمان) ، فها هو رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يأمر بالإتقان في أمر لا ينفع ولا يضر ، لكنه يريد أن يُربيَ المسلمين على الإجادة والإتقان، يريد تربية الشخصية المسلمة على تَلَمُّسِ طريق الكمال ، وابتغاء الأجر على ذلك من الله تعالى ، يقول تعالى:{وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} .

[التوبة:١٠٥].

وعلوّ الهمة خُلق يُورِدُ صاحبه موارد التّعب والعناء ، ولكن التّعب في سبيل الوصول إلى النّهاية من معالي الأمور يشبه الدّواء المرّ فيسيغه المريض كما يسيغ الشّراب عذبًا باردًا ، وعظيم الهمّة قد يشتدّ حرصه على الشّرف حتّى لا يكاد يشعر بما يلاقيه في سبيله من أنكاد وأكدار.

وهناك مجالات متنوعة ومتعددة تحتاج إلى علو همة العبد ، منها:

أولاً : العلم ، فالعلم أرفع مقام تطمح إليه الهمم ، وأشرف غاية تتسابق إليها الأمم ، تجعل الطّالب يقاسي شدائد ، ويتحمل متاعب ، ولا يستهين بالشّدائد إلّا كبير الهمّة ماضي العزيمة ، العلم من أسباب علو

الهمة ، يرفع صاحبه عن الدنايا ، ويلزمه معالي الأمور ، ولقد ضرب الصحابة الكرام (رضوان اللّه عليهم) المثل الأعلى في علوّ الهمّة وخاصة في طلب العلم ، وكان على رأسهم عمر بن الخطّاب ، وعبد اللّه بن عبّاس (رضي الله عنهم) ، فعمر بن الخطّاب (رضي اللّه عنه) كان يتناوب مع جار له من الأنصار النّزول إلى رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) يقول: (... فَإِذَا نَزَلْتُ جِئْتُهُ بِخَبَرِ ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنْ الْوَحْيِ وَغَيْرِهِ ، وَإِذَا نَزَلَ فَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ...) (صحيح البخاري).

وها هو ابن عبّاس (رضي اللّه عنهما) يحدّث عن علوّ همّته في طلب العلم فيقول: (كَانَ يَبْلُغُنِي الْحَدِيثُ عَنِ الرَّجُلِ فَآتِي بَابَهُ وَهُوَ قَائِلٌ فَأَتَوَسَّدُ رِدَائِي عَلَى بَابِهِ يَسْفِي الرِّيحُ عَلَيَّ مِنَ التُّرَابِ فَيَخْرُجُ فَيَرَانِي) فَيَقُولُ: (يَا ابْنَ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) مَا جَاءَ بِكَ؟ هَلَّا أَرْسَلْتَ إِلَيَّ فَآتِيَكَ؟، فَأَقُولُ: لَا، أَنَا أَحَقُّ أَنْ آتِيَكَ)

(المستدرك للحاكم).

لقد كان الواحد منهم يسافر الأسفار البعيدة من أجل تلقي مسألة من مسائل العلم ، يتحمّل في سبيل ذلك الفقر والفاقة دون أن يضعف همته ، فها هو عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) مع فضله وسابقته وما تعلمه من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يتمنى لو علم من الناس من هو أعلم منه ليرحل إليه ، يقول: (لَوْ أَعْلَمُ رَجُلا أَعْلَمُ بِكِتَابِ اللَّهُ مِنِّي تَبْلُغُهُ الإِبِلُ لأَتَيْتُهُ) (المعجم الكبير للطبراني) ، فكادت هممهم تبلغ السماء رفعةً ، لذا قادوا الدنيا وتصدروا الأمم.

إن مثل هؤلاء من أصحاب الهمم العالية هم الذين يُعَوَّلُ عليهم في حل المعضلات التي تعترض طريق الأوطان ، فهذا هو زيد بن ثابت

(رضي الله عنه) الذي طلب منه النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم) أن يتَعَلَّمَ لغة اليهود حتى يأمن شرهم ، فتعلمها في خمس عشرة ليلة ، فعَنْ خَارِجَةَ - يَعْنِي ابْنَ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ - قَالَ: قَالَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ (رضي الله عنه) أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) فَتَعَلَّمْتُ لَهُ كِتَابَ يَهُودَ وَقَالَ : (إِنِّي وَاللَّهِ مَا آمَنُ يَهُودَ عَلَى كِتَابِي). فَتَعَلَّمْتُهُ فَلَمْ يَمُرَّ بِي إِلاَّ نِصْفُ شَهْرٍ حَتَّى حَذَقْتُهُ فَكُنْتُ أَكْتُبُ لَهُ إِذَا كَتَبَ وَأَقْرَأُ لَهُ إِذَا كُتِبَ إِلَيْهِ

[سنن أبي داود].

ثانيًا : العبادة ، إذ إنها حق الله تعالى على العباد ، وحقوق الله عز وجل أولى بالقضاء ، وعلو الهمة في العبادة مجال رحب لقوة العزيمة والتسابق في الخيرات ، فالمؤمن عندما يقوى إيمانه يقبل على طاعة الله تعالى برغبة جامحة ، فيكثر من النوافل والقربات ، وقد تمرُّ به فترات فتضعف همته وتخور عزيمته ، فيقصِّر في أداء الواجبات.

وقد كان الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) يتعوذ بالله من العجز والكسل ، ويعلمنا علوّ الهمة ويرشدنا إلى أن نبتغي الدرجات العلا ولا نرضى بالقليل من أعمال العبادة والأجر الأخروي ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (.. إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ وَأَعْلَى الجَنَّةِ - أُرَاهُ - فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ) (رواه البخاري). فإذا أراد الإنسان الآخرة فليجتهد لها ، يقول تعالى: {وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا * كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ

عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا * انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا } [الإسراء: ١٩– ٢١].

ولن نجد أفضل من رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ليكون قدوتنا وأسوتنا في علوّ همته في كل المجالات عامة ، ومجال العبادة خاصة ، فعلى الرغم من أن الله (عز وجل) غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، إلا أنه كان يقوم من الليل حتى تورمت قدماه ، وبلغ من همته (صلى الله عليه وسلم) في الجهاد ليعلي كلمة الدين ما يجعله يتمنى أن يقتل في سبيل الله ، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَقُولُ : (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلاَ أَنَّ رِجَالًا مِنَ المُؤْمِنِينَ لاَ تَطِيبُ أَنْفُسُهُمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي، وَلاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُهُمْ عَلَيْهِ مَا تَخَلَّفْتُ عَنْ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ) (صحيح البخاري).

ولقد فقه الصّحابة (رضي الله عنهم) عن اللّه أمره ، وتدبّروا في حقيقة الدّنيا فاستوحشوا من فتنتها وتجافت جنوبهم عن مضاجعها ، وارتفعت همّتهم عن سفاسفها ، فلا تراهم إلّا صوّامين قوّامين، وقد حفلت تراجمهم بأخبار زاخرة تشيد بعلوّ همّتهم في التّوبة والاستقامة ، وقوّة عزيمتهم في العبادة والإخبات.

ثالثًا : العلم والسعي نحو تقدم الأمة ورفعة الوطن ، إنه مجال عظيم لا ينبغي للمسلم التقصيرَ فيه ، فمن علامات التقدم والتحضر أن يصبح التنافس سمة بين الأفراد والفئات المجتمعية المتنوعة التي تهدف إلى خدمة الوطن ورقيه والاجتهاد في البذل والتضحية من أجل حمايته ورفعة الأمة ، أما عندما تتهاوى الهمم في ذلك وتضعف العزائم تحلّ بالأمة الضعف حتى تصير غنيمة لغيرها من الأمم ، وقد ضرب الصحابة (رضوان الله تعالى عليهم) مثلا أعلى في علو الهمة التي تسهم في خدمة المجتمع ، فعَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ (رضي الله عنه) عَنْ أَبِيهِ ، قَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ (رضي الله عنه) يَقُولُ: أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أَنْ نَتَصَدَّقَ فَوَافَقَ ذَلِكَ عِنْدِي مَالًا ، فَقُلْتُ: اليَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا ، قَالَ: فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟) قُلْتُ: مِثْلَهُ، وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ ، فَقَالَ: (يَا أَبَا بَكْرٍ مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟) قَالَ: أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، قُلْتُ : لَا أَسْبِقُهُ إِلَى شَيْءٍ أَبَدًا. (رواه الترمذي).

إن التنافس الشريف يكشف عن معادن الناس وعلو نفوسهم ، وقوة عزائمهم ، كما يبين مواطن قصورهم ، فلا يستوي في الناس مبادرٌ إلى الخير ومتباطئ ، ومسابق في الخير ومتثاقل؟! يقول تعالى:{وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}[الحديد:١٠].

إن علو الهمة من الصفات التي ينبغي أن يتصف بها المؤمن الذي يريد الله والدار الآخرة، فالمؤمن الصادق الحريص على الخير ، لا تراه إلا صاحب همة عالية ، ومن علو همته لا يعرف العجز ولا يألف الكسل ؛ فإن ضعف الهمة يترتب عليه آثار سلبية ، فهو كارثة للأمة ، وهو سبب ضياع قوتها ، *وتفريق* كلمتها ، وتمزيق وحدتها ، وتداعي الأمم عليها ونهب خيراتها ، وهو الأمر الذي حذر منه النبي (صلى الله عليه وسلم)، فعَنْ ثَوْبَانَ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): (يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا)، فَقَالَ قَائِلٌ : وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ ، قَالَ : (بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ ، وَلَيَنْزِعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهَنَ) ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْوَهَنُ ؟ قَالَ : (حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ) (رواه أبو داوود).

وفي الختام هذه رسالة نوجهها إلى كل مسلم: أن يغرس في نفوس أبنائه منذ نعومة أظفارهم هذا الخلق الرّفيع ، وهذه القيمة العظمى (علوّ الهمّة) كي تؤتي ثمارها في المستقبل رجالا أشدّاء ، وجيلاً معافى في بدنه وعقله ، ينهض بالأمّة ويقيلها من العثرات ، وحرّاسا للعقيدة والوطن ، مؤكدين على المشاركة الإيجابية في جميع مناحي الحياة ، ومنها المشاركة الإيجابية في جميع الاستحقاقات الوطنية.

إن ضعف الهمم كارثة الكوارث على المجتمع ، بل وعلى الأمة بأسرها ، فأيقظ همتك وقَوِّ عزيمتك قبل أن ترحل عن الحياة وما بلغت

فيها شأنًا ، وضع لنفسك هدفًا أن تكون كَفُلَانٍ من العظماء ، أو كَفُلَانٍ من العلماء ، أو كَفُلَانٍ من العُبَّاد الصالحين ، فبعلو الهمم تبنى الأمم ، وبضعف الهمم تسقط الأمم.

* * *

يقظة الضمير الإنساني والوطني

أولا: العناصر:-

١- الإسلام وإيقاظ الضمير الإنساني.

٢- محاسبة النفس إحياء للضمائر .

٣- نماذج مشرقة في يقظة الضمير الإنساني والوطني.

٤- الطريق إلى نهضة مصر بالضمائر الحية.

ثانياً: الأدلـــة.

الأدلة من القرآن الكريم.

١- قـال تعـالى:{وإِنَّ عَلَـيْكُمْ لَحَـافِظِينَ * كِرَامـاً كَـاتِبِينَ * يَعْلَمُـونَ مَـا تَفْعَلُونَ } [الانفطار:١٠-١٢].

٢-وقال تعالى: { وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَـوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً} [الإسراء:١٣-١٤].

٣-وقال تعالى: { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [المجادلة:٧].

٤- وقال تعالى:{يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ } [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

٥- وقال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [الحشر: ١٨] .

٦- وقال تعالى: {وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} [يوسف: ٢٣].

٧- وقال تعالى: { تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون} [السجدة: ١٦].

الأدلة من السنة:

١- عن أَبَي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ: قال رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): { إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ وَلَا إِلَى صُوَرِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَشَارَ بِأَصَابِعِهِ إِلَى صَدْرِهِ} (صحيح مسلم).

٢- وعن النعمان بن بشير (رضي الله عنهما) أن النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قال : (..أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ) (رواه البخاري) .

٣- وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أَنَّ رَسُولَ اللَّه (صلى الله عليه وسلم) كَانَ يَوْمًا بَارِزًا لِلنَّاسِ، إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ يَمْشِي فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا الإِيمَانُ؟ قَالَ: الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلاَئِكَتِهِ، وَرُسُلِهِ، وَلِقَائِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ الآخِرِ. قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا الإِسْلاَمُ؟ قَالَ: الإِسْلاَمُ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ، وَلاَ تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ

الْمَفْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ. قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا الإِحْسَانُ؟ قَالَ: الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ؛ فَإِنَّهُ يَرَاكَ.

(رواه البخاري) .

4- وعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ (رَضِيَ اللهُ عَنْهَا) أَنَّ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ : (إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا بِقَوْلِهِ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ فَلاَ يَأْخُذْهَا) (رواه البخاري) .

ثالثاً: الموضوع:

لقد اهتم الإسلام اهتمامًا بالغًا بالضمير الإنساني وأعلى مكانته في نفوس المسلمين؛ لأنه هو المحرك الأساسي لجميع توجهاته وشتى واجباته ، فهو يؤدي إلى سلامة القلب من العلل ، وثبات وجهته على الخير ، وبالتالي يوصِّل إلى توفيق الله ورضوانه، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ: قال رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): {إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ وَلَا إِلَى صُوَرِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَشَارَ بِأَصَابِعِهِ إِلَى صَدْرِهِ} (صحيح مسلم).

إن الضمير الإنساني محله القلب الذي بصلاحه يصلح الجسد والروح والعمل ، وبفساده يفسد كل شيء ، وهذا ما وضحه النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) حيث قال : (....أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ) (رواه البخاري) .

فالقلب الذي دل عليه الحديث ليس القلب الذي في صدر الإنسان والذي مهمته ضخ الدم إلى جميع أنحاء الجسم ، بل هو الضمير اليقظ ، والرقيب الداخلي الذي يوجه الإنسان دينيًا وتربويًا وأخلاقيًا وسلوكيًا ، فإذا أقدم الإنسان على عملٍ مخالفٍ يَشعُر بالندم والألم والرفض الداخلي ، وإذا كان هذا العمل موافقا يَشعُر بالراحة والسعادة والطمأنينة . وصدق الشاعر حيث قال:

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل … خلوتُ ولكن قل عليَّ رقيبُ
ولا تحسبنَّ الله يغفلُ ساعةً … ولا أنَّ ما يخفى عليه يغيبُ
ألم تر أن اليوم أسرعُ ذاهبٍ … وأنَّ غدًا للناظرين قريبُ

ولا يكون القلب سليمًا والضمير يقظًا إلا إذا تربى المسلم على الإيمان الصادق ، الذي يشعر به الإنسان أن الله معه ، يسمعه ويراه ، ويعلم ما يفعله ، ويحاسبه يوم القيامة على ما قدم ، فالإنسان عندما يعتقد أن الله معه يجتهد في مراقبته تعالى ، ويستحضر عظمته سبحانه في كل أقواله وأعماله ، وهذا ما أشار إليه النبي (صلى الله عليه وسلم) في حديث جبريل (عليه السلام) عندما سُئِلَ عن الإحسان الذي هو أعلى درجات الدين واليقين ، قَالَ: (الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ) (رواه البخاري) .

من هنا عني الإسلام عناية فائقة بتربية المسلم على يقظة الضمير والخوف من الله ومراقبته وطلب رضاه ، حتى إذا غابت رقابة البشر وهمَّت نفسه بالحرام والإفساد في الأرض تحرك ضميره الحي اليقظ ؛

فيصده عن كل ذلك ويذكره بأن هناك من لا يغفل ولا ينام ، و يحكم بين عباده بالعدل ويقتص لمن أساء وقصر ، قال سبحانه: {وإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ } [الانفطار:١٠-١٢] ، وقال تعالى: { وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً }

[الإسراء:١٣-١٤].

بهذا الضمير الإنساني يستطيع الإنسان تأدية العبادات على الوجه الأكمل ، فتجد صاحبه محافظاً على العبادات والطاعات والذكر وقراءة القرآن ، فإذا لم يكن موصولاً بالله فإنه سيأتي يومٌ ويموت ضمير هذا الإنسان ، وعندما يموت الضمير يختل الميزان وتضطرب الحياة ، ولا يستطيع صاحبه أن يعبد الله حق عبادته ، لأنه لا يبتغي من ورائها ثوابًا ولا يخاف عقابًا ، ولا يخشى من مساءلة يوم القيامة .

فبالضمير الحي اليقظ ينضبط السلوك والتصرفات ، وتحفظ الحقوق وتؤدى الواجبات ؛ حتى وإن غابت رقابة البشر ، فتقوى الله ومراقبته والخوف منه والاستعداد للقائه أقوى في نفس المسلم من كل شيء ، فصاحب الضمير الحي يدرك أن الله معه حيث كان في السفر أو الحضر ، في الخلوة أو في الجلوة ، لا يخفى عليه خافية ، ولا يغيب عنه سر ولا علانية ، قال تعالى: { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا

هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [المجادلة:٧]. وغير ذلك من عشرات الآيات التي تربي الضمائر على محاسبة النفس والاستعداد للقاء الحق سبحانه.

وصاحب الضمير الحي يجيد عمله ويؤدى واجبه ، سواء رآه الناس أم لم يروه ، وسواء أثنوا عليه أم لا ، فإنه يحسن عمله على أية حال ، وبالتالي فالإقبال على العمل والإحسان فيه يجب أن يكون بدوافع إيمانية وضمير يقظ ، استرضاء لله ، وإن جحد الخلق، يقول تعالى:{يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [الشعراء: ٨٨،٨٩] ، ومن ثم فإن إحياء الضمائر يأتي من محاسبة النفس ومراقبتها لله تعالى ، والخوف منه عز وجل.

ولقد ضرب القرآن الكريم لنا مثلا بيوسفَ – عليه السلامُ – في الطهر والعفاف حين حجَزَهُ ضميرُه عن الانجرافِ وراءَ الهوى ، إذ أقبلت الدنيا بمتعها في شخصية امرأة العزيز تراوده عن نفسه فأبى ، ولاذ بدينه قائلا:{ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ}. لقد أحس بمراقبة الله عليه ، وأنه يراه في هذا المكان المغلق ، فاعتصم بدينه، وانتصر صوت الإيمان في قلبه على صوت الغريزة في بشريته ، فكانت يقظة الضمير أقوى حارس عليه.

إن المؤمن القوي في عقيدته ، القوي في يقظة ضميره ، القوي في محاسبة نفسه، هو السعيد في الدنيا ، والفائز في الآخرة برضوان الله ،

قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [الحشر: ١٨] .

ولقد ربى النبيّ (صلى الله عليه وسلم) أتباعه على يقظة الضمير ومراقبة الله عز وجل ، فيأتي رجلان من المسلمين إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) يختصمان في قطعة أرض ليس لأحدٍ منهما بينة وكل واحدٍ منهما يدعي أنها له وقد ارتفعت أصواتهما ، فقال: (إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا بِقَوْلِهِ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ فَلاَ يَأْخُذْهَا) (رواه البخاري) ، عند ذلك تنازل كل واحدٍ منهما عن دعواه ؛ لأن النبي (صلى الله عليه وسلم) قد حرك في نفوسهما الإيمان ، وارتفع بهما إلى مستوى عالٍ من التربية الوجدانية وبناء الضمير والتهذيب الخلقي ، فكانت هذه التربية وبناء الضمير حاجزاً لهما عن الظلم والحرام ، وهو الدافع إلى كل خير.

ومن النماذج التي أحيا الإيمان في قلوبها يقظة الضمير ما ورد عن عبد أمَّنَهُ سيده على الغنم ، فضرب المثل الأعلى في العفة والنقاء ويقظة الضمير الإيماني ، يقول عبد الله بن دينار :

خرجت مع عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) إلى مكة ، فعرضنا في بعض الطريق ، فانحدر بنا راعٍ من الجبل ، فقال له عمر (رضي الله عنه) : يا راعي ، بعني شاة من هذه الغنم ، فقال : إني مملوك وهذه الغنم لسيدي ، فقال عمر -اختبارا له- قل لسيدك أكلها الذئب ، فقال الراعي: إذا قلت لسيدي هذا ؟ فماذا أقول لربي يوم القيامة ؟ فبكى عمر بن

الخطاب ، واشترى هذا العبد من سيده واعتقه ، وقال: أعتقتك في الدنيا هذه الكلمة ، وأرجو أن تعتقك في الآخرة.

ونحن نسير في ركب أصحاب الضمائر الحية الذي خلَّد الزمن ذكراهم ، نذكر تلك القصة التي سجلها التاريخ صورة رائعة فريدة مؤثرة ، تبين مدى يقظة الضمير الحي والحس الإيماني ، فقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يعس المدينة ليلاً، ثم جلس تحت جدار ليسمع امرأة تقول لابنتها : قومي إلى ذلك اللبن فامذقيه بالماء ، فقالت لها: يا أماه أو ما علمت ما كان من عزمة أمير المؤمنين اليوم ؟ قالت: وما كان من عزمته يا بنية؟ قالت: إنه أمر مناديه فنادى أن لا يشاب اللبن بالماء ، فقالت لها: يا بنية قومي إلى ذلك اللبن فامذقيه بالماء ، فإنك بموضع لا يراك عمر ولا منادي عمر ، فقالت الصبية لأمها: يا أمتاه والله ما كنت لأطيعه في الملأ وأعصيه في الخلاء ، كل ذلك وأمير المؤمنين يستمع، وقد سره أمانة الفتاة ، وضميرها الحي ، فاختارها زوجة لأعز أولاده ، وكان من ذريتها الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز – رضي الله عنه– (صفة الصفوة) .

وها هو الإمام علي (رضي الله عنه) يفقد درعه ويجدها عند يهودي ، فأقبل إلى القاضي شريح يختصم إليه ، فقال علي للقاضي: هذه الدرع درعي ، ولم أبع ولم أهب ، فقال القاضي شريح لليهودي : ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين ، فقال اليهودي : الدرع درعي ، فالتفت القاضي شريح إلى علي (رضي الله عنه) وقال : يا أمير المؤمنين ألك بينة ؟ فابتسم علي وقال : أصاب شريح : مالي بينة ، فقضى بالدرع

لليهودي ، فأخذها ومشى خطوات ثم رجع ، فقال : أما أنا فأشهد أن هذه أحكام الأنبياء ، أمير المؤمنين يخاصمني إلى قاضيه فيقضي عليه ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله ، الدرع والله درعك ، سقطت منك . فقال علي: أما إذا أسلمت فهي هدية مني.

إن القاضي عندما حكم على الخليفة كان ضميره هو الذي يحكم ، لأنه يحكم بالحق ، ويسير على المنهج السليم ، ويلتزم بما رسم الله في كتابه ، وما حدده رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في منهاجه ، من باب : (البينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر) ، فلما رأى اليهودي تلك اليقظة ، وعرف أن الهوى ليس له على نفس أحدهما سلطان أعلن إسلامه ودخل في زمرة الصالحين ، لأن الضمير هنا كان المسيطر على الحاكم وعلى القاضي ، إنها ضمائر متصلة بالله (عز وجل).

إن الأمة في أمس الحاجة إلى أصحاب الضمائر الحية والسرائر النقية حتى تنهض وترتقي وتسعد ، فإن سعادة المجتمع ورقيه في يقظة ضمير أبنائه وتقوية الوازع الديني في نفوسهم ، لأنه هو المهيمن على شئونهم ، فإذا مات الضمير الإنساني والوطني نتج عن ذلك فساد في الأخلاق والمعاملات ، فما الذي يمنع الموظف أن يرتشي ؟! والكاتب أن يزور ؟! والجندي أن يخل في عمله ؟! والطبيب أن يهمل في علاج مريضه ؟! والمعلم أن يقصر في واجبه ؟! والقاضي أن يظلم في حكمه ؟! والتاجر أن يغش ويحتكر في تجارته ؟! ... وهكذا في كثير من جوانب الحياة.

إن الذي يمنع كل ذلك هو الضمير الإيماني والوطني اليقظ الذي يهذب الأخلاق ، ويقوم اعوجاج السلوك ، ويكون سبباً في إصلاح النيات ، وقبول الأعمال ، وكثرة العبادات والطاعات ، بل إنه يورث الخوف من الله والخشية من عذابه وسخطه ، قال تعالى:{تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون} [السجدة: ١٦].

على أن الضمير الوطني اليقظ هو الذي يبني ولا يهدم ، ويعمر ولا يخرب ، ويسعى إلى صناعة الحياة لا إلى صناعة الموت.

إذا مات الضمير فإن الحياة تَفسُد ، ذلك أن الضمير الحيّ سرّ الحياة ، من غيره تموت الشعوب والأوطان ، وتنتهي الأمم والحضارات ، وتزول القيم والمبادئ ، ويُصبِح كل شيء مباحًا : كلام الزور ، والخيانة ، والسرقة ، والمال الحرام ، والقتل ، والسكوت عن الظلم والظالمين ، وتزييف الحقائق وغيرها من موبقات الحياة.

لذا وجب علينا جميعاً أن نحيي ضمائرنا بتقوى الله ومراقبته ، والنظر إلى مصالح مجتمعنا ووطننا ، ولنحذر أن تكون أجسادنا بلا ضمائر حية متصلة بالحق والخير والمعروف ، حتى تتنزل علينا رحمة الله ومغفرته.

*　　*　　*

حق الطريق والمرافق العامة

أولا : **العناصر**:

١- شموليةُ الإسلام لكل جوانب الحياة.

٢- من حقوق الطريق وآدابه:

– غضُّ البصر .

– كفُّ الأذى .

– ردُّ السلام .

٣- دعوة الإسلام إلى الحفاظ على المرافق العامة.

ثانيًا : **الأدلـة** :

الأدلة من القرآن الكريم :

١- قال تعالى: { أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ} [لقمان:٢٠].

٢- وقال تعالى: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا} [الفرقان: ٦٣– ٦٧].

٣- وقال تعالى : {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا * وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا * كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا } [الإسراء: ٣٦– ٣٨].

٤- وقال تعالى: {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا} [النور:٣٠، ٣١].

٥- وقال تعالى:{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ* يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ} [الحجرات: ١١،١٢] .

٦- وقال تعالى:{ وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا} [النساء: ٨٦].

٧- وقال تعالى:{وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [الأعراف: ٨٥].

٨- وقال تعالى:{وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ} [آل عمران:١٦١].

٩- وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا} [النساء: ٢٩].

الأدلـة من الســنة :

١- عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): (الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ) (رواه مسلم) .

٢- وعن أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِىِّ (رضي الله عنه) عَنِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: (إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ في الطُّرُقَاتِ). قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا لَنَا بُدٌّ مِنْ مَجَالِسِنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): (فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلاَّ الْمَجْلِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ) قَالُوا : وَمَا حَقُّهُ؟ قَالَ : (غَضُّ الْبَصَرِ ، وَكَفُّ الأَذَى ، وَرَدُّ السَّلاَمِ ، وَالأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْىُ عَنِ الْمُنْكَرِ) (رواه مسلم).

٣- وعَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ (رضي الله عنه) قَالَ : (سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) عَنْ نَظَرِ الْفُجَاءَةِ فَأَمَرَنِي أَنْ أَصْرِفَ بَصَرِي) (رواه مسلم).

٤- وعن عَبْد اللهِ بْن عَمْرٍو (رضي الله عنهما) قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَقُولُ: (الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ) (مسند أحمد).

٥- وعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ (رضي الله عنه) قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فِي سَفَرٍ، فَأَصْبَحْتُ يَوْمًا قَرِيبًا مِنْهُ وَنَحْنُ نَسِيرُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ وَيُبَاعِدُنِي مِنْ النَّارِ. قَالَ:

(لَقَدْ سَأَلْتَ عَظِيمًا، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ: تَعْبُدُ اللَّهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ) ثُمَّ قال: (أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ النَّارَ الْمَاءُ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ من جَوْفِ اللَّيْلِ) ثُمَّ قَرَأَ: {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ} حَتَّى بَلَغَ {جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [السجدة: ١٦ – ١٧]، ثُمَّ قَالَ: (أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذُرْوَةِ سَنَامِهِ؟ الْجِهَادُ)، ثُمَّ قَالَ:(أَلَا أُخْبِرُكَ بِمِلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟) قُلْتُ: بَلَى. فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ فَقَالَ: (تَكُفُّ عَلَيْكَ هَذَا) قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ قَالَ: (ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ ، وهَلْ يُكِبُّ النَّاسَ عَلَى وُجُوهِهِمْ فِي النَّارِ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟!)

(سنن ابن ماجه).

٦- وعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ أَنَّ النَّبِيَّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (مَنْ آذَى الْمُسْلِمِينَ فِي طُرُقِهِمْ وَجَبَتْ عَلَيْهِ لَعْنَتُهُمْ)

(المعجم الكبير للطبراني).

٧- وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) عَنْ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (لَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلاً يَتَقَلَّبُ فِي الْجَنَّةِ فِي شَجَرَةٍ قَطَعَهَا مِنْ ظَهْرِ الطَّرِيقِ كَانَتْ تُؤْذِي النَّاسَ) (صحيح مسلم).

٨- وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): (لاَ تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلاَ تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا ، أَوَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ أَفْشُوا السَّلاَمَ بَيْنَكُمْ)

(رواه مسلم).

ثالثًا : المــــوضــــــوع :

لقد خلق الله تعالى الإنسان وكرّمه ، وهيأ له من الأسباب ما يساعده على الحياة الكريمة ، فسخر كل ما في السموات وما في الأرض لخدمته ومنفعته ، قال سبحانه : { أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ} [لقمان:٢٠].

والمتأمل في شريعة الإسلام يجد أنها قد شملت واستوعبت كل مناحي الحياة وشئونها ، فلم تدع مجالاً في السلوك العام أو الخاص إلا وحثّت عليه ، ومن هنا فلا غرو أن يكون لتوجيهات الإسلام وأحكام الشريعة دورٌ بالغٌ في تنظيم شئون المجتمع ، ولا أدل على ذلك من أن مدونات أهل الإسلام في الفقه والأخلاق لا تزال مشحونة بالحكم والأحكام في فهم شئون الإنسان وسياسة المجتمعات، مع نماذج حية وسيرٍ فذة وتطبيقاتٍ جليةٍ على مدى تاريخ الأمة المجيد.

وإن مما يُظهر شمولية هذا الدين وجلاءَ حِكَمِه وأحكامه ما أوضحته آيات القرآن الحكيم وأحاديث النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) ، ومن ذلك قوله تعالى: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ

يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا}[الفرقان: ٦٣– ٦٧]. وقوله تعالى: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا * وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا * كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا } [الإسراء: ٣٦ – ٣٨].

وفيما رواه الإمام مسلم في صحيحه بسنده عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): (الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ).

ولما كانت شريعتنا الغراء قد اهتمت بسعادة الناس في دنياهم وأخراهم، شرعت لهم من الآداب والأخلاق التي لو التزموا بها لعاشوا حياة طيبة كريمة في الدنيا والآخرة ، قال تعالى:{وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا} [الجن: ١٦].

ومن هذه الآداب وتلك الأخلاق التي حثَّ عليها ديننا الحنيف: إعطاء الطريق حقَّه ، والالتزامُ بآدابه وواجباته ، فعَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِىِّ (رضي الله عنه) عَنِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: (إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ في الطُّرُقَاتِ). قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا لَنَا بُدٌّ مِنْ مَجَالِسِنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): (فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلاَّ الْمَجْلِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ)، قَالُوا : وَمَا حَقُّهُ ؟ قَالَ (غَضُّ الْبَصَرِ وَكَفُّ الأَذَى وَرَدُّ السَّلاَمِ وَالأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْىُ عَنِ الْمُنْكَرِ) (رواه مسلم).

ويؤكد ضرورة هذه الحقوق للطريق في حياتنا ؛حيث لم تعد الطرقات كما كانت قديمًا مجتمعًا لقضاء حوائج الناس والنقاش في مسائلهم الملحة ، بل أصبحت مرتعًا لذوي الأغراض الدنيئة، المتبعين للشهوات ، والمتتبعين للعورات.

وعلى ذلك تأتي هذه الحقوق علاجًا لما هو حاصل في واقع حياتنا من مخالفات يرتكبها بعض الناس في الطرقات ، وحسب ترتيب الحديث النبوي لهذه الآداب يقع غضّ البصر الحق الأول من حقوق الطريق:

وقد جاء الأمر بغض البصر عامًا في الرجال والنساء على السواء ، وذلك لخطر النظر الفاحش من كلا الطرفين للآخر ، ويؤكد هذا ما جاء في الحديث عَنْ حُذَيْفَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (النَّظْرَةُ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ مَسْمُومَةٌ فَمَنْ تَرَكَهَا مِنْ خَوْفِ اللَّهِ أَثَابَهُ جَلَّ وَعَزَّ إِيمَانًا يَجِدُ حَلَاوَتَهُ فِي قَلْبِهِ) (المستدرك للحاكم).

ولأجل هذا دعا الإسلام أتباعه إلى غض البصر ، فقال تعالى:{قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا}[النور: ٣٠، ٣١]. وعلى ذلك فلو غض الإنسان بصره لاطمأنت نفسه وهدأ قلبه وسكن فؤاده.

وقد راعى الإسلام في الإنسان الخطأ غير المقصود ، فلم يغفل ما قد يقع من الناس بدون قصد منهم، لذا أمر من نظر إلى امرأة أجنبية أن

يصرف بصره عنها ولا يتمادى ، لما رواه مسلم في صحيحه عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ (رضي الله عنه) قَالَ : (سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) عَنْ نَظَرِ الْفُجَاءَةِ فَأَمَرَنِي أَنْ أَصْرِفَ بَصَرِي). (رواه مسلم).

أما الحق الثاني من حقوق الطريق فهو كفُّ الأذى عن المارَّةِ ، وعدم التعرض لهم بأي لون من ألوان الاعتداء ، سواء كان هذا في أبدانهم أو أعراضهم ، بغض النظر عن أجناسهم وألوانهم وأديانهم ، ففي الحديث عن عَبْد اللهِ بْن عَمْرٍو (رضي الله عنهما) قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَقُولُ: (الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ) (مسند أحمد).

ولما كانت المجالس كثيرًا ما تشتمل على الغيبة والنميمة والاستهزاء والسخرية ؛ كان تشديد الإسلام على خطورة اللسان باعتباره الأداة الأولى في الإيذاء ؛ لذا جاء الحديث عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ (رضي الله عنه) قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فِي سَفَرٍ، فَأَصْبَحْتُ يَوْمًا قَرِيبًا مِنْهُ وَنَحْنُ نَسِيرُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ وَيُبَاعِدُنِي مِنْ النَّارِ. قَالَ: (لَقَدْ سَأَلْتَ عَظِيمًا، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ: تَعْبُدُ اللَّهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ) ثُمَّ قال: (أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ النَّارَ الْمَاءُ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ من جَوْفِ اللَّيْلِ) ثُمَّ قَرَأَ: {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ} حَتَّى

بَلَغَ {جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [السجدة: ١٦ – ١٧]، ثُمَّ قَالَ: (أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذُرْوَةِ سَنَامِهِ؟ الْجِهَادُ)، ثُمَّ قَالَ: (أَلَا أُخْبِرُكَ بِمِلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟) قُلْتُ: بَلَى. فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ فَقَالَ: (تَكُفُّ عَلَيْكَ هَذَا) قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ قَالَ: (ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ ، وهَلْ يُكِبُّ النَّاسَ عَلَى وُجُوهِهِمْ فِي النَّارِ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟!)

(سنن ابن ماجه).

فليحذر المسلم ألوان الإيذاء للآخرين باللسان أو اليد ، فلا يسخر أو يستهزئ ولا يشتم ولا يسب ولا يغتاب ولا ينم ولا يتجسس ، حيث نهى الحق تبارك عن ذلك كله ، فقال: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ } [الحجرات: ١١،١٢]

كذلك فليحذر المسلم أن يعتدي على الآخرين بأي نوع من التطاول ، وخاصة ما يكون باليد كضرب بريء أو قتل نفسٍ أو سفك دمٍ أو نحو ذلك ، وليعلم أن هذا من الإفساد في الأرض{وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} [المائدة: ٦٤]. وعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أُسَيدٍ أَنَّ النَّبِيَّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (مَنْ آذَى الْمُسْلِمِينَ فِي طُرُقِهِمْ وَجَبَتْ عَلَيْهِ لَعْنَتُهُمْ)

(المعجم الكبير للطبراني).

وسر هذا أن الاعتداء على حرمات الطرقات أمر يكرهه الإسلام وتحذر منه الشريعة، وذلك لما فيه من مخاطر على الفرد والمجتمع؛ حيث تحول بعض الطريق من وسيلة لإنجاز حوائج الناس إلى أداة لترويعهم ، وأصبح الإنسان – رجلاً كان أو امرأة– لا يأمن على نفسه أو أهله من السير في الطريق لما يكتنفه من مخاطر .

ثم إن جزاء ذلك منصوص عليه في قوله تعالى : {إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [المائدة: ٣٣، ٣٤].

ويا ليت الناس يعلمون عظم فضل إماطة الأذى عن طريق الناس ومجالسهم ، فما أعظمه من أجر يناله الإنسان حينما يرفع الأذى عن الناس ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) عَنْ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (لَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلاً يَتَقَلَّبُ فِي الْجَنَّةِ فِي شَجَرَةٍ قَطَعَهَا مِنْ ظَهْرِ الطَّرِيقِ كَانَتْ تُؤْذِي النَّاسَ) (صحيح مسلم).

وكذلك من أبرز حقوق الطريق : ردُّ السلام ؛ فهو أدبٌ كريمٌ يتخلق به أبناء الإسلام ، وحق يحفظونه لإخوانهم ، يغرس المحبة ويزرع الألفة ويغسل الأحقاد ، ويستجلبُ به رضا الله تعالى وغفرانه ، ففي الحديث عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): (لاَ تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلاَ تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا ، أَوَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى شَىْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ أَفْشُوا السَّلاَمَ بَيْنَكُمْ) (رواه مسلم).

فمن جلس بطريق يمر به المارة فيسلمون عليه وجب عليه أن يرد عليهم ، وقد قال الله تعالى : { وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا} [النساء: ٨٦].

أما إذا جلس الإنسان في طريق ولم يرد السلام على أحد ، أو يرد على من يعرفهم فقط، أو يرد على من كان في منزلته كفعل بعض المتكبرين ، فإن ذلك يُعدُّ من سوء الأدب واكتساب الإثم، وإخلال بحق الطريق، فمن جلس في طرق الناس وجب عليه أن يؤدي لهم حقوقهم ، فإن السلام سنة ، ورده واجب على من سلم .

ومن المعلوم أن الطريق ليس ملكًا لأحد معين ، إنما هي من المرافق والممتلكات العامة التي ينتفع بها الجميع ، لكن للأسف الشديد نرى عبث البعض بها والاعتداء على ما فيها من مرافق بحجة أنها حق عام وليست لأحد بعينه ، وهذا ضرب من الإفساد المذموم شرعًا ، قال تعالى :{وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [الأعراف: ٨٥].

ففي الآونة الأخيرة كثرت صور الاعتداءات على المرافق والملكيات العامة لأسباب شتى من بينها : ضعف القيم الإيمانية والأخلاقية لدى البعض من الناس والذين يلحقون أضرارًا جسيمة بالفرد وبالمجتمع ، في حين أن الإسلام قد أكد على ضرورة حماية المال العام من السارقين والمختلسين ، والغلولين والنصّابين والمرتشين والأفّاقين ، والمرابين والمقامرين ، وممن يتلفون ويسرقون وممن يستغلون المرافق العامة لمنافعهم ومآربهم الشخصية من دون الناس جميعًا.

إن المرفق العام ملك للجميع وتخريبه هو اعتداء على المال العام الذي حذّر الله – تعالى– من سرقته أو الإضرار به ، فإن ذلك يعد من الغلول، قال تعالى : {وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ} [آل عمران/١٦١].

فالواجب علينا جميعًا أن نتعاون في الحفاظ على هذه المرافق وتطويرها والبعد عمّا يؤدي إلى إتلافها ؛ لأنها مال عام ينتفع به الجميع ، ويعتبر الحفاظ عليه إحدى الضروريات

الخمس التي جاءت بها شريعتنا الإسلامية الغراء، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا}[النساء: ٢٩].

فالحفاظ عليها مسئوليتنا جميعًا ، والاعتداء عليها اعتداء على مجموع الأفراد والمجتمع ؛ لأن الذي يسرق من المال العام فإنه يسرق من الأمة كلها، وعليه إثم كل من له حق في هذا المال ، فسرقته أعظم جرمًا من سرقة المال الخاص، كان مُعَيْقِيب على بيت مال عمر ، فكنس بيت المال يومًا فوجد فيه درهمًا فدفعه إلى ابنٍ لعمر، قال مُعيقيب: ثم انصرفت إلى بيتي، فإذا رسول عمر قد جاءني يدعوني، فجئت فإذا الدرهم في يده فقال لي: ويحك يا مُعيقيب، أوجدت عليّ في نفسك شيئًا ؟ قال : قلت: ما ذاك يا أمير المؤمنين؟ قال: أردت أن تخاصمني أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) في هذا الدرهم؟!

(مسند الفاروق لابن كثير بتصرف).

ضوابط البيع والشراء

أولا: العناصر:

١-التحلي بالأمانة والصدق.

٢-الحث على السماحة واليسر.

٣-حرمة الغش والتدليس.

٤-النهي عن تطفيف الكيل والميزان.

٥-حرمة الاحتكار.

ثانيًا: الأدلة من القرآن والسنة:

من القرآن الكريم:

١- قال تعالى: {وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا}[البقرة:٢٧٥].

٢- وقال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} [البقرة:١٧٢].

٣- وقال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا} [النساء: ٢٩ ،٣٠].

٤- وقال تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} [التوبة : ١١٩].

٥- وقال تعالى:{وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا

النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [الأعراف: ٨٥].

٦- وقال تعالى:{وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ* الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ} [المطففين:١ـ٣].

من السنة النبوية :

١. عَنْ أَبِى سَعِيدٍ (رضي الله عنه) أن النَّبِيَّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الأَمِينُ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ) (رواه الترمذي).

٢. وعن أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) مَرَّ عَلَى صُبْرَةٍ مِنْ طَعَامٍ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا، فَنَالَتْ أَصَابِعُهُ بَلَلاً، فَقَالَ: (يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ، مَا هَذَا؟)، قَالَ: أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ: (أَفَلاَ جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ حَتَّى يَرَاهُ النَّاسُ)، ثُمَّ قَالَ: (مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنَّا) (سنن الترمذي) ، وفي رواية عند الحاكم: (مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا)

٣. وعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا): أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ ، وَإِذَا اشْتَرَى ، وَإِذَا اقْتَضَى) (رواه البخاري).

٤. وعن أَبِى هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): (أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إِلاَّ طَيِّبًا وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ : { يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ

كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} ، وَقَالَ : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ} ، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ) (صحيح مسلم).

٥. وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم): (اشْتَرَى رَجُلٌ مِنْ رَجُلٍ عَقَارًا لَهُ، فَوَجَدَ الرَّجُلُ الَّذِي اشْتَرَى الْعَقَارَ فِي عَقَارِهِ جَرَّةً فِيهَا ذَهَبٌ، فَقَالَ لَهُ الَّذِي اشْتَرَى الْعَقَارَ: خُذْ ذَهَبَكَ مِنِّي، إِنَّمَا اشْتَرَيْتُ مِنْكَ الأَرْضَ وَلَمْ أَبْتَعْ مِنْكَ الذَّهَبَ وَقَالَ الَّذِي لَهُ الأَرْضُ: إِنَّمَا بِعْتُكَ الأَرْضَ وَمَا فِيهَا؛ فَتَحَاكَمَا إِلَى رَجُلٍ فَقَالَ الَّذِي تَحَاكَمَا إِلَيْهِ: أَلَكُمَا وَلَدٌ قَالَ أَحَدُهُمَا: لِي غُلاَمٌ ، وَقَالَ الآخَرُ: لِي جَارِيَةٌ؛ قَالَ: أَنْكِحُوا الْغُلاَمَ الْجَارِيَةَ، وَأَنْفِقُوا عَلَى أَنْفُسِهِمَا مِنْهُ وَتَصَدَّقَا) (رواه البخاري).

٦. وعَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ (رضي الله عنه) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ : (لأَلْقَيَنَّ اللَّهَ (عَزَّ وَجَلَّ) مِنْ قَبْلِ أَنْ أُعْطِيَ أَحَدًا مِنْ مَالِ أَحَدٍ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسِهِ إِنَّمَا الْبَيْعُ عَنْ تَرَاضٍ)

(رواه البيهقي في السنن الكبرى).

٧. وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ (رضي الله عنه) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (مَنْ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ فَقَدْ أَوْجَبَ اللَّهُ

لَـهُ النَّـارَ وَحَـرَّمَ عَلَيْـهِ الْجَنَّـةَ) ، فَقَـالَ لَـهُ رَجُـلٌ: وَإِنْ كَـانَ شَـيْئًا يَسِـيرًا يَـا رَسُولَ اللَّهِ؟، قَالَ: (وَإِنْ كَانَ قَضِيبًا مِنْ أَرَاكٍ)   (رواه مسلم).

٨. وعَـنْ عَبْـدِ اللَّـهِ بْـنِ عُمَـرَ (رَضِـيَ اللَّـهُ عَنْهُمَـا) قَـالَ : أَقْبَـلَ عَلَيْنَـا رَسُـولُ اللهِ (صَـلَّى الله عَلَيْـهِ وسَـلَّمَ) فَقَـالَ : (يَـا مَعْشَـرَ الْمُهَـاجِرِينَ خَمْـسٌ إِذَا ابْتُلِيـتُمْ بِهِـنَّ ، وَأَعُـوذُ بِاللَّـهِ أَنْ تُـدْرِكُوهُنَّ : لَـمْ تَظْهَـرِ الْفَاحِشَـةُ فِـي قَـوْمٍ قَـطُّ حَتَّـى يُعْلِنُـوا بِهَـا ، إِلاَّ فَشَـا فِـيهِمُ الطَّـاعُونُ ، وَالأَوْجَـاعُ الَّتِـي لَـمْ تَكُـنْ مَضَـتْ فِـي أَسْـلاَفِهِمُ الَّـذِينَ مَضَـوْا ، وَلَـمْ يَنْقُصُـوا الْمِكْيَـالَ وَالْمِيـزَانَ ، إِلاَّ أُخِـذُوا بِالسِّـنِينَ ، وَشِـدَّةِ الْمَؤُونَـةِ ، وَجَـوْرِ السُّـلْطَانِ عَلَـيْهِمْ ، وَلَـمْ يَمْنَعُـوا زَكَـاةَ أَمْـوَالِهِمْ ، إِلاَّ مُنِعُـوا الْقَطْـرَ مِـنَ السَّمَاءِ ، وَلَـوْلاَ الْبَهَـائِمُ لَـمْ يُمْطَـرُوا ، وَلَـمْ يَنْقُضُـوا عَهْـدَ اللهِ ، وَعَهْـدَ رَسُـولِهِ ، إِلاَّ سَـلَّطَ اللَّـهُ عَلَـيْهِمْ عَـدُوًّا مِـنْ غَيْـرِهِمْ، فَأَخَـذُوا بَعْضَ مَـا فِـي أَيْـدِيهِمْ ، وَمَـا لَـمْ تَحْكُـمْ أَئِمَّـتُهُمْ بِكِتَـابِ اللهِ ، وَيَتَخَيَّـرُوا مِمَّـا أَنْـزَلَ اللَّـهُ ، إِلاَّ جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ)   (سنن ابن ماجه) .

٩. وعـن عُمَـرَ بْـنِ الْخَطَّـابِ (رَضِـيَ اللَّـهُ عَنْـهُ) قَـالَ: سَـمِعْتُ رَسُـولَ اللَّـهِ (صَـلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ) يَقُـولُ: (مَـنِ احْتَكَـرَ عَلَـى الْمُسْـلِمِينَ طَعَـامَهُمْ ، ضَرَبَهُ اللَّهُ بِالْجُذَامِ وَالْإِفْلَاسِ)   (رواه ابن ماجه).

١٠.وعَـنِ ابْـنِ عُمَـرَ (رَضِـيَ اللَّـهُ عَنْهُمَـا) عَـنِ النَّبِـيِّ (صَـلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ) قـال: (مَـنِ احْتَكَـرَ طَعَامًـا أَرْبَعِـينَ لَيْلَـةً ، فَقَـدْ بَـرِئَ مِـنَ اللَّـهِ تَعَـالَى ، وَبَـرِئَ اللَّـهُ تَعَـالَى مِنْـهُ ، وَأَيُّمَـا أَهْـلُ عَرْصَـةٍ أَصْبَحَ فِـيهِمُ امْـرُؤٌ جَائِعٌ ، فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُمْ ذِمَّةُ اللَّهِ تَعَالَى)   (رواه أحمد).

١١. وعَـنْ أَبِـي هُرَيْـرَةَ (رضـي الله عنـه) قَـالَ: قَـالَ رَسُـولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) : (مَنِ احْتَكَرَ حُكْرَةً يُرِيدُ أَنْ يُغْلِيَ بِهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فقد بَرِئَت منه ذمة الله ورسوله)

(مسند أحمد ، والهندي في كنز العمال واللفظ له).

ثالثاً: الموضوع:

من جوانب عظمة الدين الإسلامي التي تميز بها من بين سائر الأديان والشرائع أنه ما ترك خصلة من خصال الخير تبث بين الناس المودة والرحمة والألفة والمحبة إلا أمر بها ورغب فيها الناس كافة.

وبما أن النفس البشرية جُبلت على حب المال الذي به قوام الحياة وانتظام أمر المعاش جاءت الشريعة الإسلامية بتعاليمها السمحة تحث أتباعها بضرورة السعي في تحصيل المال واكتسابه من طرق مباحة ومشروعة ، فأباحت جميع صور الكسب الحلال التي ليس فيها اعتداء ولا ظلم ولا ضرر على الغير، قال تعالى :{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ}[البقرة:١٧٢]. وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): (أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إِلاَّ طَيِّبًا وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ ، فَقَالَ : { يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} ، وقَالَ سبحانه وتعالى :{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ} ، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِىَ بِالْحَرَامِ ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ) (صحيح مسلم).

والبيع والشراء أحدُ طرق الاكتساب المباحة لتعلق مصالح العباد به كما قال تعالى: {وأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَواْ}[البقرة:٢٧٥] ، وعدَّه النبيُ الأمين (صلى الله عليه وسلم) من أهم المكاسب وأطيبها ، فعَنْ عَبَايَةَ بْنِ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الْكَسْبِ أَطْيَبُ؟ قَالَ: (كَسْبُ الرَّجُلِ بِيَدِهِ، وَكُلُّ بَيْعٍ مَبْرُورٍ) (رواه الحاكم في المستدرك) ، والبيع والشراء ضرورة من ضروريات الحياة يتحقق بهما إعمار الكون واستقرار المجتمع وأمنه.

من هنا حثت الشريعة الإسلامية في البيع والشراء على السهولة واليسر ، والسماحة وحسن المعاملة في البيع والشراء ، وطلب الربح اليسير دون عنت أو مشقة على الناس ، وضرورة الشفَقَة والتلطف بالمتعاملين ، حتى تتحقق البركة في الرزق ، والسعة في الأموال ، وجعلت الالتزام بهذه التعاليم بابًا عظيمًا من أبواب الرحمة والإحسان ، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ : (رَحِمَ اللَّهُ رَجُلاً سَمْحًا إِذَا بَاعَ وَإِذَا اشْتَرَى وَإِذَا اقْتَضَى) (رواه البخاري) ، وفي رواية الترمذي (رحمه الله) من حديث جابر- أيضاً - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) : (غَفَرَ اللَّهُ لِرَجُلٍ كَانَ قَبْلَكُمْ ، كَانَ سَهْلاً إِذَا بَاعَ ، سَهْلاً إِذَا اشْتَرَى ، سَهْلاً إِذَا اقْتَضَى).

والبيعُ الذي أباحه الله وتعلَّقت به مصالح الناس هو البيعُ الذي يحصُل به تبادلُ المنافع بين الناس من غير ضررٍ يلحَق بأحد المتبايعَين ، ولذا حذَّرنا الله من أن يأكلَ بعضنا مالَ بعض ، قال تعالى: {يَأَيُّهَا الَّذِينَ

آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجارَةً عَنْ تَراضٍ مِنْكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كانَ بِكُمْ رَحِيماً * وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ عُدْواناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً}[النساء:٢٩ـ ٣٠].

فقضية البيع والشراء في الإسلام قائمة على أسس العدل ، والصدق ، والرضا ، والقبول، والوضوح التام ، بعيدًا عن الظلم والغرر واستغلال حاجات الناس ، والتراضي بين المتعاقدين ، فعن أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ (رضي الله عنه) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ : (لأَلْقِيَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ أُعْطِيَ أَحَدًا مِنْ مَالِ أَحَدٍ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسِهِ إِنَّمَا الْبَيْعُ عَنْ تَرَاضٍ) (رواه البيهقي في السنن الكبرى) ، وهذا هو الطريق لحصول البركة في البيع والشراء ، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الحَارِثِ ، قَالَ: سَمِعْتُ حَكِيمَ بْنَ حِزَامٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) عَنِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (البَيِّعَانِ بِالخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا ، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا ، وَإِنْ كَذَبَا وَكَتَمَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا) (رواه البخاري).

والتاجر الصادق الأمين يحشر يوم القيامة بصحبة الأنبياء والشهداء والصالحين ، هكذا أخبر من لا ينطق عن الهوى ، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ (رضي الله عنه) عَنِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الأَمِينُ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ) (رواه الحاكم في المستدرك). فالصدق والأمانة في البيع والشراء يجلبان البركة ويساعدان على تأليف القلوب ، وقد قص علينا النبي الأمين (صلى الله عليه وسلم) مثلاً راقيًا لصدق وأمانة متعاقدين فحلت البركة والألفة وتحقق الود المطلوب تحقيقه بين المسلمين ، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ

(رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم): (اشْتَرَى رَجُلٌ مِنْ رَجُلٍ عَقَارًا لَهُ ، فَوَجَدَ الرَّجُلُ الَّذِي اشْتَرَى الْعَقَارَ فِي عَقَارِهِ جَرَّةً فِيهَا ذَهَبٌ ، فَقَالَ لَهُ الَّذِي اشْتَرَى الْعَقَارَ: خذْ ذَهَبَكَ مِنِّي، إِنَّمَا اشْتَرَيْتُ مِنْكَ الأَرْضَ وَلَمْ أَبْتَعْ مِنْكَ الذَّهَبَ ، وَقَالَ الَّذِي لَهُ الأَرْضُ: إِنَّمَا بِعْتُكَ الأَرْضَ وَمَا فِيهَا؛ فَتَحَاكَمَا إِلَى رَجُلٍ فَقَالَ الَّذِي تَحَاكَمَا إِلَيْهِ: أَلَكُمَا وَلَدٌ قَالَ أَحَدُهُمَا: لِي غُلاَمٌ، وَقَالَ الآخَرُ: لِي جَارِيَةٌ؛ قَالَ: أَنْكِحُوا الْغُلاَمَ الْجَارِيَةَ، وَأَنْفِقُوا عَلَى أَنْفُسِهِمَا مِنْهُ وَتَصَدَّقَا) (رواه البخاري).

ويكفي أن الله (عز وجل) ثالث الشريكين المتعاقدين ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) رَفَعَهُ ، قَالَ: (إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ أَنَا ثَالِثُ الشَّرِيكَيْنِ مَا لَمْ يَخُنْ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ فَإِذَا خَانَهُ خَرَجْتُ مِنْ بَيْنِهِمَا) (رواه أبو داوود). فالخيانة على العموم صفة من صفات المنافقين ، جعلها النبي (صلى الله عليه وسلم) علامة يُعرف بها المنافق ، بل إن النبيّ (صلى الله عليه وسلم) نفى الإيمان عن خائن الأمانة ومضيعها ، فعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه) قَالَ: مَا خَطَبَنَا نَبِيُّ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إِلَّا قَالَ: (لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ) (أخرجه أحمد والبزار) ، وذلك لما يترتب على خيانة الأمانة من فساد المعاملات بين الناس ، وقطيعةٍ بين أفراد المجتمع، وتباغضٍ يفضي إلى النزاع والشقاق ، وتكدُّس في المحاكم بالعديد من القضايا التي يعدُّ سببها الأول خيانة الأمانة ، فحري بكل تاجر أن يكون صادقا أمينا في بيعه وشرائه وسائر معاملاته حتى تتحقق البركة.

ومن الضوابط التي وضعها الإسلام أيضا في المعاملات عامة والبيع والشراء خاصة : **حرمة الغش أو التدليس** ، فالغش صناعة لا يحسنها إلا المنافق ، فهو مظهر من مظاهر الكذب ، والكذب أمارة من أمارات النفاق ، والغش خيانة وخداع وهو محرم بإجماع المسلمين ، وصاحبه ليس على طريق النبي (صلى الله عليه وسلم) ولا على هديه ، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) أَنَّ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (... مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا) (رواه مسلم). إنه إعلان حرب من النبي (صلى الله عليه وسلم) على أصحاب الضمائر الفاسدة التي لا تراقب ربها سرا ولا علانية ، وتحذير لكل من تسول له نفسه الخبيثة غش المسلمين وخداعهم وأكل أموالهم بالباطل ، فهل من عاقل؟ .

فالغش داء عضال وآفة خطيرة، لا يقتصر خطرها على الفرد فحسب ، بل يمتد أثرها إلى المجتمع كله ، والغش يكون في النوع والجودة ، وذلك بدسِّ الرديء في ثنايا الجيد ، وبيعه جميعاً بقيمة الجيد دون بيان الواقع والحقيقة ، فيخفي البائع العيب الموجود في سلعته الرديئة ويظهرها كأنها سليمة ليس بها عيب من العيوب. وهذا ما وضحه النبي الأمين (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) حين مَرَّ عَلَى صُبْرَةِ طَعَامٍ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا ، فَنَالَتْ أَصَابِعُهُ بَلَلاً، فَقَالَ: (مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟) قَالَ: أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فقَالَ: أَفَلا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ حَتَّى يَرَاهُ النَّاسُ؟ ثُمَّ قَالَ: (مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي) (رواه مسلِم).

إن الغش مرض ملعون ، إذا تخلل في قلب العبد أهلكه لا محاله ، وكان عاقبة أمره خسرًا. ولله در من قال:

أَيَا بَائِعاً بالغشِّ أَنتَ مُعَرَّضٌ *** لدَعوَةِ مَظْلُومٍ إلى سَامِعِ الشَّكْوَى

فَكُلْ مِنْ حلالٍ وارْتدِعْ عن مُحرَّمٍ *** فَلَسْت على نارِ الجحِيمِ غداً تَقْوَى

وكذلك من الضوابط التي وضعها الإسلام في البيع والشراء: **حرمة التطفيف في الكيل والميزان** ، والتطفيف معناه: الاستيفاء من النّاس عند الكيل أو الوزن ، والإنقاص والإخسار عند الكيل أو الوزن لهم ، ويلحق بالوزن والكيل ما أشبههما من المقاييس والمعايير الّتي يتعامل بها النّاس (المفردات للراغب) ، فالله (عز وجل) أمر بإقامة الوزن بالقسط في كتابه الكريم ، قال تعالى:{وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلا} [الإسراء: ٣٥].

وقد حذر نبي الله شعيب (عليه السلام) قومه من بخس الناس أشياءهم والتطفيف في المكيال والميزان ، كما حكي الله – عز وجل– ذلك عنه في القرآن ، فقال: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [الأعراف: ٨٥]. وقد عقّب القرآن الكريم النهي عن التطفيف بقوله تعالى:{وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ}، وفيه دلالة على أنّ البخس في الميزان والتطفيف من عناصر الإفساد للمجتمع ، فالتطفيف يؤدي إلى فقدان الثقة بين أفراد المجتمع ، وعدم

الاطمئنـان، وتسـود المجتمـع حالـة مـن الانحـراف والتحايـل والمكـر والخديعة ، فتفسد القيم الإنسانية ، ويعم الفساد الأرض ، فعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) قَالَ : أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ) فَقَالَ : (يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ : لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا ، إِلاَّ فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ ، وَالأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلاَفِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا ، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ، إِلاَّ أُخِذُوا بِالسِّنِينَ ، وَشِدَّةِ الْمَؤُونَةِ ، وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ ، وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ ، إِلاَّ مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ ، وَلَوْلاَ الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا ، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللهِ ، وَعَهْدَ رَسُولِهِ ، إِلاَّ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ، فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ ، وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللهِ ، وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ ، إِلاَّ جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ) (سنن ابن ماجه).

والتطفيف في الكيل والميزان من الكبائر التي تهوي بصاحبها في النار ، قال سبحانه: {وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ* الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ } [المطففين: ١– ٣] ، قال مالك بن دينار (رضي الله عنه): دخلت على جار لي قد نزل به الموت، فجعل يقول: جبلين من نار ، جبلين من نار فقلت : ما تقول ؟ أتهجر ؟ قال : يا أبا يحيى ، كان لي مكيالان ، أكيل بأحدهما ، كلما ضربت أحدهما بالآخر ازداد عظما ، فمات من وجعه

(الجامع لأحكام القرآن للقرطبي).

ومن الضوابط التي وضعها الإسلام في البيع والشراء: **حرمة الاحتكار للسلع الأساسية التي يحتاج إليها الناس** ، والاحتكار معناه : حبس السلعة والامتناع عن بيعها ، أو محاولة الاستحواذ عليها في السوق بقصد رفع أسعارها وزيادة تحقيق الأرباح على حساب الناس والمجتمع ، وربما حتى على حساب الأمن القومي للبلاد ، وهو دليل على دناءة نفس صاحبه وسوء خلقه ، لذا نهى النبي الكريم (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عن كل ألوان الاحتكار وكنز السلع لرفع ثمنها على الناس، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَنِ احْتَكَرَ حُكْرَةً يُرِيدُ أَنْ يُغْلِيَ بِهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فقد بَرِئَت منه ذمة الله ورسوله) (مسند أحمد ، والهندي في كنز العمال واللفظ له).

وفي ذلك ما يؤكد حرمة استغلال حوائج الناس، أو التلاعب بأقواتهم وحاجاتهم الأساسية التي يحتاجون إليها ، سواء في طعامهم أم في غيره، لأن ذلك يُعدّ كسبًا خبيثًا محرَّما ، وهذا ما حذَّرنا منه ديننا الحنيف ، فقال تعالى :{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا } [النساء: ٢٩] ، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ ، وَمَالُهُ ، وَعِرْضُهُ) (متفق عليه).

إن المحتكر لا خلق له ولا وطنية ، غلبته أنانيته ونقيصته فجعلهما فوق كل اعتبار ، فاختار الأثرة على الإيثار ، فهو يتاجر بأقوات الناس

ومقومات حياتهم ، ويبني ثراءه على حساب عنتهم ومشقتهم ، وهذا بطبعه فيه إضرار بهم ، حذرنا منه ديننا الإسلامي الحنيف الذي يأمرنا بالتراحم وعدم استغلال حاجات الناس ، فعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَقُولُ: (مَنِ احْتَكَرَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ طَعَامَهُمْ، ضَرَبَهُ اللَّهُ بِالْجُذَامِ وَالْإِفْلَاسِ) (رواه ابن ماجة) ، وعَنِ ابْنِ عُمَرَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) عَنِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قال : (مَنِ احْتَكَرَ طَعَامًا أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، فَقَدْ بَرِئَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَبَرِئَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُ ، وَأَيُّمَا أَهْلُ عَرْصَةٍ أَصْبَحَ فِيهِمُ امْرُؤٌ جَائِعٌ، فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُمْ ذِمَّةُ اللَّهِ تَعَالَى) (رواه أحمد) ، وذلك لأنه يستجلب سخط الله (عز وجل) وسخط الناس ودعاءهم عليه ، ونقمتهم وبغضهم له.

وقد حرم الإسلام الاحتكار لما له من أضرار على الفرد والمجتمع ، فهو يحمل في طياته بذور الهلاك والدمار ؛ لما يسببه من ظلم وغلاءٍ في الأسعار ، وإهدارٍ لتجارة المسلمين وصناعتهم ، وتضييقٍ لأبواب العمل والرزق ، وانتشار الحقد والكراهية والعداوة والبغضاء بين أفراد الأمة ، مما يكون سببا في تفكك المجتمع وانهيار العلاقات بين أفراده ، إضافة إلى ذلك ما يترتب عليه من الأمراض الاقتصادية والاجتماعية، مثل البطالة والتضخم والكساد والرشوة والمحسوبية والنفاق والسرقة والغش ، لذلك قال النبي (صلى الله عليه وسلم) : (لاَ يَحْتَكِرُ إِلاَّ خَاطِئٌ) (رواه مسلم)، (والخاطئ هو الآثم).

وليعلم المحتكر والمستغل أن الربح الزائد الذي يجنيه ويتحصل عليه من احتكاره واستغلاله حرام شرعا ، قال تعالى:{وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}[آل عمران:١٦١] بالإضافة إلى أنه جلب لنفسه اللعنة والطرد من رحمة الله (عز وجل) ، وبرئت منه ذمة الله ورسوله وتوعده الله بالعقاب الأليم ، فعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (الْجَالِبُ مَرْزُوقٌ وَالْمُحْتَكِرُ مَلْعُونٌ) (رواه البيهقي في السنن الكبرى).

إنّ المؤمنَ الحق هو من يراعي حقوق العباد في بيعه وشرائه ، لتكون تجارته نافعة ، ومكسبه طيب حلال ، فيسعَد في دنياه وآخرته، أمَّا الأساليب الخبيثة في البيع والشراء ، فحري بكل مسلم أن يترفّع عنها طاعةً لربّه ، وصيانة لعرضه ودينه ، ومحافظة على أموال المسلمين ، وبُعدًا عن كلّ ما يضرّه في دينه ودنياه.

* * *

حق الطفل في التنشئة السوية والحياة الكريمة

أولا: العناصر:

١- الأطفال نعمة من الله يجب شكرها.

٢- عناية الإسلام بالأطفال.

٣- من أسس التنشئة السوية للأطفال.

أ- اختيار الاسم الحسن.

ب- الرضاعة الطبيعية

ج - الإحسان وعدم الغلظة والشدّة.

د- العدل والمساواة بينهم جميعًا.

٤- ضرورة تحقيق الحياة الكريمة للأطفال.

ثانيًا: الأدلة من القرآن والسنة :

الأدلة من القرآن:

١- قال تعالى: {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ} [الشورى:٤٩-٥٠].

٢- وقال تعالى :{وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ} [النحل: ٧٢] .

٣- وقال تعالى:{وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}

[البقرة: ٢٣٣].

٤- وقال تعالى:{وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً} [الحشر:١٨].

٥- وقال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ}

[الطور:٢١].

٦- وقال تعالى :{ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ *وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ * وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ * يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى

مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ * وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ }

[لقمان : ١٣ : ١٩].

٧- وقال تعالى:{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [التحريم: ٦].

الأدلة من السنة

١- عن ابن عمر (رضي الله عنهما) أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: (كُلُّكُمْ رَاعٍ ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ)، قَالَ الراوي: وَحَسِبْتُ أَنْ قَدْ قَالَ: (وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ)

(صحيح البخاري).

٢- وعن مَعْقِلِ بن يَسَارٍ (رضي الله عنه) عَنْ رَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: (مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللَّهُ رَعِيَّةً يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ إِلاَّ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ) (متفق عليه).

٣- وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ (رضي الله عنهما) قَالَ كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) يَوْمًا فَقَالَ: (يَا غُلاَمُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ

احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَىْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيء قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَىْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَىْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ) (سنن الترمذي).

٤- وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ (رضي الله عنهما) قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يقول: (كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَعُولُ) (المستدرك للحاكم) .

٥- وعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) يَعُودُنِي ، عَامَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ ، مِنْ وَجَعٍ اشْتَدَّ بِي ، فَقُلْتُ : إِنِّي قَدْ بَلَغَ بِي مِنَ الْوَجَعِ ، وَأَنَا ذُو مَالٍ ، وَلاَ يَرِثُنِي إِلاَّ ابْنَةٌ ، أَفَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثَيْ مَالِي ؟ قَالَ : لاَ ، فَقُلْتُ : بِالشَّطْرِ ؟ فَقَالَ : لاَ ، ثُمَّ قَالَ : الثُّلُثُ ، وَالثُّلْثُ كَبِيرٌ، أَوْ كَثِيرٌ ، إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ ، وَإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً، تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ ، إِلاَّ أُجِرْتَ بِهَا) (صحيح البخاري).

٦- وعَنْ ثَوْبَانَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): (أَفْضَلُ دِينَارٍ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ دِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى عِيَالِهِ وَدِينَارٌ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ عَلَى دَابَّتِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَدِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى أَصْحَابِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) ، قَالَ أَبُو قِلاَبَةَ وَبَدَأَ بِالْعِيَالِ ، ثُمَّ قَالَ أَبُو قِلاَبَةَ : وَأَيُّ رَجُلٍ أَعْظَمُ أَجْرًا مِنْ رَجُلٍ يُنْفِقُ عَلَى عِيَالٍ صِغَارٍ يُعِفُّهُمْ أَوْ يَنْفَعُهُمُ اللَّهُ بِهِ وَيُغْنِيهِمْ) (صحيح مسلم).

٧- وعن عُثْمَان الْحَاطِبِيّ قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ عُمَرَ (رضي الله عنه) يَقُولُ لِرَجُلٍ: (أَدِّبِ ابْنَكَ، فَإِنَّكَ مَسْئُولٌ عَنْ وَلَدِكَ ، مَاذَا أَدَّبْته ُ؟ وَمَاذَا عَلَّمْتَهُ؟ وَأَنَّهُ مَسْئُولٌ عَنْ بِرِّكَ وَطَوَاعِيَتِهِ لَكَ)

(السنن الكبرى للبيهقي).

٨- وعَنْ أَبِى الدَّرْدَاءِ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): (إِنَّكُمْ تُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَسْمَائِكُمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِكُمْ ، فَأَحْسِنُوا أَسْمَاءَكُمْ) (رواه أبو داوود).

٩- وعَنْ عَامِرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) وَهُوَ عَلَى المِنْبَرِ يَقُولُ: أَعْطَانِي أَبِي عَطِيَّةً، فَقَالَتْ عَمْرَةُ بِنْتُ رَوَاحَةَ: لاَ أَرْضَى حَتَّى تُشْهِدَ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، فَقَالَ: إِنِّي أَعْطَيْتُ ابْنِي مِنْ عَمْرَةَ بِنْتِ رَوَاحَةَ عَطِيَّةً، فَأَمَرَتْنِي أَنْ أُشْهِدَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: (أَعْطَيْتَ سَائِرَ وَلَدِكَ مِثْلَ هَذَا؟) ، قَالَ: لاَ، قَالَ: (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلاَدِكُمْ)، قَالَ: فَرَجَعَ فَرَدَّ عَطِيَّتَهُ (صحيح البخاري).

١٠- وعن عُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ (رضي الله عنهما) قَالَ: كُنْتُ فِي حَجْرِ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وَكَانَتْ يَدِي تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ فَقَالَ لِي: (يَا غُلَامُ سَمِّ اللَّهَ وَكُلْ بِيَمِينِكَ وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ)

(رواه مسلم).

ثالثًا: الموضوع.

إن من أجل النعم التي أنعم الله (عز وجل) بها على الإنسان بعد نعمة الإيمان بالله سبحانه وتعالى نعمة الولد الذي به يُحفظ النسل ، وتُقر العين ، فالأطفال نعمة إلهية، وهبة ربانية، يختص الله بها من يشاء من عباده ، قال تعالى: { لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ}[الشورى: ٤٩، ٥٠] ، فبالأطفال تُملأ الحياة بهجة وسرورًا ، ويُبدل ظلام البيوت إلى ضياء ونور ، فهم مصابيح البيوت ، وقرة العيون، وفلذات الأكباد ، فهم زينة الحياة الدنيا ، كما قال ربنا في القرآن الكريم: {المال وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلا } [الكهف: ٤٦].

هذه النعمة العظيمة - نعمة الأطفال - تستوجب شكر الله (عز وجل) عليها ، قال الخليل إبراهيم (عليه السلام) بعد أن رزقه الله (عز وجل) بنعمة الولد : {الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاء* رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاء}[إبراهيم:٣٩،٤٠] فالشكر على النعم يحفظها ، قال تعالى :{ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ}[إبراهيم:٧] ، وتستلزم الاهتمام بها حتى ينشأ جيل يعرف حقوق الله (عز وجل) وحقوق الوالدين والوطن والمجتمع.

ولقد اعتنى الإسلام عناية فائقةً بالأطفال وتربيتهم تربيةً تحقق للأبناء وللآباء سعادةً في الدنيا والآخرة ، فاعتنى الإسلام بالطفل قبل أن يأتي للحياة فأمر راغبي الزواج بالانتقاء واختيار الزوجة الصالحة ، لأنّ البيوت إذا شاع فيها جوُّ الإيمان انعكست آثاره على أهله خيرًا وبرًا، وسعادةً وهناءً ، وهذا ما أشار إليه الرسول (صلى الله عليه وسلم) حين قال : (... فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ) (صحيح مسلم) ، وكان اهتمام الإسلام بالطفولة قبل ظهور المنظمات الدولية التي تهتم بشأن الطفولة ، وذلك لأهمية هذه المرحلة الخطيرة والحرجة في حياة الإنسان ، فالطفولة مرحلة أساسية يعبر بها كل إنسان إلى مرحلة النضج والرشد ، فاعتنى الإسلام بالأطفال حتى يكونوا إضافة إيجابية وعنصراً فاعلا في المجتمع ، فشرع لهم الكثير من الأحكام التي تعود على الولد والأسرة ثم المجتمع بالنفع والفائدة.

واهتمام الإسلام بالطفولة بدأ من مرحلة كونه جنينا في بطن أمه ، فشرع له من الأحكام والتشريعات ما يكفل له حقه ، ويحافظ على آدميته واحترامه ، في عناية فائقة ورعاية شاملة، فهذه المرحلة هي نقطة البدء ، التي تستحق العناية والاهتمام ، ومن ثمّ ضمن له حق الحياة وهو في بطن أمّه ، فحرّم الإجهاض عمدًا ، وأوجب رعاية الحامل طيلة فترة حملها ، وأباح للمرأة الحامل الفطر في شهر رمضان إذا خافت على جنينها ، حتى ينمو الجنين نموا طبيعيا، فعَنْ أَنَسٍ (رضي الله عنه) أن

النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ عَنْ الْمُسَافِرِ نِصْفَ الصَّلَاةِ وَالصَّوْمَ وَعَنْ الْحُبْلَى وَالْمُرْضِعِ) (رواه النسائي).

كذلك من مظاهر عناية الإسلام بالطفل: اختيار أحسن الأسماء له ، فقد ألزم الآباء باختيار الأسماء الحسنة لأولادهم التي ينادون بها بين الناس ، فالاسم الحسن يبعث في النفس راحة وطمأنينة لا تتحقق مع الاسم السيئ ، فعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّكُمْ تُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَسْمَائِكُمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِكُمْ ، فَأَحْسِنُوا أَسْمَاءَكُمْ) (رواه أبو داوود)، فإذا ما أَهَلَّ المولود على أبويه فهما مأموران باختيار أحسن الأسماء له ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) : « الغُلامُ مُرْتَهَنٌ بعقيقته يُذْبَحُ عَنْهُ يَوْمَ السَّابِعِ، وَيُسَمَّى، وَيُحْلَقُ رَأْسُهُ» [سنن الترمذي].

ولقد رغب النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) الأمة في أحسن الأسماء وأحبها إلى الله ، فعَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ (رضي الله عنهما) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (أَحَبُّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى عَبْدُ اللَّهِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ) (سنن أبي داود) وفي رواية الإمام مسلم ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (إِنَّ أَحَبَّ أَسْمَائِكُمْ إِلَى اللهِ عَبْدُ اللهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ) ، وكان (صلى الله عليه وسلم) ينهي عن تسمية الأبناء بأسماء قبيحة ، فقال: (لَا تُسَمِّ غُلَامَكَ رَبَاحًا، وَلَا يَسَارًا، وَلَا أَفْلَحَ، وَلَا نَافِعًا) (صحيح مسلم).

والعلة من النهي عن الأسماء القبيحة مراعاة الجانب النفسي عند الطفل ، حتى لا تسبب له أي نوع من أنواع الإيذاء النفسي ، جاء رجل إلى الفاروق عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يشكو إليه عقوق ابنه ، فأحضر عمر الولد وابنه ، وعاتبه على عقوقه لأبيه ، ونسيانه لحقوقه ، فقال الولد: يا أمير المؤمنين أليس للولد حقوق على أبيه ؟ قال : بلى ، قال : فما هي يا أمير المؤمنين؟ قال عمر: أن ينتقي أمه ، ويحسن أسمه ، ويعلمه الكتاب (أي القرآن) ، قال الولد : يا أمير المؤمنين إن أبي لم يفعل شيئاً من ذلك ، أما أمي فإنها زنجية كانت لمجوسي ، وقد سماني جُعلاً (أي: خنفساء) ، ولم يعلمني من الكتاب حرفاً واحداً ، فالتفت عمر إلى الرجل وقال له: جئت إلي تشكو عقوق ابنك ، وقد عققته قبل أن يعقك ، وأسأت إليه قبل أن يسيئ إليك . (تربية الأولاد في الإسلام)

قال سفيان الثوري: "حق الولد على الوالد أن يحسن اسمه، وأن يزوجه إذا بلغ، وأن يحسن أدبه " ، فإن حسن اختيار الاسم للولد يساعد على تنشئته في حياة كريمة فيبعد عنه السخرية والاستهزاء ، ويوفر له الراحة النفسية التي يحتاجها كلما ذُكر اسمه ، فالاسم هو عنوان الشخصية.

ومن مظاهر عناية الإسلام بالطفل: أن جعل رضاعته حقًا معلوما له ، قال تعالى: {وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى

الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [البقرة: ٢٣٣] ، ففي الآية الكريمة أمر للأمهات في صيغة خبر والمعنى: يا أيتها الوالدات أرضعن أولادكن حولين كاملين ، فالطفل في هذا السن يحتاج إلى نوعية معينة من الغذاء تساعد على بناء جسده ، ولا يكون أفضل من لبن أمه الذي هيأه ربنا لهذه المهمة وصدق الله حين قال: {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}[الملك:١٤]. أما إن كانت الأم لديها علة طبية مشروعة تمنع من الرضاعة ، أو امتنع الطفل من الرضاعة من الأم ، أو توفيت الأم فشريعة الإسلام أوجبت على والده إحضار مرضعة لهذا الطفل بأجرٍ سلامة له.

ولقد أثبتت بعض الدراسات الصحية والنفسية أن فترة رضاعة الطفل المقررة شرعا بحولين كاملين ضرورية لنمو الطفل نموا سليما من الناحيتين: الصحية والنفسية ، وتقوي شعور الطفل بالدفء والحنان والأمان وهو ملتصق بأمه مما يساعد على تنشئة الطفل تنشئة سوية ويحيا حياة كريمة.

ومن أسس التنشئة السوية للأطفال: **الإحسان إليهم وعدم الغلظة والشدّة معهم** ، فمن المقرر شرعا أن الرفق لا يأتي دائما إلا بكل خير ، فعن أم المؤمنين عَائِشَةَ (رضي الله عنها) أن النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي

عَلَى الْعُنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ) (صحيح مسلم) ، فالقسوة والغلظة في التربية وتقويم سلوكيات الطفل تؤدّيان في أغلب الأحوال إلى نفوره من المربّي ، وكرهه ، وعدم الانصياع لكلامه. وقد ورد في الأحاديث الشريفة أنه (صلى الله عليه وسلم) كان يحمل الحسن والحسين (رضوان الله عليهما)على كتفيه ويلاعبهما، وكان مبدأه (صلى الله عليه وسلم) في التربية هو اللين والرفق ، فعَنِ ابْنِ بُرَيْدَةَ ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عَلَى الْمِنْبَرِ يَخْطُبُ إِذْ أَقْبَلَ حَسَنٌ، وَحُسَيْنٌ، وَعَلَيْهِمَا قَمِيصَانِ أَحْمَرَانِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ فَنَزَلَ فَحَمَلَهُمَا وَقَالَ: (صَدَقَ اللهُ {إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ}[التغابن: ١٥] ، إِنِّي رَأَيْتُ هَذَيْنِ يَمْشِيَانِ، وَيَعْثُرَانِ فَلَمْ أَصْبِرْ حَتَّى نَزَلْتُ فَحَمَلْتُهُمَا) (سنن النسائي).

إن المربي الرفيق - والدا كان أو معلما - هو الذي يراعي هذا الأساس العظيم من أسس التربية وهو المعاملة برفق ولين ، ويبتعد عن الغلظة والقسوة ، ويعالج الأخطاء بحكمة ورحمة، فالقسوة تورث في قلب الطفل الخوف والجبن فضلا عن حالة من الاضطراب النفسي والخجل والتردد ، قال الأحنف بن قيس في إحدى نصائحه: لا تكن عليهم قُفلا فيتمنّوا موتك ويكرهوا قُربك ويملُّوا حياتك. إن التعامل بالرفق لا ينافي استعمال العقوبة عند الحاجة إليها ، لكن يجب أن نذكر أنّ العقوبة يجب أن تستعمل بحكمة ، فلا تكن على كل مخالفة يقوم بها.

كذلك من أسس التنشئة السوية للأطفال: **العدل والمساواة بينهم جميعاً** ، فالعدل بين جميع الخلق مبدأ إسلامي أصيل يجب مراعاته ، قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}[المائدة: ٨] ، وينبغي أن يطبق هذا المبدأ خاصة بين الرجل وأولاده .

وقد وجه النبي (صلى الله عليه وسلم) الآباء والأمهات لهذا المبدأ وضرورة الالتزام به ، بل وقرن الأمر به بالأمر بتقوى الله عز وجل ، فعَنْ عَامِرٍ ، قَالَ: سَمِعْتُ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) وَهُوَ عَلَى المِنْبَرِ يَقُولُ: أَعْطَانِي أَبِي عَطِيَّةً، فَقَالَتْ عَمْرَةُ بِنْتُ رَوَاحَةَ: لاَ أَرْضَى حَتَّى تُشْهِدَ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، فَقَالَ: إِنِّي أَعْطَيْتُ ابْنِي مِنْ عَمْرَةَ بِنْتِ رَوَاحَةَ عَطِيَّةً، فَأَمَرَتْنِي أَنْ أُشْهِدَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: (أَعْطَيْتَ سَائِرَ وَلَدِكَ مِثْلَ هَذَا؟) ، قَالَ: لاَ، قَالَ: (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلاَدِكُمْ)، قَالَ: فَرَجَعَ فَرَدَّ عَطِيَّتَهُ(صحيح البخاري) ، وروى عبدالرزاق في مصنفه أَنَّ النَّبِيَّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) دَعَاهُ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ ، فَجَاءَ ابْنٌ لَهُ فَقَبَّلَهُ وَضَمَّهُ وَأَجْلَسَهُ إِلَيْهِ ، ثُمَّ جَاءَتْهُ ابْنَةٌ لَهُ فَأَخَذَ بِيَدِهَا فَأَجْلَسَهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (لَوْ عَدَلْتَ كَانَ خَيْرًا لَكَ ، قَارِبُوا بَيْنَ أَبْنَائِكُمْ وَلَوْ فِي الْقُبَلِ).

فالعدل بين الأولاد له فوائد عظيمة ، فهو من أعظم أسباب الإعانة على البر ، ويساعد على تقديم جيل صالح سوي للمجتمع ، ويساعد على زرع الأخوة بمعناها ومبناها بين الإخوة.

وعلى النقيض نجد التفريق بين الأولاد من أعظم أسباب العقوق والهجر والكراهية ، ويكون سبباً في زرع الضغينة بين الأبناء .

وقد أثبتت بعض البحوث النفسية أنّ ظهور الإضرابات النفسية والاجتماعية على الطفل يرجع في أغلبها إلى إحساس الطفل بالظلم وعدم العدل مع أقرانه ، وليس أدل على ذلك من تصرف إخوة يوسف معه حين خُيل إليهم تفرقة في المعاملة من أبيهم يعقوب (عليه السلام) وتفضيله ليوسف (عليه السلام) عليهم ، قال تعالى: {لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ * إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ }[يوسف: ٧ ـ ٩].

كذلك من الأسس التي وضعها الإسلام لضمان تنشئة سوية للأطفال: **التربية والتوجيه على أسس شرعية** ، فلقد أمر القرآن الكريم الآباء والأمهات بضرورة العمل على وقاية النفس والأهل من الوقوع في التهلكة ، قال تعالى: { يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ}[التحريم: ٦] ، وتربية الطفل وتأديبه على أسس شرعية مطلب شرعي ، وهو أيضا حق من حقوق الولد على الوالد ، فعَنِ

ابْنِ عَبَّاسٍ (رضي الله عنهما)، أَنَّهُمْ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، قَدْ عَلِمْنَا حَقَّ الْوَالِدِ عَلَى الْوَلَدِ، فَمَا حَقُّ الْوَلَدِ عَلَى الْوَالِدِ؟ قَالَ: (أَنْ يُحْسِنَ اسْمَهُ، وَيُحْسِنَ أَدَبَهُ) (شعب الإيمان للبيهقي). وروى الترمذي في سننه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (مَا نَحَلَ وَالِدٌ وَلَدًا مِنْ نَحْلٍ أَفْضَلَ مِنْ أَدَبٍ حَسَنٍ).

فمن أهمّ أسس التنشئة السوية عند الأطفال توجيههم وتربيتهم تربية فاضلة ، وينبغي أن تكون التربية والتعليم باللُّطف ، دون إحراج خاصة أمام الآخرين ، وهذا ما كان يحرص عليه النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) في تربيته للأطفال ، فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ (رضي الله عنهما) قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَوْمًا، فَقَالَ: (يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ) (رواه الترمذي) .

وها هو النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) يربي ويوجه بأدب ورفق ضاربا أروع الأمثلة في توجيه الطفل وإرشاده ، فعن عُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ (رضي الله عنهما) قَالَ: كُنْتُ فِي حَجْرِ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وَكَانَتْ يَدِي تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ فَقَالَ لِي: (يَا غُلَامُ سَمِّ اللَّهَ وَكُلْ بِيَمِينِكَ وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ) (رواه مسلم). قال الإمام الغزالي (رحمه الله):

والصبي أمانة عند والديه ، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ، فإن عُود الخير وعلمه نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة.

ومن ثم ينبغي على المربي أن يكون قدوة لأولاده ، فيتحلى بمكارم الأخلاق قبل أن يأمرهم بها ، فإن الأبناء يقلدون الآباء.

ولله در من قال:

وينشأ ناشئ الفتيان منا   على ما كان عوده أبوه

جدير بالذكر أن تربية النشء ليست قاصرة على الوالدين فحسب، بل تشمل المعلم بالمدرسة ، فالمعلم يمثل قيم المجتمع وعليه مهمة تنشئة الأطفال تنشئة اجتماعية مرتبطة بقيم وتقاليد المجتمع الذي يعيشون فيه ، فإن الأطفال أمانة يتحمل المجتمع بأسره مسئولية رعايتهم، وحسن تربيتهم؛ وعلى الجميع أن يدرك عظم المسئولية الملقاة عليهم تجاه الأطفال، وليس أدل على ذلك من قوله (صلى الله عليه وسلم) : (كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ)، قَالَ الراوي: وَحَسِبْتُ أَنْ قَدْ قَالَ: (وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ) (صحيح البخاري) .

إن الإسلام يحمل الوالدين مسئولية حفظ الأبناء ، فعَنْ قَتَادَةَ، عَنِ الْحَسَنِ، أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (إِنَّ اللَّهَ سَائِلٌ كُلَّ رَاعٍ عَمَّا اسْتَرْعَاهُ، أَحَفَظَ أَمْ ضَيَّعَ، حَتَّى يَسْأَلَ الرَّجُلَ عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ) (رواه ابن

حبان). وعندما نظر إلى الطفل اعتبره إنسانا له كامل الحقوق الجسدية والنفسية والمالية والتعليمية والتربوية ، وأمر بالمحافظة عليها، يسعى بذلك لتحقيق حياة كريمة للأطفال ، حتى يكون المجتمع متحضرا ، تسوده روح الألفة والمودة والمحبة والرحمة.

* * *

نحو علاقات أسرية سوية مستقرة

أولا: العناصر:

١. منزلة الأسرة في الإسلام.

٢. منهج الإسلام في استقرار الأسرة :

أ- حسن الاختيار.

ب- رعاية الحقوق والواجبات.

ج - تحقيق المودة والرحمة.

د- المعاشرة بالمعروف.

هـ - العدل بين الأولاد.

٣. أثر استقرار الأسرة على المجتمع.

ثانيا: الأدلة:

من القرآن الكريم:

١.قال تعالى:{وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ }

[الروم: ٢١] .

٢.وقال تعالى : {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ} [النحل: ٧٢].

٣. وقال تعالى: {وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}[النور:٣٢].

٤. وقال تعالى:{وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [البقرة :٢٢٨].

٥. وقال تعالى:{وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا} [النساء : ١٩].

٦.وقال تعالى:{وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا} [النساء :٣٥].

٧.وقال تعالى:{لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا} [الطلاق: ٧] .

<u>من السنة النبوية:</u>

١. عن عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ) (متفق عليه).

٢. وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) عَنِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ : (تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا ، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ). (رواه البخاري).

٣. وعن أَنَس بن مَالِكٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قال : جَاءَ ثَلاَثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ

مِنَ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)؟ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلاَ أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلاَ أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: (أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي) (رواه البخاري).

٤. وعَنْ أَبِي حَاتِمٍ الْمُزَنِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ، إِلاَّ تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ؟ قَالَ: إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ، ثَلاَثَ مَرَّاتٍ. (رواه الترمذي). وفي سنن البيهقي: (إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ، إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ).

٥. وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) أَنَّهُ: سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَقُولُ: (كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالإِمَامُ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالخَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ)،قَالَ: فَسَمِعْتُ هَؤُلاَءِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، وَأَحْسِبُ النَّبِيَّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (وَالرَّجُلُ فِي مَالِ أَبِيهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ) (رواه البخاري).

٦. وعن أبي هريرة (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قال: قال رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خيرًا ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلْعِ أَعْلَاهُ ، إِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ ، اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا) (متفق عليه).

٧. وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَقُولُ: (كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ) (رواه أحمد) وفي رواية عند الحاكم في المستدرك: (كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَعُولُ).

ثالثا: الموضوع:

لقد عُني الإسلام بالأسرة واهتم بها اهتمامًا بالغًا ، لأنها اللبنة الأولى في بنيان المجتمع ، فبصلاحها يصلح المجتمع ، وبفسادها يفسد المجتمع ، لذلك وضع الإسلام للأسرة ضوابط ومعايير تنظم قيامها ، وتحرص على سلامتها واستقرارها ، حفاظاً على الإنسان والمجتمع ، لأن استقرار الأسرة هو استقرار للمجتمع .

وقد امتدتْ عناية الإسلام بالأسرة إلى مرحلة ما قبل تأسيسها بما يحقِّق التلاؤُم والانسجام، والتوادّ والتراحم بين جميع أفرادها ، ويُقَلِّل من دوافع الهدم والانهيار لبنيانها ، فقد حَثَّ الإسلام أتباعه على تكوين الأسرة بوسيلة مشروعة تتماشى مع الحفاظ على كرامة الإنسان وحفظ آدميته وتتوافق مع فطرته السوية ، ألا وهي الزواج ، إحدى سُنَن الله (عز وجل) في الخلق كله، قال تعالى:{وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ

تَذَكَّرُونَ} [الذاريات: ٤٩]، ويقول سبحانه:{سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ} [يس: ٣٦]. فالزواج سُنَّة كونيَّة ، جعله ربنا سبحانه دليلا على عظيم قدرته ، وآية باهرة من آياته في خلقه ، فقال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [الروم: ٢١].

كما رغب الإسلام في تكوين الأسرة واستقرارها إعمارًا للأرض ، وتحقيقًا لمصلحة المجتمع وبناء الوطن ، ووصولاً إلى الغايات السامية المتمثلة في : نشر العفة والفضيلة ، وحماية المجتمع من كل مظاهر الفسق والرزيلة ، وترابط الأسر فيما بينها بالمصاهرة ، وغير ذلك من الحكم والغايات النبيلة ، يقول الحق سبحانه:{وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ }[النور : ٣٢ – ٣٣]. بل إن النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) حثَّ الشبابَ على تحقيق سنة الزواج مبينًا منافعه وفوائده ، حيث قال(صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ) (متفق عليه).

وفي المقابل نهى الإسلام عن كل الأمور التي تتعارض مع عمارة الكون ، ومنها التبتل والانقطاع عن النساء ، فقد منعه الرسول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ونهى عنه ، قال سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ(رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ): (رَدَّ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عَلَى عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ التَّبَتُّلَ ، وَلَوْ أَذِنَ لَهُ لاَخْتَصَيْنَا) (رواه البخاري) ، وعن أَنَس بن مَالِكٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قال : جَاءَ ثَلاَثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ؟ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلاَ أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلاَ أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: (أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي) (رواه البخاري).

ولمَّا كان الاستقرار الأسري- بكل ما تحمله الكلمة من معنى للهدوء والسكون والطمأنينة – مطلبًا شرعيًّا ودنيويًّا منشودًا وضع الإسلام أسسًا شرعية سليمة ومنهجاً قويمًا ، حتى تدوم العشرة والألفة بين الزوجين ، ويتحقق الاستقرار ، من أهم هذه الأسس:

* **الاختيار الصحيح لكل من الزوجين للآخر** ، فقد أوصى النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عند اختيار الزوج لزوجه بحسن الاختيار ، لأنها

المربية الصالحة ، المحافظة على ماله وعرضه ، وهي خير متاع الدنيا ، فعن عبد اللهِ بن عمرٍو (رضي الله عنهما) قال: قال رسولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم):(الدُّنْيَا مَتَاعٌ ، وَخَيْرُ مَتَاعِهَا المَرْأَةُ الصَّالِحَةُ) ، فعندما تُبنى الأسر على حسن الاختيار يتحقق السكن والاستقرار ، والودّ المتصل ، والتراحم المتبادل ، حينئذ يكون الزواج أشرف النعم، وأبركها أثرًا.

ولابد وأن يكون ذلك الاختيار على أساس من الدين والخلق ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) عَنِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (تُنْكَحُ المَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ : لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا ، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ، تَرِبَتْ يَدَاكَ) (رواه البخاري). وفي رواية عند الإمام أحمد عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ عَلَى إِحْدَى خِصَالٍ ثَلَاثٍ: تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ عَلَى مَالِهَا، وَتُنْكَحُ الْمَرْأَةُ عَلَى جَمَالِهَا، وَتُنْكَحُ الْمَرْأَةُ عَلَى دِينِهَا، فَخُذْ ذَاتَ الدِّينِ وَالْخُلُقِ تَرِبَتْ يَمِينُكَ) (رواه أحمد).

فالزوجة لها دور عظيم في رعاية الأسرة ، فبصلاحها تستقر الأسرة ، بل يستقر المجتمع كله، وبفسادها تنهار الأسرة.

يقول الشاعر :

الأمُّ مدرســةٌ إذا أعدَدْتَها ــــا   أعددْتَ شــعباً طيبَ الأعــراق

كذلك أوصى النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عند اختيار الزوجة لزوجها بأن يكون الاختيار على أساس الدين والخلق ، فعَنْ أَبِي حَاتِمٍ الْمُزَنِيِّ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ):

(إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ، إِلاَّ تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ)، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ؟ قَالَ: (إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ ، ثَلاَثَ مَرَّاتٍ) (رواه الترمذي). فجعل النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) الدين والخلق أهم صفات الزوج الصالح ، ومن ثم فالاختيار الصحيح على أساس الدين يحقق للأسرة الاستقرار الذي يؤدي إلى تقدم المجتمع.

* **وكذلك من أسس استقرار الأسرة : أن يراعي كل فرد من أفرادها ما له من حقوق وما عليه من واجبات** ، فقد جعل الإسلام لكل من الزوجين على الآخر حقوقًا تتساوى مع ما عليه من واجبات ، قال تعالى: {وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [سورة البقرة : ١٢٨] فلا يطلب أي فرد من أفراد الأسرة بحقٍّ قبل أن يؤدي ما عليه من واجب ، حتى تتحقق المودة والرحمة والسكينة التي تجعل الأسرة مستقرة.

ولقد وضح الإسلام هذه الحقوق والواجبات ، وقسمها بين جميع أفراد الأسرة ، وألزم جميع أفرادها بضرورة المحافظة عليها ، فمنها الحقوق المادية ، ومنها الحقوق المعنوية والتربوية ، ومنها المشاركة البناءة في أداء المسئوليات ، وضرورة التعاون المشترك بين جميع أفراد الأسرة في أعباء الحياة ومتطلباتها ، ففي الحديث عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) أَنَّهُ: سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَقُولُ: (كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالإِمَامُ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ،

وَالرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالخَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ)، قَالَ: فَسَمِعْتُ هَؤُلاَءِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، وَأَحْسِبُ النَّبِيَّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (وَالرَّجُلُ فِي مَالِ أَبِيهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ) (رواه البخاري) ، وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَقُولُ: (كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ) (رواه أحمد) .

ولقد سأل أحد الصحابة رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا حَقُّ زَوْجَةِ أَحَدِنَا عَلَيْهِ؟، قَالَ: (أَنْ تُطْعِمَهَا إِذَا طَعِمْتَ ، وَتَكْسُوَهَا إِذَا اكْتَسَيْتَ، أَوِ اكْتَسَبْتَ ، وَلَا تَضْرِبِ الْوَجْهَ، وَلَا تُقَبِّحْ، وَلَا تَهْجُرْ إِلَّا فِي الْبَيْتِ) (سنن أَبي داود).

وها هي أَسْمَاء بِنْت يَزِيد الْأَنْصَارِيَّةِ تسأل رسول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فتقول : (... إِنَّا مَعْشَرَ النِّسَاءِ مَحْصُورَاتٌ مَقْصُورَاتٌ ، قَوَاعِدُ بُيُوتِكُمْ، وَمَقْضَى شَهَوَاتِكُمْ ، وَحَامِلَاتُ أَوْلَادِكُمْ ، وَإِنَّكُمْ مَعَاشِرَ الرِّجَالِ فُضِّلْتُمْ عَلَيْنَا بِالْجُمُعَةِ وَالْجَمَاعَاتِ ، وَعِيَادَةِ الْمَرْضَى ، وَشُهُودِ الْجَنَائِزِ، وَالْحَجِّ بَعْدَ الْحَجِّ، وَأَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ إِذَا أُخْرِجَ حَاجًّا أَوْ مُعْتَمِرًا وَمُرَابِطًا حَفِظْنَا لَكُمْ أَمْوَالَكُمْ ، وَغَزَلْنَا لَكُمْ أَثْوَابًا، وَرَبَّيْنَا لَكُمْ أَوْلَادَكُمْ، فَمَا نُشَارِكُكُمْ فِي الْأَجْرِ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: فَالْتَفَتَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إِلَى أَصْحَابِهِ بِوَجْهِهِ كُلِّهِ، ثُمَّ قَالَ:" هَلْ

سَمِعْتُمْ مَقَالَةَ امْرَأَةٍ قَطُّ أَحْسَنَ مِنْ مَسْأَلَتِهَا فِي أَمْرِ دِينِهَا مِنْ هَذِهِ؟ " فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ ، مَا ظَنَنَّا أَنَّ امْرَأَةً تَهْتَدِي إِلَى مِثْلِ هَذَا، فَالْتَفَتَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إِلَيْهَا، ثُمَّ قَالَ لَهَا: (انْصَرِفِي أَيَّتُهَا الْمَرْأَةُ ، وَأَعْلِمِي مَنْ خَلْفَكِ مِنَ النِّسَاءِ أَنَّ حُسْنَ تَبَعُّلِ إِحْدَاكُنَّ لِزَوْجِهَا، وَطَلَبَهَا مَرْضَاتِهِ، وَاتِّبَاعَهَا مُوَافَقَتَهُ تَعْدِلُ ذَلِكَ كُلَّهُ) ، قَالَ: فَأَدْبَرَتِ الْمَرْأَةُ وَهِيَ تُهَلِّلُ وَتُكَبِّرُ اسْتِبْشَارًا) (شعب الإيمان).

ومن ثمّ فإن نجاح الأسرة المسلمة واستقرارها مرهون بالمحافظة على الحقوق والواجبات بين جميع أفرادها ، وتجنب تجاهلها أو التفريط فيها.

* **ومن الأمور التي تساعد على استقرار الأسرة : انتشار الرحمة بين أفرادها** ، فإن الرحمة من أهم دعائم البيت السعيد ، وأساس متين لأي أسرة ناجحة ، وهي من القيم التي ينبغي لكلا الزوجين أن يتحلى بها في علاقته مع الآخر حتى تنعم الأسرة بالسكينة والمودة والاستقرار ، قال سبحانه : {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُم أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}[الروم:٢١]. فالتراحم بين جميع أفراد المجتمع مرهون بتحقيقه في الأسرة. ولنا في رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الأسوة الحسنة ، فقد كان (صلى الله عليه وسلم) أنموذجًا في الرحمة بأهل بيته كلهم على السواء ، أزواجه وأولاده وحتى أحفاده وخادمه، فكان (صلى الله عليه وسلم)خير الناس لأهله.

فالرحمة إذا نُزعت من البيت كانت الحياة الأسرية شقاء ودمارًا، فينبغي على كل أفراد الأسرة العمل بجدية على تحقيق الرحمة.

* **وكذلك من أسس استقرار الأسرة : المعاشرة بالمعروف** ، وهذا ما أمرنا به ربنا سبحانه وتعالى ، وأوصانا به نبينا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فقال تعالى :{وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا}[سورة النساء: ١٩] ، فكل من الزوجين مطالب بإحسان الصلة بالآخر حتى يسود الأسرة جو من المودَّةِ والتعاون يتحقق معه مقصد هذه العلاقة ، قال تعالى: {هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ}[البقرة: ١٨٧] ، وقال سبحانه: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً}[الروم:٢١]، وقال سبحانه: {وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا} [الأعراف: ١٨٩].

ومما تتم به المعاشرة الحسنة: الكلمة الطيبة ، والفعل المحمود ، والتسامح ، والتعاون ، والاحترام ، والتشاور ، وحفظ الأسرار ، واجتناب دواعي النزاع والشقاق ، وسائر الخصال الحميدة.

ولقد ضرب لنا النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وأصحابه الكرام (رضوان الله عليهم) أعظم الأمثلة في حسن العشرة ، ففي حديث الأَسْوَدِ ، قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ (رضي الله عنها) مَا كَانَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَصْنَعُ فِي بَيْتِهِ؟ قَالَتْ: (كَانَ يَكُونُ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ – تَعْنِي خِدْمَةَ أَهْلِهِ – فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلاَةُ خَرَجَ إِلَى الصَّلاَةِ) (صحيح البخاري) ، وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ (رضي الله عنهما) قَالَ: إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَتَزَيَّنَ لِلْمَرْأَةِ ، كَمَا

أُحِبُّ أَنْ تَتَزَيَّنَ لِي الْمَرْأَةُ ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: {وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ} [البقرة: ٢٢٨] ، وَمَا أُحِبُّ أَنْ أَسْتَنْظِفَ جَمِيعَ حَقِّي عَلَيْهَا ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ:{وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ}[البقرة: ٢٢٨] (المصنف لابن أبي شيبة).

ومن معاني حسن العشرة بين الزوجين: عدم إثقال أحد الزوجين كاهل شريكه بالمشاكل التي يعاني منها الآخر ، فحسن العشرة كلمة جامعة تضم كل معاني الخير للحياة الزوجية الطيبة ، والإسلام يحرص كل الحرص على أن تقوم الرابطة الزوجية على المحبة ، والتفاهم والانسجام ، وهذه هي أهم خطوة في إصلاح المجتمع.

* **ومن الأمور التي تساعد على استقرار الأسرة : مشاورة كل من الزوجين للآخر** ، فالتشاور بين الزوجين يزيد الألفة والمحبة بينهما ، حتى في مسألة قد تبدو أمام البعض صغيرة وهي مسألة فطام الرضيع قبل عامين ، قال تعالى:{فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَليهِمَا}[البقرة:٢٣٣] ، فالشورى بين الزوجين ، بل بين جميع أفراد الأسرة تمثل منهج حياة في ديننا الإسلامي، والأمر بها ورد بصيغة العموم في كتاب الله عز وجل ، قال سبحانه:{وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ}[سورة الشورى:٣٩] ، وهذا ما طبقه الرسول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عمليًّا ، وفي السنة النبوية مواقفُ عدة لمشاورته (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) لبعض أزواجه ، منها : ما حدث بينه (صلى الله عليه وسلم) وبين زوجه السيدة أم سلمة (رضوان

الله تعالى عليها) يوم الحديبية ، فبعد أن انتهى النبي (صلى الله عليه وسلم) من إبرام عهد الصلح بينه وبين أهل مكة قَالَ لأَصْحَابِهِ: (قُومُوا فَانْحَرُوا ثُمَّ احْلِقُوا) ، قَالَ راوي الحديث: فَوَ اللَّهِ مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ دَخَلَ (صلى الله عليه وسلم) عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ ، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ : يَا نَبِيَّ اللهِ أَتُحِبُّ ذَلِكَ ؟ اخْرُجْ ثُمَّ لاَ تُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ، فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ نَحَرَ بُدْنَهُ وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا فَنَحَرُوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا) (صحيح البخاري). قال الحسن البصري (رضي الله عنه): إنْ كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لفي غنى عن مشورة أم سلمة ، ولكنه أحبّ أن يقتدي الناس في ذلك ، وأن لا يشعر الرجل بأي غضاضة في مشاورة النساء.

* **كذلك من أسس استقرار الأسرة : النفقة على جميع أفرادها ،**

فهي حق من الحقوق التي أوجبها الإسلام على الراعي ، قال تعالى: {الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ}[النساء:٣٤] ، وقال تعالى: {وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ}[البقرة : ٢٣٣] ، وقال تعالى:{لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا} [الطلاق : ٧].

* **ومن الأمور التي تساعد على استقرار الأسرة : تحقيق العدل بين جميع أفرادها** ، فحسن التربية الدينية للأبناء ، وتعليمهم شعائر الدين ، والعدل بينهم عامل أساسي في استقرار الأسرة ، فقد حذر النبي (صلى الله عليه وسلم) من التفريق بين الأبناء في المعاملة ، حفاظًا على الترابط الأسري ، والتآلف بين جميع أفرادها ، فعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) قَالَ: (تَصَدَّقَ عَلَيَّ أَبِي بِبَعْضِ مَالِهِ، فَقَالَتْ أُمِّي عَمْرَةُ بِنْتُ رَوَاحَةَ: لَا أَرْضَى حَتَّى تُشْهِدَ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، فَانْطَلَقَ أَبِي إِلَى النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) لِيُشْهِدَهُ عَلَى صَدَقَتِي، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (أَفَعَلْتَ هَذَا بِوَلَدِكَ كُلِّهِمْ؟) قَالَ: لَا، قَالَ: (اتَّقُوا اللهَ وَاعْدِلُوا فِي أَوْلَادِكُمْ)، فَرَجَعَ أَبِي، فَرَدَّ تِلْكَ الصَّدَقَةَ) (رواه مسلم).

إن الإسلام قد نظر إلى الأسرة نظرة تقدير واحترام ، فهي في نظره رباط مقدَّس له غايات سامية ، حرص الإسلام على إبقائه قوياً متماسكاً ، يحقِّق أهدافه ويصمد أمام الشدائد والمحن ، ولهذا أَوْلَاها الإسلام عناية فائقة بجملة من الآداب من أجل أن يكون البناءُ متماسكًا قويًّا ، يحافظ على استقرار المجتمع وحمايته من كل مظاهر التطرف والتشدد والعدوان، فاهتم الإسلام بالأسرة وأسس لاستقرارها ، تحقيقًا للترابط بين أفراد الأمة ، وتحقيقًا للتقدم والرخاء .

وإذا استقرت الأسرة شعر جميع أفرادها بالأمن في جميع صوره ـ النفسي والبدني والاجتماعي والاقتصادي ـ مما ينعكس ذلك على أمن

المجتمع وسلامته ، فالإسلام اعتبر أن استقرار الأسرة وسيلة فعّالة لتحقيق الأمن المجتمعي من الفساد و الفوضى، فبداية الأمن المجتمعي من الأسرة أولا، ثم المدرسة، ثم المجتمع.

فالأسرة هي المدرسة الأولى التي يتعلم فيها الطفل الحق والباطل، والخير والشر، ويتعلم تحمل المسئولية، وحرية الرأي، وفي الأسرة تتحدد عناصر شخصية الطفل، وتتميز ملامح هويته، ومن ثم يكون مواطنا صالحا في مجتمع صالح.

فالأمن لا يُفرض بالقوة فحسب ، وإنما ينبع من أفراد المجتمع، من خلال ضمائرهم، وللأسرة الدور الرئيسي في تكوين الضمير وتنشئته في نفوس أفرادها.



الزكاة وأثرها في تحقيق التكافل الاجتماعي

أولا: العناصر:

١. منزلة الزكاة وأهميتها في الشريعة الإسلامية.

٢. الحكمة من مشروعية الزكاة.

٣. الزكاة وتحقيق مبدأ التكافل الاجتماعي.

٤. أثر التكافل في استقرار المجتمع.

ثانيا: الأدلة:

الأدلة من القرآن الكريم:

١. قال تعالى:{إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [التوبة: ٦٠].

٢. وقال تعالى:{خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [التوبة: ١٠٣].

٣. وقال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ} [البقرة: ٢٦٧].

٤. وقال تعالى:{الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة: ٢٧٤].

٥. وقال تعالى:{وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ} [الذاريات: ١٩].

٦. وقال تعالى:{وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [سورة المائدة].

الأدلة من السنة النبوية:

١. عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ (رضي الله عنهما) قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِى تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى) (رواه مسلم).

٢. وعَنْ أَبِي مُوسَى (رضي الله عنه) عَنِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ :(إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ)(رواه البخاري).

٣. وعَنِ ابْنِ عُمَرَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَحَجِّ الْبَيْتِ وَصَوْمِ رَمَضَانَ) (متفق عليه).

٤. وعن ابن عباس (رضي الله عنهما) أن النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بعث معاذًا (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) إلى اليمن فقال له: (إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، فَإِنْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً فِي أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ وَتُرَدُّ فِي

فُقَرَائِهِمْ ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حِجَابٌ) (مسند أحمد).

٥. وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) عَنِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: (بَيْنَا رَجُلٌ بِفَلاَةٍ مِنَ الأَرْضِ فَسَمِعَ صَوْتًا فِي سَحَابَةٍ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلاَنٍ، فَتَنَحَّى ذَلِكَ السَّحَابُ فَأَفْرَغَ مَاءَهُ فِي حَرَّةٍ فَإِذَا شَرْجَةٌ مِنْ تِلْكَ الشِّرَاجِ قَدِ اسْتَوْعَبَتْ ذَلِكَ الْمَاءَ كُلَّهُ فَتَتَبَّعَ الْمَاءَ فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ فِي حَدِيقَتِهِ يُحَوِّلُ الْمَاءَ بِمِسْحَاتِهِ ، فَقَالَ لَهُ يَا عَبْدَ اللَّهِ مَا اسْمُكَ؟ قَالَ فُلاَنٌ، لِلاِسْمِ الَّذِى سَمِعَ فِي السَّحَابَةِ ، فَقَالَ لَهُ يَا عَبْدَ اللَّهِ لِمَ تَسْأَلُنِي عَنِ اسْمِى؟ فَقَالَ: إِنِّى سَمِعْتُ صَوْتًا فِى السَّحَابِ الَّذِى هَذَا مَاؤُهُ يَقُولُ اسْقِ حَدِيقَةَ فُلاَنٍ لاِسْمِكَ، فَمَا تَصْنَعُ فِيهَا قَالَ: أَمَّا إِذَا قُلْتَ هَذَا فَإِنِّي أَنْظُرُ إِلَى مَا يَخْرُجُ مِنْهَا فَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثِهِ ، وَآكُلُ أَنَا وَعِيَالِي ثُلُثًا، وَأَرُدُّ فِيهَا ثُلُثَهُ) (رواه مسلم).

٦. وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أَنَّ رَسُولَ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ :(قَالَ اللَّهُ أَنْفِقْ يَا ابْنَ آدَمَ أُنْفِقْ عَلَيْك)(رواه البخاري).

٧. وعن أبي هريرةَ (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (ما مِن يومٍ يصبِح العبادُ فيه إلا ملَكان ينزلان ، فيقول أحدُهما: اللّهمّ أعطِ منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللّهمّ أعطِ ممسكًا تلفًا) (متفق عليه).

٨. و عَنْ أَبِى ذَرٍّ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) : (تَبَسُّمُكَ فِى وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ وَأَمْرُكَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيُكَ

عَـنِ الْمُنْكَـرِ صَـدَقَةٌ وَإِرْشَـادُكَ الرَّجُـلَ فِـى أَرْضِ الضَّـلاَلِ لَـكَ صَـدَقَةٌ وَبَصَرُكَ لِلرَّجُلِ الرَّدِىءِ الْبَصَرِ لَكَ صَدَقَةٌ وَإِمَاطَتُكَ الْحَجَرَ وَالشَّوْكَةَ وَالْعَظْمَ عَنِ الطَّرِيقِ لَكَ صَدَقَةٌ وَإِفْرَاغُكَ مِنْ دَلْوِكَ فِى دَلْوِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ). (رواه الترمذي).

٩. وعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ أَنَّهُ سَمِعَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) قَالَ: (إِنَّ اللهَ فَرَضَ عَلَى الْأَغْنِيَاءِ فِي أَمْوَالِهِمْ بِقَدْرِ مَا يَكْفِي فُقَرَاءَهُمْ، فَـإِنْ جَـاعُوا وَعَـرُوا أَوْ جَهَـدُوا فَبِمَنْـعِ الْأَغْنِيَـاءِ، فَحَـقٌّ عَلَـى اللهِ أَنْ يُحَاسِبَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيُعَذِّبَهُمْ عَلَيْهِ) (رواه البخاري).

ثالثا: الموضوع

إن الإنسان مدني بطبعه ، لا يستطيع أن يعيش وحده منقطعًا في صحراء ، أو منعزلاً في كهف بل يعيش مع غيره في مجتمع واحد متماسك البنيان ، يتأثر به ويؤثر فيه، ويعطيه كما يأخذ منه، ولقد اعتنى الإسلام عناية فائقة بالمجتمع الإنساني عامة ، من حيث تكريمه للإنسان وتحريره، قال تعالى:{وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا} [الإسراء: ٧٠]. وعناية الإسلام بالفرد هي في الأصل عناية بالمجتمع كله ، فالإسلام بمبادئه السامية وتشريعاته العادلة وأنظمته المحكمة وتوجيهاته الصادقة حقق للمجتمع أرقى صور التكافل بمفهومه الشامل.

وإذا كان الإسلام قد اعتنى بالمجتمع عمومًا ، فإنه أعطى عناية خاصة بالفئات الضعيفة فيه ، فأمر بالإحسان إلى اليتامى والفقراء والمساكين وابن السبيل ، وحرص على أن تكون هذه الفئات سعيدة في

حياتها ، مطمئنة إلى أن معيشتها مكفولة ، وأن حقوقها في العيش الكريم مضمونة ، ومن هنا فرض الله سبحانه وتعالى الزكاة على عباده الأغنياء ، تؤخذ منهم وترد على فقرائهم.

إن الزكاة أحد أركان الإسلام ودعائمه ، فهي الركن الثالث من أركان الإسلام ، فعَنِ ابْنِ عُمَرَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم): (بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ، وَإِقَامِ الصَّلاَةِ ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَالْحَجِّ ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ) (رواه البخاري).

وقد دل على وجوبها الكتاب والسنة والإجماع ، قال تعالى :{وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ}[البقرة: ٤٣]. وقال تعالى :{وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}[الأنعام: ١٤١]. وقال تعالى:{إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [التوبة: ٦٠]. وعن ابن عباس (رضي الله عنهما) أن النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بعث معاذًا (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) إلى اليمن فقال له: (إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، فَإِنْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً فِي أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ وَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ ، فَإِنْ هُمْ

أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حِجَابٌ) (مسند أحمد)، وعن أبي هريرةَ (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (ما مِن يومٍ يصبِح العبادُ فيه إلا ملَكان ينزلان، فيقول أحدُهما: اللّهمّ أعطِ منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللّهمّ أعطِ ممسكا تلفًا) (متفق عليه).

وقد جاء الوعيد الشديد في حق من بخل بها أو قصر في إخراجها ، قال تعالى: {وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ}[التوبة: ٣٤ـ٣٥]. فكل مال لا تؤدى زكاته بعد وجوبها فيه فهو كنز يُعذَّبُ به صاحبه يوم القيامة.

ولأهمية الزكاة قرنها رب العزة (جل جلاله) بأعظم الفرائض وأجلها وأعلاها مكانة وهي الصلاة في القرآن الكريم في عشرات المواضع ، تعظيمًا لشأنها ، وتنويهًا بذكرها ، وترغيبًا في أدائها ، وترهيبًا من منعها، أو التساهل فيها ، وتعدد ذكرها في القرآن الكريم بأكثر من لفظ ، تارةً بلفظ الإنفاق ، وتارةً بلفظ الزكاة ، وثالثةً بلفظ الصدقة ، ففي مطلع سورة البقرة يصف الله المتقين الذين ينتفعون بهدي كتابه فيقول :{الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} [البقرة:٣] .

وفي موضع آخرَ من نفس السورة يقول سبحانه : { وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللّهِ إِنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }[البقرة: ١١٠]. ويقول سبحانه لحبيبه ومصطفاه (صلى الله عليه وسلم):{خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [التوبة: ١٠٣].

وتمتاز فريضة الزكاة بمكانة رفيعة في الإسلام ، فمع أنها تُعد أحد أركان الدين ودعائمه فهي الفريضة التي تساعد في تحقيق التكافل الاجتماعي بين جميع أبناء المجتمع ، فهي لا تقدم طواعية من الأغنياء والقادرين ، بل تقدم على سبيل الإلزام من أجل تحقيق التكافل بين أفراد الأمة الواحدة ، لقوله تعالى :{خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [التوبة: ١٠٣].

والحكمة من مشروعية الزكاة هي تطهير النفس المسلمة من رذيلة البخل والشح والشره والطمع ورفع الدرجات ومواساة الفقراء وسد حاجات المعوزين والبؤساء والمحرومين وطهرة للمال من الخبث وتنميته وحفظه من الآفات . فالزكاة المفروضة ليست في الإسلام نظام جباية ، بل لتحقيق مبدأ التكافل، وغرس مشاعر الحنان والرأفة وتوطيد العلاقات ، وتحقيق الألفة بين شتى الطبقات.

ولقد نص القرآن على الغاية من إخراج الزكاة بقوله: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [التوبة: ١٠٣]، ويقول سبحانه: {وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ

فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }[الحشر: ٩]. وفي الحديث : عَنْ أَنَسٍ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ: شُحٌّ مُطَاعٌ ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ)

(رواه البيهقي في شعب الإيمان).

وفي الجانب الآخر شرعت الزكاة طهارة لنفس الفقير من الحقد والحسد والضغينة، فتطهير النفس والتسامي بالمجتمع إلى مستوى أنبل هو الحكمة الأولى، ومن أجل ذلك وسع النبي (صلى الله عليه وسلم) فى دلالة كلمة الصدقة التي ينبغي أن يبذلها المسلم ، فعَنْ أَبِى ذَرٍّ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) :(تَبَسُّمُكَ فِى وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ وَأَمْرُكَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيُكَ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ وَإِرْشَادُكَ الرَّجُلَ فِى أَرْضِ الضَّلاَلِ لَكَ صَدَقَةٌ وَبَصَرُكَ لِلرَّجُلِ الرَّدِىءِ الْبَصَرِ لَكَ صَدَقَةٌ وَإِمَاطَتُكَ الْحَجَرَ وَالشَّوْكَةَ وَالْعَظْمَ عَنِ الطَّرِيقِ لَكَ صَدَقَةٌ وَإِفْرَاغُكَ مِنْ دَلْوِكَ فِى دَلْوِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ). (رواه الترمذي).

فالزكاة تطهير للنفس البشرية ، وهي سبب لنماء المال وبركته ، وهذه حقيقة لا مرية فيها ، أكدها الكتاب العزيز ، والسنة النبوية المطهرة ، يقول تعالى: {وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} [سبأ: ٣٩] ، وفي الحديث عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قال : (مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عبدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا ، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ). (رواه مسلم في صحيحه). وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) عَنِ النَّبِىِّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: (بَيْنَا رَجُلٌ

بِفَلاَةٍ مِنَ الأَرْضِ فَسَمِعَ صَوْتًا فِى سَحَابَةٍ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلاَنٍ، فَتَنَحَّى ذَلِكَ السَّحَابُ فَأَفْرَغَ مَاءَهُ فِى حَرَّةٍ فَإِذَا شَرْجَةٌ مِنْ تِلْكَ الشِّرَاجِ قَدِ اسْتَوْعَبَتْ ذَلِكَ الْمَاءَ كُلَّهُ فَتَتَبَّعَ الْمَاءَ فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ فِى حَدِيقَتِهِ يُحَوِّلُ الْمَاءَ بِمِسْحَاتِهِ، فَقَالَ لَهُ يَا عَبْدَ اللَّهِ مَا اسْمُكَ؟ قَالَ فُلاَنٌ، لِلاِسْمِ الَّذِى سَمِعَ فِى السَّحَابَةِ، فَقَالَ لَهُ يَا عَبْدَ اللَّهِ لِمَ تَسْأَلُنِي عَنِ اسْمِى؟ فَقَالَ: إِنِّى سَمِعْتُ صَوْتًا فِى السَّحَابِ الَّذِى هَذَا مَاؤُهُ يَقُولُ اسْقِ حَدِيقَةَ فُلاَنٍ لاِسْمِكَ، فَمَا تَصْنَعُ فِيهَا قَالَ: أَمَّا إِذَا قُلْتَ هَذَا فَإِنِّي أَنْظُرُ إِلَى مَا يَخْرُجُ مِنْهَا فَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثِهِ ، وَآكُلُ أَنَا وَعِيَالِي ثُلُثًا، وَأَرُدُّ فِيهَا ثُلُثَهُ) (رواه مسلم في صحيحه).

إن الزكاة لها فضائل مهمة ، وآثار اجتماعية عظيمة تتمثل في سدّ حاجة الفقراء ورفع الفقر عنهم ، ونشر المحبة بين أفراد المجتمع المسلم ، و تقوية أواصر المحبة والتراحم بينهم ، ومن ثمَّ رغَّب الله في أدائها ، وأثنى على المزكِّين والمتصدقين بالفلَاح والنجاح في الدنيا والآخرة ، فقال تعالى:{قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ} [المؤمنون:١– ٤]، ثمَّ وَعَدَهُم وِراثة الفِرْدَوس الأَعْلَى ، فقال تعالى: {أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}

[المؤمنون:١٠– ١١].

ولم تعرف الإنسانية نظامًا اهتم بالزكاة والصدقة مثلما اهتم بها الإسلام ، وفي كتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) آياتٌ وحِكَمٌ تبين كيف يريد الإسلام تعميمَ الخير وإشاعةَ النعمة ، ومطاردةَ البأساء

والضراء ، ورسم بسمة الرضا على كل وجه ، ومن هنا تأتي أهمية الزكاة من حيث شمولها لمعظم أفراد المجتمع ، وباعتبارها المنبع الأساسي الأوّل لتغطية جانب التكافل والتعاون ، والترابط بين أفراد المجتمع الإسلامي ، تلك المعاني التي أمر بها القرآن الكريم ، قال تعالى :{وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} قال الإمام القرطبي : هو أَمْرٌ لجميع الخَلْقِ بالتعاون على البِرِّ والتقوى ، أي لِيُعِن بعضكم بعضًا . وقال الماوردي: ندب الله سبحانه إلى التعاون بالبِرّ وقَرَنَه بالتقوى له؛ لأن في التقوى رضا الله تعالى، وفي البرِّ رضا الناس، ومَنْ جَمَعَ بين رضا الله تعالى ورضا الناس فقد تمَّت سعادته وعمّت نعمته.

وقال تعالى:{لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}(البقرة: ١٧٧) ، فالنصوص السابقة تحث أصحاب الأموال وتذكرهم بأن لهم إخواناً من الأقارب واليتامى والمساكين والسائلين وفي الرقاب كل أولئك بحاجة ماسة إلى مدِّ يدِ العون لهم ليعيشوا حياة ناعمة في ظلال الإسلام الوارفة .

وتبين الآيات أن أصحاب الأموال إذا فعلوا ذلك فهم يحققون دعوة الإسلام التي جاء بها لتحقيق التكافل العام بين جميع أفراد الأمة وأبناء المجتمع ، ليعيش الجميع حياة آمنة هادئة ينعمون فيها بالأمن والرخاء ، والتعاون الصادق في ظل العقيدة الإسلامية السمحة .

فشريعة الإسلام تفرض على أتباعها أن يَسُود بينهم التعاون والتكافل والتآزر في المشاعر والأحاسيس، فضلاً عن التكافل في الحاجات والمادِّيات ، حتى يكون المسلمون كالبنيان المرصوص يشدُّ بعضه بعضًا كما أخبرنا النبي (صلى الله عليه وسلم) فعن أَبِي مُوسَى (رضي الله عنه) عَنِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ : (إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ)(رواه البخاري). أو كالجسد الواحد الذي إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر، فعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ (رضي الله عنهما) قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِى تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى) (رواه مسلم).

وعَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِىِّ (رضي الله عنه) قَالَ بَيْنَمَا نَحْنُ فِى سَفَرٍ مَعَ النَّبِىِّ (صلى الله عليه وسلم) إِذْ جَاءَ رَجُلٌ عَلَى رَاحِلَةٍ لَهُ قَالَ : فَجَعَلَ يَصْرِفُ بَصَرَهُ يَمِينًا وَشِمَالاً ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لاَ ظَهْرَ لَهُ ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ

مِنْ زَادٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لاَ زَادَ لَهُ). قَالَ: فَذَكَرَ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ مَا ذَكَرَ حَتَّى رَأَيْنَا أَنَّهُ لاَ حَقَّ لأَحَدٍ مِنَّا فِي فَضْلٍ) (رواه مسلم).

هذه التوجيهات النبوية الصادقة التي تحث على التوادد والتراحم والتعاون وتؤكد على إعطاء فضل ما زاد عن ضرورات الإنسان المؤمن لهي أكبر دليل على حرص النبي (صلى الله عليه وسلم) على إيجاد مجتمع متكافل متوازن تسوده المحبة والإخاء ، ويهيمن عليه الإخلاص والوفاء ، ولقد تحقق للرسول (صلوات الله وسلامه عليه) ما أراد إذ تمثلت كل الصفات الحميدة والأخلاق الفاضلة في الرعيل الأول الذين تخرجوا من مدرسة النبوة وتربوا على يد هادي البشرية (صلى الله عليه وسلم).

والتكافل في الإسلام ليس مقصورًا على النفع المادِّي فحسب ، وإن كان ذلك ركنًا أساسيًّا فيه، بل يتجاوزه إلى جميع حاجات المجتمع ، أفرادًا وجماعات ؛ مادِّيَّةً كانت تلك الحاجة أو معنوية أو فكرية، على أوسع مدى لهذه المفاهيم ؛ فهي بذلك تتضمن جميع الحقوق الأساسية للأفراد والجماعات داخل الأُمّة.

إن تعاليم الإسلام كلها تؤكِّد التكافل بمفهومه الشامل بين المسلمين ؛ ولذلك تجد المجتمع الإسلامي لا يَعْرِف فردية أو أنانية أو سلبية، وإنما يعرف إخاءً صادقًا ، وعطاء كريمًا ، وتعاونًا على البِرِّ والتقوى دائمًا ، فالتكافل في الإسلام يثمر إيجاد مجتمع قوي متماسك متعاون ، يقوم على الحب والعطاء وفعل الخير للغير ، ومن ثم تستقيم العقيدة

وتتجلى مكارم الأخلاق، أما إذا لم يطمئن الفرد في حياته ويشعر أن المجتمع الإسلامي يقف بجانبه ويؤمِّن له حاجاته الضرورية عند العجز أو الحاجة فلا تنتظر منه إلا الحقد والحسد والكراهية والبغضاء.

لقد أسس الإسلام مفهوم التكافل وفق منظومة رائعة جميلة تضمن الحياة الكريمة لكل فرد من المسلمين وليس هذا على حساب أحد دون أحد فالفائدة تعم الجميع في الدنيا والآخرة.

ومن ثم يتضح أثر الزكاة في دعم حياة المجتمع ، فهي تشيع فيه الأمن والاستقرار ، وتسهم في تحقيق رخاء الأوطان ، وتساعد على تحقيق التكافل الاجتماعي ، وتجسيد معاني التراحم بين أفراد المجتمع.



التنافس في الخيرات وخدمة الأوطان

أولا: العناصر:

١- فضل التنافس في الخيرات وأهميته.

٢- أهمية التنافس في خدمة الوطن.

٣- ميادين التنافس والتسابق في الخيرات.

٤- ضوابط التنافس.

٥- خدمة الأوطان مطلب شرعي وواجب وطني.

ثانيا: الأدلة:

الأدلة من القرآن:

١-قال تعالى: { وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ } [المطففين: ٢٦].

٢-وقال تعالى:{وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [البقرة: ١٤٨].

٣-وقال تعالى:{وَسارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} [آل عمران: ١٣٣].

٤-وقال تعالى:{وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ}

[المؤمنون: ٦١،٦٠].

٥-وقال تعالى: {إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَيَدْعُونَنا رَغَباً وَرَهَباً وَكانُوا لَنا خاشِعِينَ} [الأنبياء:٩٠].

٦-وقال تعالى:{سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [الحديد: ٢١].

٧-وقال تعالى:{ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [الحديد: ١٠].

الأدلة من السنة :

١-عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) أَنَّ فُقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ أَتَوْا رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَقَالُوا: ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالدَّرَجَاتِ الْعُلَى، وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ، فَقَالَ: (وَمَا ذَاكَ؟) قَالُوا: يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ وَلَا نَتَصَدَّقُ، وَيُعْتِقُونَ وَلَا نُعْتِقُ، فَقَالَ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (أَفَلَا أُعَلِّمُكُمْ شَيْئًا تُدْرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ؟ وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلَّا مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ) قَالُوا: بَلَى، يَا رَسُولُ اللهِ قَالَ: (تُسَبِّحُونَ، وَتُكَبِّرُونَ، وَتَحْمَدُونَ، دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ مَرَّةً) (رواه مسلم).

٢-وعَنْ كُرَيْبٍ مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ (رضي الله عنهما) قَالَ: حَدَّثَنِي أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ (رضي الله عنهما) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ذَاتَ يَوْمٍ لِأَصْحَابِهِ: (أَلَا مُشَمِّرٌ لِلْجَنَّةِ؟ فَإِنَّ الْجَنَّةَ لَا خَطَرَ لَهَا، هِيَ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ نُورٌ يَتَلَأْلَأُ، وَرَيْحَانَةٌ تَهْتَزُّ، وَقَصْرٌ مَشِيدٌ، وَنَهَرٌ مُطَّرِدٌ، وَفَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ

نَضِيجَةٌ، وَزَوْجَةٌ حَسْنَاءُ جَمِيلَةٌ، وَحُلَلٌ كَثِيرَةٌ فِي مَقَامٍ أَبَدًا، فِي حَبْرَةٍ وَنَضْرَةٍ، فِي دَارٍ عَالِيَةٍ سَلِيمَةٍ بَهِيَّةٍ) قَالُوا: نَحْنُ الْمُشَمِّرُونَ لَهَا، يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: (قُولُوا إِنْ شَاءَ اللَّهُ) (رواه ابن ماجة).

٣- وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ : (لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِى النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الأَوَّلِ ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلاَّ أَنْ يَسْتَهِمُوا عَلَيْهِ لاَسْتَهَمُوا وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِى التَّهْجِيرِ لاَسْتَبَقُوا إِلَيْهِ وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِى الْعَتَمَةِ وَالصُّبْحِ لأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا) (متفق عليه) .

٤- وعَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ (رضي الله عنه) عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ (رضي الله عنه) يَقُولُ: أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أَنْ نَتَصَدَّقَ فَوَافَقَ ذَلِكَ عِنْدِي مَالًا، فَقُلْتُ: اليَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا، قَالَ: فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟) قُلْتُ: مِثْلَهُ، وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ ، فَقَالَ: (يَا أَبَا بَكْرٍ مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟) قَالَ: أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، قُلْتُ: لَا أَسْبِقُهُ إِلَى شَيْءٍ أَبَدًا. (رواه الترمذي).

ثالثا: الموضوع:

لقد خلق الله عز وجل الإنسان ومنحه إمكانات عظيمة، يقوم عليها معاشه وحياته، وفضَّله بها على سائر المخلوقات ، منحه العقل الذي يفكر به، ويميز به بين الخير والشر، والنافع والضار، ومنحه الحواس التي يحس بها بما حوله ، ومنحه الشعور والإحساس الذي تتحرك به عواطفه ، كل ذلك لتكتمل شخصيته ، وتتوازن مقومات حياته. وهذا كله بلا شك

من نعم الله سبحانه على الإنسان ، ولذا عاش الناس في هذه الدنيا وامتدت بهم الحياة، وصاروا يتنافسون باستغلال هذه الإمكانات، وصارت الحياة ميدانًا لهذا التسابق بمختلف أنواع المنافسات ، فكلما قلب الإنسان نظره في مشارق الأرض ومغاربها وجد أحوال الناس مختلفة ، فهناك فئات من الناس همهم المال ، ركزوا جهودهم في جمعه وإنفاقه ، وفئات أخرى همهم البحث عن كل جديد ، فما استحدث من آلة إلا والتفكير أسبق إلى ما بعدها ، وفئات أخرى وجهوا همهم وإمكاناتهم إلى إرضاء رغباتهم وإشباع شهواتهم ، كل بحسب ما يرغب ويهوى ، مستغلًا ما استطاع من نعم الله سبحانه وتعالى، ومن الناس من استغل إمكاناته الجسمية والبدنية، فوجهها إلى ميادين مناسبة لهذه الإمكانات، حتى على مستوى الأُمم وهكذا الناس نجد لكل منهم وجهة ، ولكن المسلم دائمًا وجهته إلى فعل الخير، وهذا ما بينه الله تعالى في قوله تعالى: {وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[البقرة: ١٤٨]، وقوله تعالى: { فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} [المائدة : ٤٨] ، وقوله:{وَسارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} [آل عمران: ١٣٣].

ولا شك أن الإسلام دين الخير والصلاح، ودين السعادة والرخاء، دين يأمر بكل ما فيه صلاح الفرد والمجتمع ، فأقرّ ويقر مبدأ المنافسة ، ويشجع على استغلال إمكانات الإنسان، ويوجه إلى ما يستحق بذل

الجهد فيه، وجعل في مقدمة ما يسعى إليه الإنسان وينافس فيه ما يسعده في دنياه وآخرته، يقول سبحانه: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ}[القصص:٧٧]، فالهدف من السعي هو الدار الآخرة مع التمتع بالحياة في الدنيا.

والتنافس في الخير هو التنافس المشروع المحمود حينما يُشمر كل امرىءٍ عن ساعده ليصنع المعروف أو يبذل الخير أو يُعمر الأرض ، والغاية من كل ذلك نيل رضا الباري (عز وجل) والفوز بجنانه والظفر بالسعادة الأبدية الدائمة.

كما أن التنافس في أعمالِ الخيرِ من وصايا النبي (صلى الله عليه وسلم)،ففي الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) أَنّ فُقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ أَتَوْا رَسُولَ الله (صلى الله عليه وسلم) فَقَالُوا: (ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالدّرَجَاتِ الْعُلَى وَالنّعِيمِ الْمُقِيمِ، فَقَالَ: (وَمَا ذَاكَ؟) قَالُوا: يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدّقُونَ وَلَا نَتَصَدّقُ، وَيُعْتِقُونَ وَلَا نُعْتِقُ، فَقَالَ رَسُولُ الله (صلى الله عليه وسلم): (أَفَلَا أُعَلِّمُكُمْ شَيْئًا تُدْرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ، وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ، وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلَّا مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ) قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ الله، قَالَ: (تُسَبّحُونَ وَتُكَبّرُونَ وَتَحْمَدُونَ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ مَرّةً) .

فميادين التنافس كثيرة ؛ لذلك أرشدهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى لون من ألوان الخير والعمل الصالح يكن لهم عوضًا عن ما فقدوه من التسبيح والتكبير والتحميد ثلاثًا وثلاثين دبر كل صلاة،

ويختمون المائة بلا إله إلا الله . هكذا كان السلف رضوان الله عليهم، فهل لنا أن نتشبه بهم ؟

وليتَأَمّلْ كل منا قَولَ النبيِّ (صلى الله عليه وسلم) حَاثًّا على المُبادَرَةِ ، والمُسَارَعة في الطاعات وعلى رأسها الصلاة في جماعة ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) أن رسول (صلي الله عليه وسلم) قال : (لَوْ يَعْلَمُ النّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ وَالصّفِّ الْأَوّلِ ثُمّ لَمْ يَجِدُوا إِلَّا أَنْ يَسْتَهِمُوا عَلَيْهِ لَاسْتَهَمُوا، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي التّهْجِيرِ- أي التبكير- لَاسْتَبَقُوا إِلَيْهِ وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي الْعَتَمَةِ وَالصُّبْحِ لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا).، ويقول (صلي الله عليه وسلم)- كما في الصحيح -: (مَنْ صَلَّى الْبَرْدَيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ) ، و البردان هما الفجر و العصر .

وقد سَادَتْ رُوحُ المنافسةِ في الخيراتِ بينَ الصحابة رضوان الله عليهم ، وكانَ أبو بكرٍ الصديق (رضي الله عنه) سَبّاقاً أَبَدًا، فقد أَخْرَجَ أبو داودَ في سننه، والترمذيُ عن عُمَرَ ابْن الْخَطَّابِ (رضي الله عنه) قال: أَمَرَنَا رَسُولُ الله (صلى الله عليه وسلم) يَوْمًا أَنْ نَتَصدّقَ، فَوَافَقَ ذَلِكَ مَالًا عِنْدِي، فَقُلْتُ: الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا، فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي، فَقَالَ رَسُولُ الله (صلى الله عليه وسلم) : (مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟) قُلْتُ: مِثْلَهُ، قَالَ :وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله (صلى الله عليه وسلم) : (مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟) قَالَ: أَبْقَيْتُ لَهُمْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، قُلْتُ: لَا أَسْبِقُهُ إِلَى شَيْءٍ أَبَدًا.

وهذه صورة أخرى من صور تنافس وتسابق الصحابة (رضوان الله عليهم) بالخيرات، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ (رضي الله عنه) قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ} قَالَ أَبُو الدَّحْدَاحِ الأَنْصَارِيُّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: وَإِنَّ اللهَ لَيُرِيدُ مِنَّا الْقَرْضَ؟ قَالَ: (نَعَمْ يَا أَبَا الدَّحْدَاحِ) ، قَالَ: أَرِنِي يَدَكَ يَا رسول الله قَالَ: فَنَاوَلَهُ يَدَهُ، قَالَ: فَإِنِّي قَدْ أَقْرَضْتُ رَبِّي حَائِطِي- وَلَهُ حَائِطٌ فِيهَا سِتُّمِائَةِ نَخْلَةٍ، وَأُمُّ الدَّحْدَاحِ فِيهِ وَعِيَالُهَا- قَالَ فَجَاءَ أَبُو الدَّحْدَاحِ فَنَادَاهَا: يَا أُمَّ الدَّحْدَاحِ، قَالَتْ لَبَّيْكَ، فَقَالَ: اخْرُجِي فَقَدْ أَقْرَضْتُهُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ وَفِي رِوَايَةٍ أَنَّهَا قَالَتْ لَهُ: رَبِحَ بَيْعُكَ يَا أَبَا الدَّحْدَاحِ وَنَقَلَتْ مِنْهُ مَتَاعَهَا وَصِبْيَانَهَا، وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (كَمْ عِذْقٍ رَدَاحٍ فِي الْجَنَّةِ لِأَبِي الدَّحْدَاحِ) وَفِي لَفْظٍ (رُبَّ نَخْلَةٍ مُدَلاةٍ ، عُرُوقُهَا دُرٌّ وَيَاقُوتٌ ، لِأَبِي الدَّحْدَاحِ فِي الْجَنَّةِ) (صحيح أصله في مسلم واللفظ لأحمد وغيره).

وعن أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال: كَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَكْثَرَ أَنْصَارِيٍّ بِالْمَدِينَةِ مَالًا ، وَكَانَ أَحَبَّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرُحَاءُ، وَكَانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ الْمَسْجِدِ، فَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْخُلُهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ. قَالَ أَنَسٌ: فَلَمَّا نَزَلَتْ: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ}[آل عمران: ٩٢] . قَالَ أَبُو طَلْحَةَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ اللهَ يَقُولُ: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} ، وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاءُ، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لِلَّهِ أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللهِ، فَضَعْهَا يَا رَسُولَ اللهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (بَخٍ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ ، ذَاكَ مَالٌ رَابِحٌ، وَقَدْ

سَمِعْتُ، وَأَنَا أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ) فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: (أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللهِ . قَالَ: فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ) (متفق عليه).

ولقد تأسى الصالحون برسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه الكرام (رضوان الله عليهم) في المسارعة إلى الخيرات والمنافسة في الصالحات ، قال وهيب بن الورد (رضي الله عنه) : إن استطعت ألا يسبقك إلى الله أحد فافعل.

والإنسان العاقلُ هو الذي يُسارِعُ ويُبادرُ قَبْلَ العوائِقِ والعَوَارِض، فَنَافِسْ مَا دُمْتَ في فُسْحَةٍ ونَفَسْ، فالصِّحْةُ يَفْجَؤُهَا السَّقَم، والقوةُ يَعْتَرِيهَا الوَهَن، والشبابُ يَعْقُبُهُ الهَرَم ، فعلى الإنسان أن يسارع ويبادر إلى فعل الخير ولا يؤجله فإنه لا يدري ماذا سيحدث غدًا

بَادِرْ بِخَيْرٍ إذا ما كُنْتَ مُقْتَدِرًا *** فَلَيْسَ في كُلِّ وَقْتٍ أَنْتَ مُقْتَدِرُ

وهذا ما أمر به النبي (صلى الله عليه وسلم) في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ : (بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِى كَافِرًا أَوْ يُمْسِى مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا).

إن أبواب الخير كثيرة ، ومفتوحة للراغبين، والمؤمن العاقل هو الذي يبادر إلى الخيرات ويقطف من ثمراتها ، فالله الله ما دام في الوقت مهلة، وفي العمر بقية، قبل فوات الأوان.

هذه الميادين الواسعة للتسابق هي ميادين المؤمنين الصادقين، الذين قال الله عنهم: {إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ* وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ} [المؤمنون: ٥٧: ٦١] .

لقد جعل الإسلام السبق إلى الخيرات والمسارعة إلى الصالحات مَطْلَبًا شرعيًّا حث المؤمنين عليه وأمرهم به ، فقَالَ تعالى: {سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}[الحديد:٢١]. وقال سبحانه:{فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ}[البقرة: ١٤٨]. وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (قال الله عز وجل : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، اقرأوا إن شئتم قول الله تعالي: {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [السجدة: ١٧] ، كما أن المسارعة والمسابقة في الخيرِ صفةٌ من صفاتِ الرسل (عليهم السلام) قال تعالى: {إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَيَدْعُونَنا رَغَباً وَرَهَباً وَكانُوا لَنا خاشِعِينَ} [الأنبياء: ٩٠]. وصفة من صفات المؤمنين الموحدين أهل الفلاح في الدارين ، فقد مدح الله تعالى المتصفين بها وأشاد بأصحابها ، وبين أن بلوغ الدرجات تكون بما قدمه الإنسان من خيرات فقال تعالى: {وَالسّابِقُونَ السّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرّبُونَ * فِي جَنّاتِ النّعِيمِ} [الواقعة:١٠-١٢]، وفي الصحيحين عن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيّ (رضي الله عنه) عَنْ النّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: (إِنّ أَهْلَ الْجَنّةِ يَتَرَاءَوْنَ

أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا يَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ فِي الْأُفُقِ مِنْ الْمَشْرِقِ أَوْ الْمَغْرِبِ؛ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ) قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، تِلْكَ مَنَازِلُ الْأَنْبِيَاءِ لَا يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ؟ قَالَ:(بَلَى، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، رِجَالٌ آمَنُوا بِالله وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ).

وقد تمثل صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) هذا التسابق الشريف والمنافسة العظيمة على المستوى الفردي ، وعلى المستوى الجماعي ، يتضح ذلك من الحديث الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ صَائِمًا). قَالَ أَبُو بَكْرٍ (رضى الله عنه):أَنَا ، قَالَ : (فَمَنْ تَبِعَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ جَنَازَةً ؟). قَالَ أَبُو بَكْرٍ (رضي الله عنه): أَنَا، قَالَ: (فَمَنْ أَطْعَمَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مِسْكِينًا ؟)، قَالَ أَبُو بَكْرٍ (رضي الله عنه): أَنَا، قَالَ : (فَمَنْ عَادَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مَرِيضًا؟)، قَالَ أَبُو بَكْرٍ (رضي الله عنه): أَنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): (مَا اجْتَمَعْنَ فِى امْرِئٍ إِلاَّ دَخَلَ الْجَنَّةَ).

وعَنْ أُبَىِّ بْنِ كَعْبٍ (رضي الله عنه) قَالَ : (كَانَ رَجُلٌ لاَ أَعْلَمُ رَجُلاً أَبْعَدَ مِنَ الْمَسْجِدِ مِنْهُ وَكَانَ لاَ تُخْطِئُهُ صَلاَةٌ – قَالَ – فَقِيلَ لَهُ أَوْ قُلْتُ لَهُ : لَوِ اشْتَرَيْتَ حِمَارًا تَرْكَبُهُ فِي الظَّلْمَاءِ وَفِى الرَّمْضَاءِ. قَالَ: مَا يَسُرُّنِي أَنَّ مَنْزِلِي إِلَى جَنْبِ الْمَسْجِدِ ، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ يُكْتَبَ لِي مَمْشَايَ إِلَى الْمَسْجِدِ وَرُجُوعِي إِذَا رَجَعْتُ إِلَى أَهْلِي. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): (قَدْ جَمَعَ اللَّهُ لَكَ ذَلِكَ كُلَّهُ) (صحيح مسلم).

إن التنافس سَبَبٌ لرفعِ الهمةِ ، وإثارةِ الْحَمَاس، يَكْشِفُ عنْ معادِنِ الناسِ، وعُلُوِّ نُفُوسِهِم، وقُوّةِ عزائِمِهِم كما يُبَيِّنُ مَوَاطِنَ ضَعْفِهِم

وقُصُورِهِم، ولا يَسْتَوِي في الناسِ مُبَادِرٌ إلى الخير ومُتَبَاطِئ، ومُسَابِقٌ في الفَضْلِ، ومُتَثَاقِل؛ قال تعالى :{وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [الحديد: ١٠].

والتنافس من أهم مؤشرات القوة والنهوض بالوطن ، فمن علامات التقدم والتحضر أن تصبح سمة التنافس بين القوى والأحزاب والشخصيات والفئات حول خدمة الوطن والاجتهاد في البذل والتضحية من أجل حمايته ورفعة الأمّة ، وتصديق ذلك بالأقوال والأفعال والبرامج والخطوات والإجراءات .

ومن أهم أعمال المسابقة بالخيرات التي يجب أن نهتم بها لرفعة الوطن ما يسمى بالمشاركة المجتمعية ، التي يمكن من خلالها النهوض بالمجتمع والارتقاء به ، والعمل على تحسين مستوى حياة المواطنين اجتماعيًّا واقتصاديًّا ، فهي تعد من الضروريات ، وليست شعارًا تربويًا ولا شعارًا مجتمعيًا ، إنما شعار يجب أن يتحول إلى واقع ، ففي الحديث الصحيح المتفق عليه يقول النبي (صلى الله عليه وسلم) : (أنتم أعلم بأمور دنياكم) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : (واعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا واعمل لأخرتك كأنك تموت غدًا).

إن الشعور بالانتماء للوطن من أهم دعائمه التي تحافظ على استقراره ونموه ، وهو يشير إلى مدى شعور الأفراد بالانتماء إلى وطنهم،

ويمكن أن نستدل على ذلك من خلال المشاركة الإيجابية في أنشطة المجتمع ، والدفاع عن مصالح الوطن ، والشعور بالفخر والاعتزاز بالانتماء له، والمحافظة على ممتلكاته ، وكل هذه المؤشرات يمكن أن تقاس ويُستدل عليها.

ومن ثم فإن من صور التنافس بالخير لخدمة الوطن الانتماء له ، والإخلاص في العمل ، والنية الصادقة حتي يكون الإنسان حصنًا منيعًا لوطنه ، مدافعًا عنه وعن دينه، والتصدي لكل ما يلحق به الضرر ، أو يُشيع فيه الخراب، أو يُوقظ الفتنة ، ويسعى للشقاق والخلاف.

*　*　*

قيمة العمل بين بناة الأوطان ودعاة الهدم

أولًا العناصر:

١- مفهوم العمل وقيمته في الإسلام .

٢- إتقان العمل وسيلة لإصلاح المجتمع وتقدمه الحضاري.

٣-دعوة القرآن الكريم إلى العمل .

٤-مراعاة الحقوق والواجبات تقيم التوازن في حياة المسلم.

٥-العمل رسالة .

ثانيًا : الأدلة:

الأدلة من القرآن الكريم :

١- قال الله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } [الجمعة : ٩ ، ١٠].

٢- وقال تعالى : {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ} [الملك : ١٥] .

٣- وقال تعالى:{ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ} [المزمل:٢٠].

٤- وقال تعالى : { وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ } [القصص: ٧٧].

٥- وقال تعالى:{مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[النحل: ٩٧].

٦- قال تعالى : {وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ }

[التوبة : ١٠٥].

الأدلة من السـنة :

١- عن المقدام (رضي الله عنه) عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : (مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ ، وَإِنّ نَبِيّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السّلَام كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ) (أخرجه البخاري) .

٢- وعن عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ أَمْسَى كالًّا مِنْ عَمَلِ يَدَيْهِ أَمْسَى مَغْفُورًا لَهُ).

(المعجم الأوسط).

٣- وعن أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم):(إِنْ قَامَتْ السّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا تَقُومَ حَتّى يَغْرِسَهَا فَليغرسها) (الأدب المفرد) .

٤- وعَنْ عَائِشَةَ (رضي الله عنها) أَنّ رَسُولَ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: (إِنّ اللهَ (عز وجل) يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ) وفي رواية : (إن الله تعالى يُحب من العامل إذا عمل العمل أن يُحسن)

(رواه البيهقي في الشعب).

٥- وكان سيدنا عِرَاكُ بْنُ مَالِكٍ (رضي الله عنه) إِذَا صَلَّى الْجُمُعَةَ انْصَرَفَ فَوَقَفَ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ فَقَالَ: اللَّهُمّ إِنِّي أَجَبْتُ دَعْوَتَكَ

وَصَلَّيْتُ فَرِيضَتَكَ، وَانْتَشَرْتُ كَمَا أَمَرْتَنِي، فَارْزُقْنِي مِنْ فَضْلِكَ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (تفسير ابن كثير).

٦- وعَنِ ابْنِ عُمَرَ (رضي الله عنهما) قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) عَنْ أَطْيَبِ الْكَسْبِ، فَقَالَ: (عَمَلُ الرَّجُلِ بِيَدِهِ، وَكُلُّ بَيْعٍ مَبْرُورٌ) (رواه أحمد في مسنده والطبراني في الكبير).

٧- وعَنْ أَنَسٍ (رضي الله عنه) قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم): (مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا ، أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا ، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ ، أَوْ إِنْسَانٌ ، أَوْ بَهِيمَةٌ إِلاَّ كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ) (متفق عليه).

ثالثًا: الموضـــــوع:

لقد نظر الإسلام إلى العمل نظرة توقير وتمجيد ، فرفع قدر العمل وقيمته وجعله سبيلا للرقي والتقدم، وجعله عبادة يثاب عليها ،وأصبح الكسلُ وترْكُ العمل نقصًا في حق الإنسان ، فقد حث القرآن الكريم من خلال آياته على السعي على المعاش و العمل، وجاء الأمرُ بالانتشار في الأرض طلبًا للرزق الحلال بعد الأمر بالصلاة يقول الله تعالى : {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[الجمعة :١٠]، وكان سيدنا عِرَاكُ بْنُ مَالِكٍ (رضي الله عنه) إِذَا صَلَّى الْجُمُعَةَ انْصَرَفَ فَوَقَفَ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَجَبْتُ دَعْوَتَكَ وَصَلَّيْتُ فَرِيضَتَكَ، وَانْتَشَرْتُ كَمَا أَمَرْتَنِي، فَارْزُقْنِي مِنْ فَضْلِكَ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ، وقال تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ} [الملك: ١٥] .

وقد وردت في القرآن الكريم نحو ثلاثمائة وستين آية تحدثت عن العمل، كما أن السنة النبوية المطهرة زاخرةٌ بنصوص الجدِّ والاجتهاد والحثِّ على العمل والبناء ، و ترك الخمول والكسل، وبينت أن العمل سبيل لحفظ ماء الوجه والرفعة والعزة، فرسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول: (لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير له من أن يسأل أحدًا فيعطيه أو يمنعه)، وكان سفيانُ الثوريّ (رحمه الله) يمُرُّ ببعض الناس وهم جلوسٌ بالمسجدِ الحرام، فيقول: ما يُجلِسُكم؟ قالوا: فما نصنَع؟! قال: اطلُبوا من فضلِ الله، ولا تكونوا عيالاً على المسلمين.

إنّ الحياة مزيج من الكفاح والتعب والعمل فلا مكان فيها للخاملين والمتخلفين عن ركب الحضارة الذين لا يبذلون من الجهد إلا القليل ثم ينتظرون أن تمنحهم الحياة نعيمها، وإذا أردنا الوصول إلى ذلك المستوى فلابد أن نبذل جهدًا مفيدًا من أجل الوصول إلى غاية هادفة، ومن يسعى على كسب معاشه ورزق أولاده من حلال فهو في درجة الشهيد أو المرابط في سبيل الله، فَعَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ (رضي الله عنه) أَنَّ رَجُلاً مَرَّ عَلَى النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) فَرَأَى أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) مِنْ جَلَدِهِ وَنَشَاطِهِ مَا أَعْجَبَهُمْ ، فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ لَوْ كَانَ هَذَا فِي سَبِيلِ اللهِ!! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم): (إِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى وَلَدِهِ صِغَارًا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَبَوَيْنِ شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ فَفِي سَبِيلِ اللهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ لِيَعِفَّهَا فَفِي سَبِيلِ اللهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَهْلِهِ

فَفِي سَبِيلِ اللهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى تَفَاخُرًا وَتَكَاثُرًا فَفِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ) (المعجم الكبير للطبراني).

ومن القِيَم الخُلقيَّة المؤثرة في مجال العمل والإنتاج إتقان العمل ، ذلك أنَّ الإسلام يَحُضُّ على إحسان العمل وزِيادة الإنتاج والاجتهاد ، ويعدُّ ذلك أمانة ومسؤوليَّة في عنق العامل أو الموظف، فليس المطلوب في الإسلام القيام بالعمل فحسب ، بل لا بُدَّ من الإخلاص والإتقان والإجادة فيه وأدائه بكل أمانة؛ فذلك سبب للوصول إلى محبَّة الله تعالى ، ومن أحبه الله هداه واجتباه، وحفظه ووقاه وأسعده في الدنيا والآخرة يقول النبي (صلَّى الله عليه وسلَّم) -: (إنَّ الله يحبُّ إذا عمِل أحدُكم عملاً أنْ يُتقِنه) (رواه البيهقي). وبالعمل المتقن نتبوأ الصدارة بين الأمم، والله سبحانه وتعالى يحب اليد التي تعمل وتجدّ لتقدم الخير لنفسها ودينها ووطنها، وتقدم الأمة في الصناعات المختلفة وريادتها في الأعمال المبتكرة يحقق لها الحصانة من الأعداء المتربصين بها ، والطامعين في ثرواتها وخيراتها، والناظر في آيات القرآن الكريم، وفي أحاديث رسولنا الكريم (صلى الله عليه وسلم)، يرى العناية الكبيرة بكل ما يصلح حياة الإنسان في دينه ودنياه ويصلح حياته ومماته .

والنجاح والإصلاح في الدنيا مرتبط بالعمل، فارتباط السعادة و الفوز بالعمل الصالح ليس مقصورًا على الآخرة وحدها ، فلا يخيب سعي ساع ، ولا جهد مجتهد ، يقول الله تعالى: { إِنّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الصّالِحَات إِنّا لَا نُضِيع أَجْر مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا }[الكهف:٣٠] ، فمن عمل أُجر ومن قعد حُرم.

والإنسان هو أساس التنمية والتقدم والازدهار بإتقان العمل، فهو صانع التغيير والتطوير بإذن الله تعالى، فلا تتحقق تنمية أو ازدهار إلا من خلال إنسان مبدع متقن فاعل منظَّم ، ولا يتحقق نمو ورخاء إلا عبر مجتمع ناهض، والأوطان لن تتجاوز تخلفها إلا إذا استثمر أبناء الوطن قدراتهم في الإبداع والعمل والبناء ، فلا بد من تعزيز إرادة العمل ببذل أقصى الطاقة والقدرة من أجل بناء الوطن، وصناعة المستقبل الأفضل والعيش الرغيد .

وقد حثّ الإسلام على الاحتراف والعمل والإنتاج ، ورغَّب فيه وشجّع عليه ، وصغَّر مِن شأن مَن يتهاون به، أو يحتقره ، ومما يدل على ذلك أن القرآن الكريم دعا إلى الصناعات التي هي من مقومات الحياة كصناعة الحديد وما فيها من فوائد في الحياة ، قال الله تعالى : {وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنّاسِ }[الحديد: ٢٥]، فمن الحديد نصنع الدروع وهي مهنة داوود (عليه السلام) قال تعالى: {وَأَلَنّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}[سبأ:١٠ ، ١١]، ومن الصناعات التي لا يستغني عنها الإنسان صناعة الملابس والكساء: {وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ}[النحل: ٨٠] ، وقال تعالى في صناعة الكساء: {وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ } [النحل:٨١]، وقال

سبحانه في صناعة الجلود: {وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ} [النحل: ٨٠].

وقال في حق نبي الله نوح (عليه السلام) في صناعة السفينة: {فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا}[المؤمنون: ٢٧] ، وقال تعالى في البناء السكني: {وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا} [الأعراف: ٧٤].

وقد حث الإسلام المسلم على أن يكون في حياته عاملا معطاء ومعمرًا في الأرض حتى يدركه الموت أو تأتيه الساعة ، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه) عَنِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ : (إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لاَ تَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسْهَا) (مسند أحمد).

وقد كان النبيُّ (صلَّى الله عليه وسلَّم) يعمل بنفسه، ويقوم على خدمة أهله ، قالت عائشة (رضي الله عنها): (كان رسول الله (صلَّى الله عليه وسلَّم) يَخصِفُ نعله، ويَخيط ثوبَه، ويعمل في بيته كما يعمل أحدُكم في بيته) (أخرجه أحمد والترمذي).

فالإسلام لم يدعُ إلى العمل ، أي عمل فحسب ، وإنما يطلب الإجادة والإتقان ، وذلك مع ضرورة مراقبة الله عز وجل في السر والعلن ، فإنه من الصعب بل ربما كان من المستبعد أو المستحيل أن نجعل لكل إنسان حارساً يحرسه ، أو مراقباً يراقبه ، وحتى لو فعلنا ذلك ، فالحارس قد يحتاج إلى من يحرسه ، والمراقب قد يحتاج إلى من يراقبه ، ولكن

من السهل أن نربي في كل إنسانٍ ضميرًا حيًا ينبض بالحق ويدفع إلى الخير ، لأنه يراقب من لا تأخذه سنة ولا نوم ، وفي حديث جبريل الطويل حين سأل النبي (صلى الله عليه وسلم) عن الإحسان قال : (أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك) (متفق عليه).

وللتأكيد على أهمية العمل دعانا الإسلام إلى أن نعمل الى آخر لحظة من حياتنا حتى لو لم ندرك ثمرة هذا العمل ، وما ذلك إلا لبيان قيمة العمل وأهمية الإنتاج للأفراد والأمم ، فعن أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) (إِنْ قَامَتْ السّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتّى يَغْرِسَهَا فَليغرسها) (الأدب المفرد) .

فإتقان العمل وإحسان أدائه من الواجبات الشرعية التي دعا إليها الإسلام ، فعن عائشة (رضي الله عنها) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: (إِنّ اللّهَ تَعَالى يُحِبّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلاً أَنْ يُتْقِنَهُ)

(رواه البيهقي في الشعب).

ومن القِيَم التي ينبغي الالتِزام بها في العمل أو المهنة الحرصُ على أداء الواجبات قبلَ المطالَبة بالحقوق، فهذا ما ينبغي أنْ يكون عليه خُلُقُ المسلم ، سواء أكان عاملاً أم تاجرًا أم موظفًا أم زارعًا ، أم طبيبًا أم مهندسًا أم سائقًا فيؤدي ما عليه من واجبات، ثم يُطالِب بعد ذلك بحقوقه ، ذلك أنَّ أداء الواجب هو في الحقيقة حقٌّ للطرف الآخر.

ولا حق بدون واجب، ولا كسب بلا تعب وجهد ، فقد ربط الإسلام بين الحقوق والواجبات وبين المكاسب والتضحيات، وقد حدد الإسلام ما ينبغي على العامل أن يتحلى به من القيم الإيمانية والأخلاقية ، ومنها الإيمان بأن العمل عبادة وطاعة لله (سبحانه وتعالى) وأن الله تعالى سوف يحاسبه يوم القيامة عن عمله قال الله تعالى :{وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [التوبة: ٩١].

ومن هنا يتضح حرص الإسلام على السعي والاجتهاد ، شريطة أن يكون العمل في صالح البلاد والعباد، يقول الله تعالى للسيدة مريم حين جاءها المخاض وهي بجوار النخلة: {وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا}[مريم ٢٥]، فأمرها الله بالجد وبذل الجهد أولاً ، فيجب على الإنسان ذكرًا كان أو أنثى أن يسعى وينصب ؛ ليرزقه الله من فضله ونعمه .

إن على أبناء المجتمع الواحد أن يعملوا متحدين ضد من يتهاون أو يهمل أو يفسد أو يدمر أو يخرب في بنيان مجتمعهم ، وأن يبحثوا عن الأعمال والمشروعات والحِرَف والصناعات التي تفتقد إليها بلادهم في كل مجال.

والعمل المفيد يُجزى عليه صاحبه في الدنيا والآخرة ، فيصلح الله جميع أحواله ، فعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً، يُعْطَى بِهَا فِي

الدُّنْيَا وَيُجْزَى بِهَا فِي الْآخِرَةِ...) (رواه مسلم) ، وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: (الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله - وأحسبه قال - وكالقائم لا يَفتُر وكالصائم لا يُفطِر) (متفق عليه) .

فالعمل المفيد يريح النفس، ويسعد القلب ويُطيّب العيش، ويذهب الحزن والهم والقلق ؛ فالمسلم يجد فرحة ولذة بعد إتمام كل عمل صالح يعمله، وهذه السعادة لا تُباع ولا تُشترى، {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً} [النحل: ٩٧] .

ولا يستوي من يعمل صالحا ومن يعمل سيئًا أو يسيئ إلى غيره ، كما لا يستويان في الممات {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} [الجاثية: ٢١] .

* * *

استثمار الطاقات والإمكانات المعطلة

أولا : العناصر:

١- إعمار الأرض مقصد شرعي.
٢-أهمية استثمار الطاقات والمواهب المعطلة.
٣-نماذج من القرآن الكريم والسنة المطهرة لاستثمار الطاقات والإمكانات.
٤- من مظاهر تعطيل الطاقات والإمكانات.
٥- أثر استثمار الطاقات والإمكانات في نهضة الوطن .

ثانيا : الأدلة

الأدلة من القرآن الكريم:

١. قال تعالى:{وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ءَادَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً} [الإسراء:٧٠].
٢. وقال تعالى: {هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا} [هود: ٦١].
٣. وقال تعالى : { فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ}
[الملك : ١٥] .
٤. وقال تعالى :{ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ }
[يوسف :٥٥].
٥. وقال تعالى: {قَالُواْ ياذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأرض فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا * قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا}
[الكهف: ٩٤ – ٩٥].

٦. وقال تعالى:{وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ} [الأنبياء: ٨٢].

٧. وقال تعالى:{إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ} [آل عمران: ١٩٠] .

٨. وقال تعالى :{ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ } [القصص:٢٦] .

الأدلة من السنة:

١. عن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : (اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ) (رواه مسلم).

٢. وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه) أَنَّ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ أَتَى النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) يَسْأَلُهُ ، فَقَالَ : (أَمَا فِي بَيْتِكَ شَيْءٌ ؟ قَالَ : بَلَى ، حِلْسٌ نَلْبَسُ بَعْضَهُ وَنَبْسُطُ بَعْضَهُ ، وَقَعْبٌ نَشْرَبُ فِيهِ مِنَ الْمَاءِ ، قَالَ : ائْتِنِي بِهِمَا ، قَالَ : فَأَتَاهُ بِهِمَا ، فَأَخَذَهُمَا رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) بِيَدِهِ، وَقَالَ: مَنْ يَشْتَرِي هَذَيْنِ ؟ قَالَ رَجُلٌ : أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمٍ ، قَالَ : مَنْ يَزِيدُ عَلَى دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ ، أَوْ ثَلاَثًا ، قَالَ رَجُلٌ : أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمَيْنِ فَأَعْطَاهُمَا إِيَّاهُ ، وَأَخَذَ الدِّرْهَمَيْنِ وَأَعْطَاهُمَا الأَنْصَارِيَّ ، وَقَالَ: اشْتَرِ بِأَحَدِهِمَا طَعَامًا فَانْبِذْهُ إِلَى أَهْلِكَ ، وَاشْتَرِ بِالآخَرِ قَدُومًا فَأْتِنِي بِهِ ، فَأَتَاهُ بِهِ ، فَشَدَّ فِيهِ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) عُودًا بِيَدِهِ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : اذْهَبْ فَاحْتَطِبْ وَبِعْ ، وَلاَ أَرَيَنَّكَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا ، فَذَهَبَ الرَّجُلُ يَحْتَطِبُ وَيَبِيعُ ، فَجَاءَ وَقَدْ أَصَابَ عَشْرَةَ دَرَاهِمَ ، فَاشْتَرَى بِبَعْضِهَا ثَوْبًا ،

وَبِبَعْضِهَا طَعَامًا ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) : هَذَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَجِيءَ الْمَسْأَلَةُ نُكْتَةً فِي وَجْهِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لاَ تَصْلُحُ إِلاَّ لِثَلاَثَةٍ : لِذِي فَقْرٍ مُدْقِعٍ ، أَوْ لِذِي غُرْمٍ مُفْظِعٍ ، أَوْ لِذِي دَمٍ مُوجِعٍ)

(رواه أبو داود) .

٣. وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ (رضي الله عنهما) قَالَ: تُصُدِّقَ عَلَى مَوْلاَةٍ لِمَيْمُونَةَ بِشَاةٍ فَمَاتَتْ فَمَرَّ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) فَقَالَ : (هَلاَّ أَخَذْتُمْ إِهَابَهَا فَدَبَغْتُمُوهُ فَانْتَفَعْتُمْ بِهِ) ، فَقَالُوا إِنَّهَا مَيْتَةٌ. فَقَالَ:(إِنَّمَا حَرُمَ أَكْلُهَا) (صحيح مسلم) .

٤. وعن زيد بن ثابت (رضي الله عنه) قال : ذُهِبَ بِي إِلَى النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَأُعْجِبَ بِي فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا غُلَامٌ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ مَعَهُ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ بِضْعَ عَشْرَةَ سُورَةً فَأَعْجَبَ ذَلِكَ النَّبِيَّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وَقَالَ: (يَا زَيْدُ تَعَلَّمْ لِي كِتَابَ يَهُودَ فَإِنِّي وَاللَّهِ مَا آمَنُ يَهُودَ عَلَى كِتَابِي قَالَ زَيْدٌ فَتَعَلَّمْتُ كِتَابَهُمْ مَا مَرَّتْ بِي خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً حَتَّى حَذَقْتُهُ وَكُنْتُ أَقْرَأُ لَهُ كُتُبَهُمْ إِذَا كَتَبُوا إِلَيْهِ وَأُجِيبُ عَنْهُ إِذَا كَتَبَ) (رواه أحمد).

ثالثا : **الموضوع** :

لقد خلق الله تعالى الإنسان في أحسن تقويم وكرمه وفضله على سائر خلقه ، وهيأ الكون وسخر له ما فيه من شمس وقمر وبحار وأنهار قال تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى ءَادَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً} (الإسراء:٧٠)، ومن

مظاهر التكريم الإلهي للإنسان استخلافه في الأرض قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}(البقرة:٣٠) ، ومنحه من الإمكانات التي تعينه على هذا الاستخلاف .

وحدد ربنا للإنسان مهمة عظيمة على الأرض بجانب مهمة العبادة وهي مهمة إعمار هذا الكون ، واستخراج كنوزه وخاماته ، قال تعالى: {هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا}(هود:٦١) ، أي : طلب منكم عمارتها وإصلاحها ، والنظر فيما أودع فيها من خيرات وما قدر فيها من أقوات وأمره بالسعي والأخذ بالأسباب وعدم الركون إلى الخمول والكسل، قال تعالى:{فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ}[الملك : ١٥] ، فالرزق نتيجة للسعي والعمل والكد ، كما أن الفقر نتيجة للبطالة والكسل.

ولقد وهب ربنا سبحانه كل إنسان بمجموعة من المواهب والإمكانات كي يحقق بها مراد الله عز وجل ، وبقدر إخلاص الفرد المسلم واستثماره لهذه الإمكانات لصالح وطنه بقدر ما تكون الثمرة المرجوة خيرًا ورفاهية وسعادة للفرد وللمجتمع من حوله ، وهذا يعتبر مقياسًا جيدًا يستطيع المسلم أن يقيس به مدى صدقه وإخلاصه وتفانيه لنصرة هذا الدين ورفعة وطنه .

وفي القرآن الكريم صور مضيئة ونماذج طيبة لمجموعة من البشر أنعم الله عز وجل عليهم ببعض النعم ، فاستغلوها لخدمة أممهم ، ولم يجعلوها قاصرة على ذواتهم ، ولم يعطلوها ، فهذا نبي الله داود (عليه السلام) ألان الله له الحديد ، فاستخدم النبي الكريم هذه الطاقة في صناعة الدروع وملابس الحرب والعتاد العسكري ليجاهد في سبيل الله عز وجل قال تعالى (وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ) [الأنبياء: ٨٠].

وأعطى الله عز وجل سيلمان (عليه السلام) نعمًا كثيرة استطاع أن ينميها ويستثمرها في بناء حضارة لا زالت الدنيا تتحدث عنه محدثًا دمجًا بين كل الطاقات إلى نجاح مبهر تحدث عنه القرآن حين وقف (عليه السلام) ينادي في الناس متحدثًا بفضل الله عليه :{يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ }[النمل: ١٦] ، سخر الله (عز وجل) له الجن والطير والوحش ، فاستثمر هذه المواهب في مرضاة الله تعالى، واستثمر إمكانات الهدهد وهو أحد جنوده في إرسال الرسائل إلى ملكة سبأ ليدعوها إلى الحق ، واستثمر طاقة الجن في بناء الصرح الممرد من قوارير الذي بهر عين ملكة سبأ فأسلمت لما علمت أن مُلكها لا يساوي شيئًا بجانب ملك سليمان المؤيد من عند الله (عز وجل) حتى الشياطين استثمر سليمان (عليه السلام) طاقتهم ومواهبهم ، قال تعالى: {وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ } [الأنبياء: ٨٢].

وهذا ذو القرنين الذي طوى الله له الأرض فكان لا يمر على أمة من الأمم إلا دعاهم بدعوة الحق قال تعالى:{وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْراً إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً فَأَتْبَعَ سَبَباً } [الكهف: ٨٣ـ ٨٤] .

ولما ورد على القوم الذين لا يكادون يفقهون قولاً لاستعجام كلامهم وبعدهم عن الناس وإخلادهم إلى الكسل وتعطيل الفكر وتبديد الطاقة وأصبح حالهم الضعف والمسكنة لا حول لهم ولا قوة اشتكوا إليه من ظلم يأجوج ومأجوج ، وإغارتهم عليهم وإفسادهم لأموالهم وزروعهم وأنفسهم فماذا قالوا : { قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا}[الكهف :٩٤] ، فاكفنا شرهم يا ذا القرنين ولك الأجر والعطاء ، لكن المسلم الذي يندفع بروح الإسلام وقوة الإيمان والإخلاص لله سبحانه وتعالى لا ينتظر الأجر من البشر إنما ينتظره من رب البشر سبحانه وتعالى ، فذو القرنين الرجل الذكي الذي آتاه الله من القوة والبصيرة قدرًا كبيرًا سلك بهم طريقًا يستثمر من خلاله طاقاتهم المهدرة ومواهبهم المعطلة وجعلهم يتعلمون كيف يعتمدون على أنفسهم ولا يعتمدون على غيرهم في قضاء مصالحهم فتحولوا بذلك أعوانًا له وليسوا عالة عليه .

إنهم كانوا في أمس الحاجة إلى من يملك إدارة استثمار مواردهم وطاقاتهم الموجودة بالفعل فيهم ، واستثمارها فيما ينفعهم ويصلحهم ويأخذ بأيديهم إلى المنعة والحصانة فضلًا عن التنمية والتقدم والرخاء.

وفي السنة الشريفة أيضًا ما يدل على أن الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) كان يستثمر الطاقات والمواهب والإمكانات لنصرة الدين ولرفعة شأن الوطن وتحقيق التنمية والرفاهية ، فعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : ذُهِبَ بِي إِلَى النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَأُعْجِبَ بِي فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا غُلَامٌ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ مَعَهُ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ بِضْعَ عَشْرَةَ سُورَةً فَأَعْجَبَ ذَلِكَ النَّبِيَّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وَقَالَ: (يَا زَيْدُ تَعَلَّمْ لِي كِتَابَ يَهُودَ فَإِنِّي وَاللَّهِ مَا آمَنُ يَهُودَ عَلَى كِتَابِي قَالَ زَيْدٌ فَتَعَلَّمْتُ كِتَابَهُمْ مَا مَرَّتْ بِي خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً حَتَّى حَذَقْتُهُ وَكُنْتُ أَقْرَأُ لَهُ كُتُبَهُمْ إِذَا كَتَبُوا إِلَيْهِ وَأُجِيبُ عَنْهُ إِذَا كَتَبَ) وفي رواية (قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (تُحْسِنُ السُّرْيَانِيَّةَ إِنَّهَا تَأْتِينِي كُتُبٌ، قَالَ قُلْتُ: لَا ، قَالَ: (فَتَعَلَّمْهَا) فَتَعَلَّمْتُهَا فِي سَبْعَةَ عَشَرَ يَوْمًا) ، وهكذا رأى النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) ما يتمتع به هذا الغلام من الذكاء والفهم ما يستطيع من خلالهما خدمة دينه ووطنه ، فأمره أن يتعلم لغة اليهود قراءة وكتابة حتى يتمكن النبي (صلى الله عليه وسلم) من الرد على ما في كتبهم ورسائلهم.

وفي مجال القضاء على البطالة ومحاربة الكسل والدفع نحو العمل والإنتاج واستثمار المواهب والطاقات ، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه) أَنَّ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ أَتَى النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) يَسْأَلُهُ، فَقَالَ : أَمَا فِي بَيْتِكَ شَيْءٌ ؟ قَالَ : بَلَى ، حِلْسٌ نَلْبَسُ بَعْضَهُ وَنَبْسُطُ بَعْضَهُ ، وَقَعْبٌ نَشْرَبُ فِيهِ مِنَ الْمَاءِ ، قَالَ : ائْتِنِي بِهِمَا ، قَالَ : فَأَتَاهُ بِهِمَا ،

فَأَخَذَهُمَا رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) بِيَدِهِ، وَقَالَ: مَنْ يَشْتَرِي هَذَيْنِ ؟ قَالَ رَجُلٌ : أَنَا، آخُذُهُمَا بِدِرْهَمٍ ، قَالَ : مَنْ يَزِيدُ عَلَى دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ ، أَوْ ثَلاَثًا ، قَالَ رَجُلٌ : أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمَيْنِ فَأَعْطَاهُمَا إِيَّاهُ ، وَأَخَذَ الدِّرْهَمَيْنِ وَأَعْطَاهُمَا الأَنْصَارِيَّ، وَقَالَ: اشْتَرِ بِأَحَدِهِمَا طَعَامًا فَانْبِذْهُ إِلَى أَهْلِكَ، وَاشْتَرِ بِالآخَرِ قَدُومًا فَأْتِنِي بِهِ، فَأَتَاهُ بِهِ ، فَشَدَّ فِيهِ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) عُودًا بِيَدِهِ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : اذْهَبْ فَاحْتَطِبْ وَبِعْ ، وَلاَ أَرَيَنَّكَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا ، فَذَهَبَ الرَّجُلُ يَحْتَطِبُ وَيَبِيعُ ، فَجَاءَ وَقَدْ أَصَابَ عَشْرَةَ دَرَاهِمَ ، فَاشْتَرَى بِبَعْضِهَا ثَوْبًا ، وَبِبَعْضِهَا طَعَامًا ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) : هَذَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَجِيءَ الْمَسْأَلَةُ نُكْتَةً فِي وَجْهِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لاَ تَصْلُحُ إِلاَّ لِثَلاَثَةٍ : لِذِي فَقْرٍ مُدْقِعٍ ، أَوْ لِذِي غُرْمٍ مُفْظِعٍ ، أَوْ لِذِي دَمٍ مُوجِعٍ.

فهذا يُعد من أروع الأمثلة لاستثمار الطاقات المعطلة ، فالسائل رجل من الأنصار تبدو عليه علامات الاستطاعة والقدرة على العمل ، ولهذا لم يبح له الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) المسألة كما ذكر في آخر الحديث فهو ليس من الأصناف المذكورة التي يحل لها الصدقة، والرجل لم يكن في بيته إلا حلس هو فراشه وغطاؤه معًا ، وكوب يشرب فيه الماء وهذان شيئان -بلا شك -ضروريان لكنهما إذا قيسا بالحاجة إلى الطعام كانت الحاجة إلى الطعام أولى ولهذا باعهما الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) ليوفر له الأهم والأولى ، وكأن رسولنا الكريم (صلى الله عليه وسلم) يوجه رسالة إلى الأمة التي عطلت

مواهبها وطاقاتها ، ويأمرها بالأخذ بكل وسائل القوة والعلم ويوجهها نحو الاستفادة المثلى من كل شيء يعود خيره ونفعه على الفرد والمجتمع .

وقد عقد النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) مجلس مزاد ليبيع ما يمتلكه الرجل ، وكان الثمن الفعلي للحلس والقعب درهم واحد ، وكان يكفي لطعامه لأن الرسول أعطاه درهمًا واحدًا لطعامه وطعام أهله والدرهم الثاني وهو يمثل دعم المجتمع المسلم لهذا الرجل لينشئ منه ثروة وطاقة تخدم المجتمع أو على الأقل يحسن تجنيدها والاستفادة منها. والدرهم الثاني (والذي هو دعم من المجتمع للسائل) اشترى الرجل به القادوم وصار رأس مال هذا الذي جاء منذ قليل يسأل الناس ، فاستثمر طاقاته وأصبح فردا صاحب مال لا صاحب يد تمد وتسأل الناس.

فكل إنسان عنده من المواهب والطاقات ما يغنيه – لو استثمرها – عن ذل السؤال ، قال تعالى: { إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى }، و عن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ) ومن أجمل ما قاله الإمام مالك (رضي الله عنه) في المسألة وهو يرد على عبدالله بن عبدالعزيز العُمَرِي العابد حينما كتب إليه يحضه على الانفراد والعزلة ، قال الإمام مالك (رضي الله عنه) : (إن الله قسم الأعمال كما قسم الأرزاق، فرب رجل فتح له في الصلاة، ولم يفتح له في الصوم، وآخر فتح له في الصدقة ولم يفتح له في الصوم، وآخر فتح له في الجهاد ،فنشر العلم من أفضل أعمال البر،

وقد رضيت بما فتح لي فيه، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خير وبر).

إن الأمة اليوم لا ينقصها أعداد بشرية، ولا موارد مالية، ولا مساحات أرضية، ولا عقول فكرية، ولا إمكانات تكنولوجية، إنما ينقصها : استثمار الطاقات وترشيد الموارد ، والمحافظة عليها، وهذا ما كان يفعله رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ويوجه الأمة إليه فيستثمر كل شيء فيه نفع يعود بالخير على صاحبه ، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ تُصُدِّقَ عَلَى مَوْلاَةٍ لِمَيْمُونَةَ بِشَاةٍ فَمَاتَتْ فَمَرَّ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) فَقَالَ: (هَلاَّ أَخَذْتُمْ إِهَابَهَا فَدَبَغْتُمُوهُ فَانْتَفَعْتُمْ بِهِ)، فَقَالُوا: إِنَّهَا مَيْتَةٌ. فَقَالَ: (إِنَّمَا حَرُمَ أَكْلُهَا) (صحيح مسلم) .

فحينما ننظر في أحوال الأمة في هذه الأيام ندرك بعين البصر أنَّ الأمة تعيش أزمة طاقات مهدرة، وجهود مبعثرة، وإن الحديث عن طاقات الأمة، وعما تمتلكه من إمكانات لهو غاية في الأهمية فإعادة الثقة هي الأساس في تشييد البناء ، كيف لا ؟! ونحن أمة العلم والعمل، والفقه والنضج، والتقدم والرقي، والحضارة فعلينا أن نستثمر ماضينا لبناء حاضرنا ولعل من أسباب إهدار الطاقات ضعف التربية والبعد عن تعاليم الدين السمحة ، وإهمال المبدعين في كل المجالات .

ومن مظاهر تعطيل الطاقات تجاهلها والغفلة عنها متمثلة في الثروة البشرية الهائلة والعقول العلمية والقوة الشبابية . ولكن: ما هو

الطريق لاستثمار هذه الطاقات والإمكانات المعطلة ؛ لنحقق من خلالها الرخاء لوطننا الغالي مصر ولأمتنا ؟

فعلينا الاهتمام بالطاقات والكفاءات الموجودة في كافة التخصصات العلمية والاقتصادية والثقافية ووضع الطاقة المناسبة في موطنها المناسب كما فعل يوسف (عليه السلام) بمصر وقت القحط لينجي أمته من هلاك محقق ، بعد أن أسند إليه ملك مصر إدارة هذه الأزمة لما رأى فيه من مواهب غير متحققة عند غيره ، {قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ} [يوسف: ٥٥] .

وإننا لنؤكد على الاهتمام بما أودعه الله عز وجل في بلدنا من خيرات وموارد فنقوم باستثمارها خير استثمار ؛ ليعود أثر ذلك خيرًا وبرًا ونماء ورخاء على بلدنا الحبيب ، وما مشروع قناة السويس الجديد عنا ببعيد الذي أثبت فيه المصريون بعد توفيق الله عز وجل أنهم قادرون على تخطي الصعاب والانطلاق نحو التقدم والازدهار .

* * *

الكلم الطيب وأدب الحوار

أولا: العناصر:

١. قيمة الكلمة الطيبة وأثرها في استمالة النفوس.
٢. أهمية الحوار بالكلم الطيب في حياة الإنسان.
٣. آداب الحوار في الإسلام.
٤. نماذج من الحوار الإيجابي في القرآن.
٥. آفات وسلبيات تفسد الحوار.

ثانيا: الأدلة:

من القرآن الكريم:

١. قال تعالى:{ومِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ} [الروم: ٢٢].
٢. وقال تعالى: {وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا} [البقرة: ٨٣].
٣. وقال تعالى: {وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا} [الإسراء: ٥٣].
٤. وقال تعالى:{ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} [إبراهيم : ٢٤ـ٢٥].
٥. وقال تعالى:{ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} [فاطر:١٠].

٦. وقـال تعـالى:{ادْعُ إِلـى سَـبِيلِ رَبِّـكَ بِالْحِكْمَـةِ وَالْمَوْعِظَـةِ الْحَسَـنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} [النحل: ١٢٥].

٧. وقال تعالى:{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} [البقرة:٣٠].

٨. وقال تعالى:{قَالُوا يَانُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} [هود:٣٢].

٩. وقال تعالى:{قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً} [الكهف:٣٧].

من السنة النبوية:

١. عَنْ أم المؤمنين عَائِشَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا) عَنِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ :(إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللهِ الأَلَدُّ الْخَصِمُ).

(رواه البخاري).

٢. وعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ سَعْدٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) عَنْ عَلِيٍّ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم): (إِنَّ فِي الْجَنَّةِ غُرَفًا تُرَى ظُهُورُهَا مِنْ بُطُونِهَا وَبُطُونُهَا مِنْ ظُهُورِهَا). فَقَامَ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ لِمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ (لِمَنْ أَطَابَ الْكَلاَمَ ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ ، وَأَدَامَ الصِّيَامَ ، وَصَلَّى لِلَّهِ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ) (رواه الترمذي).

٣. وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) عَنِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (إِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ، لاَ يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، لاَ يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ) (متفق عليه) .

٤. وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (كُلُّ سُلاَمَى مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ، كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ، يَعْدِلُ بَيْنَ الِاثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وَيُعِينُ الرَّجُلَ عَلَى دَابَّتِهِ فَيَحْمِلُ عَلَيْهَا، أَوْ يَرْفَعُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، وَالكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا إِلَى الصَّلاَةِ صَدَقَةٌ ، وَيُمِيطُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ)

(متفق عليه).

٥. وعَنْ أَبِى أُمَامَةَ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) : (أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِى رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا ، وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا ، وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ) (رواه أبو داود).

٦. وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ قَالَهَا ثَلاَثًا) (رواه مسلم).

٧. وعَنْ عَائِشَةَ (رضي الله عنها) أن النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: (إِنَّ الرِّفْقَ لاَ يَكُونُ فِى شَىْءٍ إِلاَّ زَانَهُ وَلاَ يُنْزَعُ مِنْ شَىْءٍ إِلاَّ شَانَهُ)

(رواه مسلم).

ثالثا: الموضوع:

لقد خلق الله (عز وجل) الإنسان وصَوَّره في أحسن تقويم ، وكان من آيات الله (عز وجل) الباهرة في خلق الإنسان تنوع وظائف اللسان ، قال تعالى:{وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ}[الروم:٢٢]. ونتج عن هذا التنوع في اختلاف الألسنة اختلاف في إدراك الكلام ـ مفهومه ومنطوقه ـ ، وهذا الاختلاف سنة من سنن الله (عز وجل) في خلقه ، قال تعالى: {وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ} {هود: ١١٨ ـ ١١٩} . فالخلاف بين الناس أمر طبيعي في حياة الناس ، فهم مختلفون في ألوانهم وألسنتهم وطباعهم ومُدركاتهم ومعارفهم وعقولهم ، ولا يتمُّ إزالة هذا الاختلاف إلا من خلالِ حوارٍ هادفٍ هادئ ، يقرِّبُ بين وجهاتِ النظرِ ، ويخاطب العقول بالكلم الطيب لتهتدي إلى طريق الخير والرشاد والصواب.

والكلم الطيب هو لغة الحوار الناجح ، لذلك ضرب الله (عز وجل) المثل به في القرآن الكريم بشجرة طيبة مثمرة ، قال تعالى:{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}[إبراهيم:٢٤ ـ٢٥]. وقال تعالى:{ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} [فاطر: ١٠]. وكان النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) يحب الكلم الطيب بل ويشجع عليه ، فعَنْ أَنَسِ

بْنِ مَالِكٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) ، عَنِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ : (لاَ عَدْوَى ، وَلاَ طِيَرَةَ وَيُعْجِبُنِي الْفَأْلُ قَالُوا وَمَا الْفَأْلُ قَالَ: كَلِمَةٌ طَيِّبَةٌ.) (رواه البخاري). وعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ سَعْدٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) عَنْ عَلِيٍّ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم): (إِنَّ فِى الْجَنَّةِ غُرَفًا تُرَى ظُهُورُهَا مِنْ بُطُونِهَا وَبُطُونُهَا مِنْ ظُهُورِهَا). فَقَامَ أَعْرَابِىٌّ فَقَالَ لِمَنْ هِىَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : (لِمَنْ أَطَابَ الْكَلاَمَ وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ وَأَدَامَ الصِّيَامَ وَصَلَّى لِلَّهِ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ) (رواه الترمذي).

وحسن القول وطيب الكلم من أهم أسباب التذكر والخشية وصلاح الأعمال ، ومغفرة الذنوب ، وبه تقطع أسباب الخصومة ، وتغلق أبواب الفتن ، وتشيع روح المودة والمحبة ، فالكلم الطيب جامع لكل خير في الدارين ، وقد أمرنا الله تعالى بأن نقول الكلمة الطيبة لجميع الناس دون تفرقة ، قال تعالى: {وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا...}[البقرة : ٨٣] ، وقال: {وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [الإسراء : ٥٣]

فالكلمة عنوان الإنسان ، وبها تكاد تكونُ كلّ شيء في حياة الإنسان ، فهي إما أن تبلغ بالإنسان أرقى الدرجات، أو تهوي به في أسفل الدركات ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) عَنِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (إِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ، لاَ يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، لاَ يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ) .

والحوار بالكلم الطيب يعد من أفضل الطرق التي تؤدي إلى إزالة المبهمات ، وهو وسيلة ضرورية للتواصل والتفاهم مع الآخرين ، ووسيلة من أعظم وسائل التعارف والتآلُف بين الناس ، ولا يخفى ما للكلمة من أثر طيب في العلاقة بين الناس ، والحوار بالكلم الطيب هو أحد الطرق الموصلة إلى الرجوع إلى الحقّ ، وإضافة لكل ما سبق من أهمية الحوار فهو وسيلة لتهذيب النّفوس وتربيتها ، ولا غنى للناس عنه بأي حالٍ من الأحوال.

ومن أجل إعلاء قيمة الحوار وأهميته أدَّب الله (عز وجل) عباده في شخص رسوله الكريم (صلى الله عليه وسلم) بما يكفل للحوار أن يؤتي ثمرته المرجوة من خلال هداية الخلق إلى الحق ، والمتدبر لآيات القرآنِ الكريمِ والسنة النبوية المطهرة يجد الكثير من النصوصِ التِي تُرشِدُ الأمة كلها إلَى أهميةِ الحوارِ بالكلم الطيب فِي حياةِ الناسِ ، وتُعلِّمُنَا أصول الحوار والمناظرة ، والأخذ بأسبابِ الإقناع ، والمجادلة بالتي هي أحسن ، لأنَّ الهدف هو إقناعُ الآخر لعله يهتدي إلى الصواب وفْق آدابٍ وضوابطَ ينبغي مُراعاتها، ولا يكون ذلك إلا بالكلم الطيب ، يقول سبحانه: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [النحل: ١٢٥]، بل إن أهل الكتاب الذين يخالفوننا في أصول العقيدة وفروعها يأمرنا ربنا حين نحاورهم ونجادلهم أن يكون حوارنا بالحسنى والرفق واللين ولا يكون ذلك إلا بالكلم الطيب، فالرفق زينة الأشياء ، فعَنْ أم المؤمنين عَائِشَةَ (رضي الله عنها)

أن النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ : (إِنَّ الرِّفْقَ لاَ يَكُونُ فِى شَىْءٍ إِلاَّ زَانَهُ وَلاَ يُنْزَعُ مِنْ شَىْءٍ إِلاَّ شَانَهُ)(رواه مسلم)، ويقول (عز وجل): {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [العنكبوت: ٤٦]

وقد ذكر القرآنُ الكريمُ جانبًا من صور الحوار، وخاصة حوار الله (عز وجل) مع الملائكة، ومن ذلك قوله تعالى: { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ} [البقرة: ٣٠ ـ ٣٣].

ومن صور الحوار التي عرضها القرآن الكريم: حواره (سبحانه) مع عيسى (عليه السلام): قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ

فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}

[المائدة: ١١٦ـ ١١٩].

ولقد سجل القرآن الكريم جانبًا كبيرًا من حوارات الرسل (عليهم السلام) مع أقوامهم ، والتي استعمل الأنبياء فيها كل الأساليب العقلية والنقلية كي يصل العباد إلى طريق الحق والرشاد.

ومن أروع صور الحوار بين الأنبياء وأقوامهم: ما سجله القرآن الكريم من حوار رسولنا الكريم (صلى الله عليه وسلم) مع مشركي مكة ، حين حاورهم بالحسنى وهم مصرون على أنهم على الحق وغيرهم على ضلال ، قال تعالى : {قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ }[سبأ: ٢٤] ، ففي هذا الحوار استخدم الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) ما يعبر عنه البلاغيون بأسلوب الإنصاف (وإنا أو إياكم)، ولم يقل : (إنا على هدى وأنتم على ضلال) على الرغم من علو مكانته وشرف دعوته (صلى الله عليه وسلم). وهذا أسمى وأبلغ وأفصح تعبير عن احترام حرية الآخر في الاختيار ، وعن احترام اختياره ، حتى ولو كان على خطأ ، بل وذهب الحوار المحمدي إلى أبعد من ذلك ، عندما قال القرآن الكريم في الآية التالية مباشرة للآية السابقة :{ قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ}[سبأ: ٢٥]، فوصف (صلى الله عليه وسلم) اختياره للحق

إجرام ـ من وجهة نظرهم السقيمة ـ ووصف اختيارهم للباطل عمل ، من أجل أن يستميل قلوبهم ، ثم فوض الأمر لله (عز وجل) ليحكم بينهم ، قال تعالى: { قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ} [سبأ: ٢٦].

كذلك من صور الحوار الهادف المثمر ما حدث بين سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وزوجه السيدة أم سلمة (رضوان الله عليها) يوم الحديبية ، فكان حوارا هادئا بين طرفين يريدان الوصول لنجاة الناس من الهلاك ، فكان من ثمرته أن امتثل الصحابة لكلام رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فبعد أن انتهى النبي (صلى الله عليه وسلم) من إبرام عهد الصلح بينه وبين أهل مكة قَالَ لأَصْحَابِهِ: (قُومُوا فَانْحَرُوا ثُمَّ احْلِقُوا) قَالَ : فَوَاللَّهِ مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ دَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ ، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ : يَا نَبِيَّ اللهِ أَتُحِبُّ ذَلِكَ اخْرُجْ ثُمَّ لاَ تُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ نَحَرَ بُدْنَهُ وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا فَنَحَرُوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا)

(رواه البخاري).

وفي هذا كله درْسٌ عظيمٌ ، وتربيةٌ ربانيةٌ ، نُدرِكُ مِنْ خلالِها أهميةَ الحوارِ فِي حياتِنَا ، ونتعلَّمُ أن حُسْنَ الإصغاءِ للآخرينَ ـ ولَوْ كانُوا غيْرَ مُحِقِّينَ من وجهة نظرنا ـ ، فمجرد حسن الإصغاءِ إليهم ، يجعلنا

نحتوي كلّ ما لديهِمْ من الحُجَجِ ، والأعذارِ والتأويلات ، للوقوفِ على سببِ الخلافِ وعلاجه ، ولكي يعلمَ الطرفُ الآخرُ الذي تحاوره أنكَ تُشارِكُهُ همومَهُ ، وأنكَ تسعى لإيصال الخير له.

ولكي يكون حوارنا مثمرًا هادفًا لابد وأن نراعي فيه عدة آداب ،منها:

- **الإخلاص لله** (**عز وجل**): بمعنى أن يبتعد المحاور والمناظر عن الرياء والسمعة ،

ويجعل هدفه من حواره الحرص على طلب الحق لا التفوق على الآخرين ، والانتصار للنفس، وانتزاع الإعجاب والثناء ، قال الإمام الشافعي (رضي الله عنه): (ما ناظرت أحدًا إلا تمنيت لو أن الله أظهر الحق على لسانه).

- **التجرد للحق والانتصار له** : فالمؤمن ضالته هي الحق فمتى وصل إليها فهي له ، ولن يصل إليها إلا إذا تجرد للحق .
- **العدل والإنصاف**: فمن تمام الإنصاف قبول الحق من الخصم ، وقد ذكر القرآن نماذج للعدل والإنصاف ما ذكره الله – سبحانه – في وصف أهل الكتاب: {لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ} [آل عمران:١١٣] .
- ومنه ما ورد في حوار النملة مع بني جنسها حين أنصفت سليمان وجنوده ووصفتهم بأنهم لا يشعرون بالنمل ، وهذه حقيقة مؤكدة وقد سجل القرآن الكريم هذا الحوار المنصف ، فقال تعالى: حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ } [النمل :١٨] .

- **الالتزام بالهدوء لإلزام الآخر بالحجة** ، فكلما علا الصوت كان دليلا على ضعف حجة صاحبه، ومما يذكر في هذا الأمر ما جاء من حوار حبر الأمة سيدنا عبدالله بن عباس (رضي الله عنهما) مع الخوارج ، تلك الفئة الضالة التي ابتليت بها الأمة ، فاستباحوا الدماء والأعراض لمجرد الهوى والجهل ، فلقد أوفد سيدنا علي بن أبي طالب (رضي الله عنه وكرم الله وجهه) سيدنا عبدالله بن عباس (رضي الله عنهما) إلى الخوارج المعروفين بالحرورية ، فذهب إليهم ابن عباس (رضي الله عنه) وعليه حلة جميلة، فلما أقبل، قالوا له: يا ابن عباس، ما الذي جاء بك؟ وما هذه الثياب التي عليك؟- فقال : أما الثياب التي عليَّ، فما تنقمون مني؟ فوالله ، لقد رأيت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وعليه حلة ليس أحد أحسن منه، ثم تلا عليهم قوله تعالى: { قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ للَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ} [الأعراف:٣٢].

- قالوا: ما الذي جاء بك يا ابن عباس؟

- قال: جئتكم من عند أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وليس فيكم أنتم يا معشر الخوارج واحد من أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وجئتكم من عند ابن عم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يعني: - علي بن أبي طالب- ، وعليهم نزل القرآن ، وهم أعلم بتأويله، جئت لأبلغكم عنهم ، وأبلغهم عنكم، فأنا رسول- أي وسيط- بينكم وبينهم.

- قال بعضهم: لا تحاوروا ابن عباس ، لا تخاصموه ، فإن الله تعالى يقول عن قريش: {بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ} [الزخرف:٥٨]، فلما خافوا من الهزيمة قالوا: اتركوا هذا، هذا جدل إنسان خَصِم! وقال بعضهم: بل نكلمه، ولننظر ماذا يقول؟

- قال ابن عباس (رضي الله عنهما): فكلمني منهم اثنان أو ثلاثة ، فقال لهم: ماذا تنقمون على علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)؟ قالوا: ننقم عليه ثلاثة أمور ، قال: هاتوا.

- قالوا: الأول: أن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) حكَّم الرجال في كتاب الله ، يعني: بعث حكمًا منه ، وحكمًا من معاوية (رضي الله عنه) ، وقصة التحكيم معروفة، والله تعالى يقول: (إِنِ الْحُكْمُ إلا لِلَّهِ) [الأنعام:٥٧]. - قال: هذه واحدة ، فما الثانية؟

- قالوا: الثانية : أن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) قاتل ولم يسْبِ - أي قاتلهم وما سبي نساءهم-، فلئن كانوا مسلمين فقتاله حرام ، ولئن كانوا كفارًا فلماذا لم يسبهم؟ قال: وهذه أخرى ، فما الثالثة؟

- قالوا : الثالثة: أنه نزع نفسه من إمرة المؤمنين لمَّا كتب الكتاب، فلم يكتب أمير المؤمنين؛ بل قال: علي بن أبي طالب. - قال: أوقد فرغتم؟ قالوا: نعم.

- قال: أما الأولى: فقولكم: حكَّم الرجال في كتاب الله تعالى، فإن الله تعالى يقول في محكم التنزيل: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ} [المائدة:٩٥] ، فذكر الله تعالى حكم ذَوَيْ عدل فيما قتله

الإنسان من الصيد ، سألتكم الله تعالى! التحكيم في دماء المسلمين وأموالهم أعظم ، أم التحكيم فيما قتله الإنسان من الصيد؟

- قالوا: لا ؛ بل التحكيم في دماء المسلمين وأموالهم أعظم.

- قال: فإن الله تعالى يقول في كتابه: { وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا} [النساء:٣٥]، ناشدتكم الله تعالى! التحكيم في دماء المسلمين وأموالهم أهم ، أو التحكيم في بُضع امرأة؟

- قالوا: لا، التحكيم في دماء المسلمين وأموالهم. قال: انتهت الأولى؟ قالوا: نعم، فالثانية؟

- قال: أما الثانية، فقولكم: قاتل ولم يسْبِ، هل تسْبون أمكم عائشة (رضي الله عنها)لأنها كانت في الطرف الآخر-، وتستحلون منها ما يستحل الرجال من النساء، إن قلتم ذلك كفرتم، وإن قلتم ليست بأمِّنا كفرتم -أيضًا-؛ لأنها أم المؤمنين، فاستحيوا من ذلك وخجلوا.

- قالوا: فالثالثة؟ قال: أما قولكم: خلع نفسه من إمارة المؤمنين، وإذا لم يكن أميرًا للمؤمنين فهو أمير الكافرين، فإن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لما عقد كتاب الصلح مع أبي سفيان وسهيل بن عمرو في صلح الحديبية، قال: (اكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قالوا: لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك ، اكتب اسمك واسم أبيك ، فمحا النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الكتابة، وقال: (اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله ، فرجع منهم عن مذهب الخوارج ألفان، وبقيت بقيتهم ، فقاتلهم علي بن أبي طالب (رضي الله عنه).

فانظر كيف أثَّر الحوار الهادئ القوي العميق في مثل هذه الرؤوس اليابسة ، حتى رجع منهم ألفان إلى مذهب أهل السنة والجماعة في مجلس واحد ببركة الهدوء في الحوار.

- **التواضع** : فالتزام التواضع له دور كبير في إقناع الآخر، وقبوله للحق ، فكلما ظهر من أحد المتحاورين التواضع ، لا يملك الآخر إلا أن يبادله بمثله أو أحسن منه ، ويلمس كلا المتحاورين خلقًا كريمًا، ويسمعان كلامًا طيبًا، وساعتها سيكون الحوار مثمرًا، وفي الحديث الصحيح: (وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله) (رواه مسلم) ، ومن التواضع أن تقبل الحق ممن جاء به حتى ولو كان أعدى الأعداء ، فالمؤمن ضالته المنشودة هي الحكمة ، فهو باحث عنها لذاتها ، أنىَّ وجدها كان أحق الناس بها.
- **البعد عن المماراة والجدل الذي لا طائل تحته ولا فائدة من ورائه** ، فبسببهما تتشتت الكثير من القلوب الكثيرة، ولا يُقصد منهما إلا إفحام الخصم أو التشهير به فقط، ولذا حثنا ورغبنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) في البعد عن المراء فعَنْ أم المؤمنين عَائِشَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا) عَنِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ : (إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللهِ الأَلَدُّ الْخَصِمُ). (رواه البخاري في صحيحه) ، وعَنْ أَبِى أُمَامَةَ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) : (أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِى رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا وَبِبَيْتٍ فِى وَسَطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا وَبِبَيْتٍ فِى أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ)

(رواه أبو داوود).

فالمراء والجدل في الحوار يعدان من التنطع في الدين ، وقد حذر منه النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) ، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ قَالَهَا ثَلَاثًا) (رواه مسلم).

- **رد الاختلاف إلى كتاب الله وسنة رسوله** (صلى الله عليه وسلم) مصداقًا لقوله تعالى:{ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً}(النساء: ٥٩) ، شريطة أن نستنبط الأحكام بالطرق التي استنبط بها علماؤنا السابقون، وليس بالأهواء.
- **الإصغاء وحسن الاستماع**: فأكثرنا يجيد فن الحديث أكثر من فن الاستماع ، على الرغم من أن الله (عز وجل) جعل للإنسان لسانًا واحدًا ، وجعل له أُذنين حتى يسمع أكثر مما يتكلم ، ولكن : {وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ}(العنكبوت: ٤٣) فلابد أن نستمع جيدًا، وأن تستوعب ما يقوله الآخرون.

والإصغاء إلى المتحدث هو دأب النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) فربما تحدَّث معه بعض المشركين كعتبة بن أبي ربيعة بكلام لا يستحق أن يُسمع، فيصغي النبي (صلى الله عليه وسلم) ، حتى إذا انتهى الرجل وفرغ من كلامه قال له (صلى الله عليه وسلم): (أوقد فرغت يا أبا الوليد؟) قال : نعم، قال : (فاسمع مني) ، قال : أفعل، فقال(صلى الله عليه وسلم) : { بسم الله الرحمن الرحيم * حم * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ

الـرَّحِيمِ * كِتَـابٌ فُصِّلَـتْ آيَاتُـهُ قُرْآنًـا عَرَبِيًّـا لِّقَـوْمٍ يَعْلَمُـونَ * بَشِـيرًا وَنَـذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُـمْ لَـا يَسْـمَعُونَ * وَقَـالُوا قُلُوبُنَـا فِـي أَكِنَّـةٍ مِّمَّـا تَـدْعُونَا إِلَيْهِ}[فصلت: ١ : ٥]. ثم مضى رسول الله فيها ، يقرؤها عليه، فلما سمعها منه عتبة أنصت له ، وألقى يديه خلف ظهره معتمدًا عليهما ، يسمع منه.

فبهذه الآداب والمبادئ نصل جميعًا إلى حوار بناء لا يفسد للود قضية ولا يؤدي إلى التنازع والشقاق ، **غير أن هناك آفات في الحوار تجعل منه حوارًا عقيمًا دون جدوى أو فائدة**، منها :

رفع الصوت بالكلام : وكأن المحاور يرى أن انتصاره في الحوار لن يكون إلا عن طريق مبالغته في رفع الصوت على خصمه ، والله تعالى يقول: { إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ} [لقمان:١٩].

تهويل مقالة الطرف الآخر وتحميلها ما لا تحتمل من المعاني ، بل يصل به الحال أن يصف كلام الآخر بالكفر، أو الفسق، أو الابتداع.

المبالغة في وصف الطرف الآخر بالصفات الذميمة التي تنال من شخصه واتهامه بالباطل، فيصفه بما لا يليق من الأوصاف.

إن أدب الحوار يحتاج إليه الإنسان حتى مع من يختلف معه ليحفظ له حقه ، كما حفظ النبي (صلى الله عليه وسلم) حقوق الناس كلهم ، ويحتاج إليه العالم ليحفظ حقوق الطلاب ، ويعدل بينهم، ويفتح لهم صدره ، ويحتاج إليه الأب تحبُبًا إلى قلوب أولاده ، ولا يكون ذلك إلا بالكلم الطيب.

خطورة النفاق والكذب

وضرورة التنشئة على الصدق ومكارم الأخلاق

أولا : العناصر :

١-حقيقة النفاق وأنواعه.

٢-صفات المنافقين.

٣-خطر النفاق على الأمة.

٤-آثار الكذب على الفرد والمجتمع.

٥-ضرورة التنشئة على الصدق ومكارم الأخلاق.

ثانيًا : الأدلـة :

الأدلة من القرآن الكريم :

١- قال الله تعالى: {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ * اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}

[المنافقون: ١، ٢].

٢- وقال تعالى:{إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا} [النساء:١٤٥].

٣- وقال تعالى: {هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ}

[المنافقون: ٤] .

٤- وقال تعالى : {يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ} [البقرة:٩-١٠].

٥- وقال تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ}[البقرة: ١٣] .

٦- وقال تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ}

[البقرة: ١١– ١٢].

٧- وقال تعالى: {الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [التوبة: ٦٧].

٨- وقال تعالى: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [التوبة: ٧٣].

٩- وقال تعالى :{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ}

[التوبة: ١١٩].

١٠- وقال تعالى:{إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ} [النحل: ١٠٥].

الأدلـة من السـنة :

١- عن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أنه قال: (آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ) (متفق عليه).

٢- وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو (رضي الله عنهما) أَنَّ النَّبِيَّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ : (أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ

خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا ، إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ)

(متفق عليه).

٣- وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يقول: (إِنَّ شَرَّ النَّاسِ ذُو الْوَجْهَيْنِ الَّذِي يَأْتِي هَؤُلاَءِ بِوَجْهٍ وَهَؤُلاَءِ بِوَجْهٍ) (متفق عليه).

٤- وعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ (رضي الله عنه) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي كُلُّ مُنَافِقٍ عَلِيمِ اللِّسَانِ)

(مسند أحمد).

٥- وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ (رضي الله عنه) قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْخِلاَلِ كُلِّهَا إِلاَّ الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ)

(مسند أحمد).

٦- وعَنْ صَفْوَانَ بْنِ سُلَيْمٍ (رضي الله عنه) أَنَّهُ قال : قِيلَ للنبي (صَلى الله عَليه وَسلم): أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ جَبَاناً ؟ فَقَالَ : (نَعَمْ ؟). فَقِيلَ لَهُ : أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ بَخِيلاً ؟ فَقَالَ: (نَعَمْ). فَقِيلَ لَهُ : أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ كَذَّاباً ؟ فَقَالَ :(لاَ) (رواه مالك في الموطأ).

٧- وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا ، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى

الْفُجُـورِ ، وَإِنَّ الْفُجُـورَ يَهْـدِي إِلَـى النَّـارِ ، وَمَـا يَـزَالُ الرَّجُـلُ يَكْـذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا) (متفق عليه).

٨- وعَـنْ الْمُغِـيرَةَ بْـن شُـعْبَةَ (رضـي الله عنـه) قَـالَ: سَـمِعْت رَسُـول اللَّـه (صَلَّى اللَّـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ) يَقُـول: (إِنَّ كَـذِبًا عَلَـيَّ لَـيْسَ كَكَـذِبٍ عَلَـى غَيْرِي، فَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَده مِنْ النَّار) (متفق عليه).

٩- وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَـامِرٍ (رضي الله عنه) أَنَّـهُ قَـالَ : دَعَتْنِـي أُمِّـي يَوْمًا وَرَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) قَاعِدٌ فِـي بَيْتِنَـا ، فَقَالَـتْ : هَـا تَعَـالَ أُعْطِكَ ، فَقَالَ لَهَا رَسُـولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) : (وَمَـا أَرَدْتِ أَنْ تُعْطِيـهِ ؟) قَالَـتْ : أُعْطِيـهِ تَمْـرًا ، فَقَـالَ لَهَـا رَسُـولُ اللهِ (صلـى الله عليـه وسلم) : (أَمَا إِنَّكِ لَوْ لَمْ تُعْطِهِ شَيْئًا كُتِبَتْ عَلَيْكِ كِذْبَةٌ)

(رواه أبو داود).

ثالثًا: المــــوضــــوع:

إن من عظمة الدين الإسلامي أنه ما ترك خصلة من خصال الخير ولا طاعة من الطاعات تقربنا من رحمة الله –عز وجل – وجنته ورضوانه إلا وأمرنا بها ورغبنا فيها ، وما ترك خُلقًا ذميمًا ولا خصلة من خصال الشر تبعدنا عن رحمة الله – تعالى – إلا ونهانا عنها وحذرنا منها ، فهو دين يجمع بين القيم والمثل الإنسانية الرائعة التي تجسد الصورة المثلى للأخلاق الفاضلة.

ومــن الخصــال الذميمــة والأمراض الخطيرة التي نهانا عنها وحذرنا منها : مرض النفاق ، فهو مرض من الأمراض الاجتماعية وآفة من

الآفات الخطيرة التي انتشرت في أوساط المسلمين وشاعت في مجتمعاتهم وعلاقاتهم ومعاملاتهم ، والتي تهدد كيان الأمة وتزعزع عقيدتها التي تقوم على الإخلاص في عبادة الخالق والصدق في معاملة المخلوقين.

وحقيقة النفاق: أن يظهر الإنسان خلاف ما يبطن ، فقد يبطن الكفر ويظهر الإيمان ، وقد يبطن الكراهية ويظهر المودة ، أو يبطن الحقد ويظهر الفرح والحب ، أو يبطن الشر ويظهر الخير إلى غير ذلك من المظاهر التي يعرفها الناس.

وقد ظهر النفاق في العهد المدني ، فحين هاجر الرسول (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إلى المدينة وعَلَت كلمة الإسلام وأصبح للمسلمين قوة ، لم يعد بإمكان بعض الكافرين الموجودين في المدينة الجهر بالعداء لدعوة النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فأضمروا الكفر وأظهروا الإسلام حفاظًا على وجودهم ومصالحهم ، فسماهم الله تعالى بالمنافقين.

وقد ذكرهم سبحانه في عدة سور في القرآن الكريم منددًا بهم، ومحذرًا من خطرهم ، وخَصّ الله تعالى سورة باسمهم ، وهي سورة (المنافقون) ، قال تعالى :{إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ * اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}

[المنافقون: ١، ٢].

والنفاق نوعان: **أكبر** ، **وأصغر**.

النـوع الأول: النفـاق الأكـبر وهـو أخطـر النـوعين ، وهـو النفـاق الاعتقادي الذي يظهر صاحبه الإسلام ويبطن الكفر – وهذا النوع مخرج مـن الـدين بالكليـة ، ويخلـد صـاحبه في النـار بـل يجعلـه في الـدركات السفلى مـن النـار ، قـال سبحانه :{إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا}[النساء: ١٤٥].

النوع الثاني: النفاق الأصغر: وهو النفاق العملي ، وهو انحراف في السلوك ، والتلبس بشيء من علامات المنافقين كالكذب في الحديث ، والخلف في الوعد ، والغدر والخيانة ونحوها، وذلك بأن يظهر الإنسان علانية صالحة ويبطن ما يخالفها ، وهذا النوع لا يخرج من الدين بالكلية؛ إلا أنه طريق إلى النفاق الأكبر .

وهذا النوع من النفاق حذرت منه السُّنَّة ، والأصل فيه ما ثبت في الصحيحين من حديث عبد الله بن عمرو ، وأبي هريرة وغيرهما من الصحابة (رضـي الله عـنهم) في ذكـر آيـة المنـافق ، فعـن أبـي هريـرة (رضي الله عنه) عن النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أنه قال: (آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاَثٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ) (متفق عليه). وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو (رضي الله عنهما) أَنَّ النَّبِيَّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ : (أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا ، إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ) (متفق عليه).

فمن اجتمعت فيه هذه الخصال فقد اجتمع فيه الشر، وخلصت فيه نعوت المنافقين، ومن كانت فيه واحدة منها صار فيه خصلة من النفاق.

والمنافق أشر الناس؛ لأنه يبالغ في مدح الناس بالباطل من أجل المآرب والمصالح الشخصية ، ويتلوَّن حسب الطلب ، فيقابل هؤلاء بوجه ، وهؤلاء بوجه آخر، وقد ذم الإسلام ذا الوجهين، فعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يقول: (إِنَّ شَرَّ النَّاسِ ذُو الْوَجْهَيْنِ الَّذِي يَأْتِي هَؤُلاَءِ بِوَجْهٍ وَهَؤُلاَءِ بِوَجْهٍ) (متفق عليه).

هذا النفاق الأصغر هو النفاق الذي كان يخافه السلف الصالح – رحمهم الله – على نفوسهم، مع عمق إيمانهم وكمال علمهم ، فقد أخرج البخاري : تعليقًا – أن ابن أَبِي مُلَيْكَةَ (رحمه الله) قال : (أَدْرَكْتُ ثَلاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ ، مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ يَقُولُ : إِنَّهُ عَلَى إِيمَانِ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ).

لقد اشتد خوف السلف الصالح على أنفسهم أن يكونوا من جملة المنافقين ، فعَنْ حُذَيْفَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: دُعِيَ عُمَرُ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) لِجِنَازَةٍ، فَخَرَجَ فِيهَا أَوْ يُرِيدُهَا ، فَتَعَلَّقْتُ بِهِ فَقُلْتُ: اجْلِسْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنَّهُ مِنْ أُولَئِكَ، فَقَالَ: (نَشَدْتُكَ اللَّهَ أَنَا مِنْهُمْ؟) ، قَالَ: (لا ، وَلا أُبَرِّئُ أَحَدًا بَعْدَكَ) (مسند البزار).

فتأمل ما كان عليه الصحابة الأبرار من خوف شديد من النفاق ودواعيه ، ثم انظر إلى حال الأكثرين منا في هذا الزمان ، فمع ضعف الإيمان تجد الأمن من النفاق والغفلة عنه.

وإن المتأمل في كتاب الله تعالى وسنة رسوله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يجد أن الله تعالى حذر من المنافقين عامة ، فقال تعالى : {هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} [المنافقون: ٤] .

لقد فضحهم الله سبحانه ، وكشف أسرارهم في القرآن الكريم ، وجَلَّى لعباده صفاتهم ؛ ليكونوا منها ومن أهلها على حذر ، فكان الحديث عن النفاق والمنافقين في القرآن في سبع عشرة سورة مدنية من ثلاثين سورة، واستغرق ذلك قرابة ثلاثمائة وأربعين آية، حتى قال ابن القيم (رحمه الله): (كاد القرآن أن يكون كله في شأنهم) (مدارج السالكين)، وذلك لكثرتهم وعموم الابتلاء بهم ، وشدة فتنتهم على الإسلام وأهله ، إنهم لبسوا ثياب أهل الإيمان على قلوب أهل الزيغ والخسران ، رأس مالهم الخديعة والمكر، وبضاعتهم الكذب ، {يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ}[البقرة: ٩،١٠].
وكذلك حذر الرسول (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) من الوقوع في شعب النفاق ، وأنذر من سلوك المنافقين ، خوفًا على أمته من النفاق والمنافقين ، فعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ (رضي الله عنه) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي كُلُّ مُنَافِقٍ عَلِيمِ اللِّسَانِ) (مسند أحمد). ومعنى (عَلِيمِ اللِّسَانِ): عَالِمُ اللِّسَانِ جَاهِلُ الْقَلْبِ وَالْعَمَلِ.

وصدق رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فإن أخطر المصائب في تاريخ الأمة الإسلامية قديمًا وحديثًا تأتي من طريق المنافقين ، ولا نكاد نرى عصرًا من العصور في تاريخ المسلمين إلا ونجد للمنافقين فيه دورًا خطيرًا ، فقد أفسدوا عقائد كثير من الناس ، فالمنافقون قوم ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أمر من الصبر، يلبسون للناس مُسُوك الضأن وقلوبهم قلوب الذئاب. إنهم يستخفون من الناس ولا يراقبون عالم السرائر، ويحرصون على تزيين ظواهرهم بالأقوال والأفعال ويخفون في بواطنهم السوء.

ولخطورة هذا الصنف من الناس ذكر الله تعالى للمنافقين صفات كثيرة ، أخطرها : الكفر بالله ، قال تعالى : {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ} [البقرة: ١٣] .

ومن صفاتهم: الفساد في الأرض بالكفر والنفاق، قال تعالى:{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ} [البقرة:١١، ١٢].

ومن صفاتهم : الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف ، والبخل بالمال ، كما أخبر الله عنهم بقوله : {الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [التوبة: ٦٧].

ومن صفاتهم : البهتان والكذب ، كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله : {وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ} [التوبة: ٥٦]. فالكذب علامة واضحة تشهد على صاحبها بالنفاق ، كما ورد في حديث أبي هريرة (آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ) [البخاري، مسلم]. إلى غير ذلك من الصفات التي وردت في الكتاب والسنة.

إن أكبر خطر تهددت به الأمة الإسلامية على مر العصور هو النفاق ، فإذا نظرنا في مسيرة التاريخ الإنساني لوجدنا أن النفاق هو العامل الأخطر في تقويض الدولة الإسلامية، لأنه يدب في جسد الأمة كما يدب السرطان في جسد الناس، ولا يشعرون به إلا وهم جثة هامدة ، وهذا مايحدثه النفاق في وحدة الأمة، حيث يجعلها جثة هامدة عن طريق إحداث الفتنة والاضطرابات والفرقة، والعمالة مع أعداء الإسلام في هدم الإسلام والمسلمين.

فالنفاق داء الأمة العضال ، خطره عظيم ، والمنافقون أشد خطرًا على المسلمين؛ لأنهم يخالطونهم ويعلمون أحوالهم ، وبلية المسلمين بهم أعظم من بليتهم بالكفار المجاهرين، ولهذا قال تعالى : {هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} [المنافقون: ٤] .

ومما يؤكد خطر النفاق : أن الكثير من شعب النفاق الأصغر – الذي لا يخرج عن الملة – قد عمت وانتشر ت في مجتمعات المسلمين ، كالكذب ، وخلف الوعد والغدر والخيانة ، وغير ذلك ، بل استفحل الأمر

وعظم النفاق حتى صرنا نشاهد صورًا أو أنواعًا من النفاق الأكبر في بلاد المسلمين.

ولما كان خطر الكفار والمنافقين على الأمة الإسلامية عظيمًا أمر الله رسوله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بمجاهدتهم والغلظة عليهم ، فقال تعالى : {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [التوبة: ٧٣].

ولئن كانت وصية ربنا سبحانه لنا ملازمة التقوى والتزام الصدق لكونهما طريق مرضاة الله وعنوان الفوز بجنات النعيم ، كما قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ}[التوبة: ١١٩] ، فإن من أقبح الصفات وأشنع الخصال صفة الكذب.

فالكذب من السلوكيات المذمومة التي حذر منها القرآن الكريم ، أمره خطير وشره مستطير ، فهو جماع كل شرٍّ وأصل كل ذمٍّ لسوء عواقبه وخبث نتائجه ، وإن كان علامة وخصلة من خصال النفاق إلا أنه أولى صفات المنافق ، وركن من أركان النفاق، فإذا ذُكر النفاق في القرآن ذُكر معه الكذب ، وإذا ذُكر الكذب ذُكر معه النفاق ، قال تعالى:{إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ} [المنافقون:١]، وقال تعالى: {يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ} [البقرة:٩-١٠].

فالكذب عنوان النفاق ، إضافة إلى أن وجوده في الشخص دليل على ضعف الإيمان، لذلك أثر عن رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قوله: (يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْخِلاَلِ كُلِّهَا إِلاَّ الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ) ، ولقد نفى رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عن المؤمن أن يكون كذابًا ، حين سئل: (أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ جَبَانًا ؟ فَقَالَ :(نَعَمْ ؟). فَقِيلَ لَهُ : أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ بَخِيلاً ؟ فَقَالَ: (نَعَمْ). فَقِيلَ لَهُ : أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ كَذَّابًا ؟ فَقَالَ : (لاَ) (رواه مالك في الموطأ]. وما ذاك إلا لأن الكذب صفة ذميمة، تهدم شخصية المسلم بين الصادقين، وتعرضه لعقاب الله عز وجل ، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ}[غافر: ٢٨] ، وقال سبحانه: {إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ}

[النحل: ١٠٥].

إن للكذب أشكالًا وألوانًا أخطرها وأقبحها : الكذب على الله – عز وجل – فقد وصفه الله – تعالى – بأبشع الظلم، وتوعد عليه أليم العقاب وسوء المصير ، قال سبحانه: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ} [الزمر: ٣٢]. فالكذب حرام بكل أشكاله وألوانه، وإن الكذابين الأفاكين لا مكان لهم في الإسلام، ولا خلاق لهم عند الله، وليس لهم في الآخرة إلا النار وبئس القرار.

إن الذين يكذبون على الله – من المتطاولين والمتعالين – وينسبون لشرعه ما ليس منه تحليلًا وتحريمًا من أجل تبرير مصالحهم

وتصرفاتهم، يسلكون مسلكًا خطيرًا يؤدي إلى العبث بمصالح الأمة ، وسفك دمائها ، وبث الفرقة والشتات في صفوفها ، لذا حذرنا ربنا سبحانه من هذا المسلك في قوله: {وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [النحل: ١١٦، ١١٧].

كذلك من أخطر الكذب وأشنعه : الكذب على رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، ولخطورة عواقبه حذر منه النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ووصف صاحبه بأنه يشتري بذلك مقعده في النار، فعَنْ الْمُغِيرَة بْن شُعْبَة قَالَ: سَمِعْت رَسُول اللَّه (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَقُول: (إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَى غَيْرِي، فَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَده مِنْ النَّار). (متفق عليه).

إن الكذب بالإضافة إلى كونه محرمًا شرعًا فله عواقب وخيمة على الأفراد والمجتمعات في الدنيا والآخرة، فمن خبيث ثماره ووخيم عواقبه أنه يخلف في الفم نتنًا يجعل الملائكة تنفر منه، فعن ابنِ عُمَرَ (رضي الله عنهما) أن النبيّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قالَ: (إذا كَذَبَ العَبْدُ تَبَاعَدَ عَنْهُ المَلَكُ مِيلاً مِنْ نَتنِ ما جاءَ به)(سنن الترمذي)، ويقول الله تعالى: {هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ} [الشعراء: ٢٢١ – ٢٢٣].

ومن آثار وعواقب الكذب في الآخرة أن مآل صاحبه يوم القيامة نار جهنم والعياذ بالله ، كما جاء في الحديث: (وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّ

الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا).

وهكذا بقية شُعَب النفاق العملية ، من إخلاف الوعد ، وفجور في الخصومة ، وخيانة في الأمانة وغيرها، قد نتساهل بها أحيانًا وهي طريقُ الضلالِ والنفاقِ الأكبر ، فليحذر العاقلُ من شُعَبِ النفاق كُلِّها ويتهم نفسه كما اتهم السابقون أنفسهم ، وليطيِّب أعماله كما طيَّبها السابقون، فإن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا ، فلنحذر ذا الوجهين هو من شرار الخلق ، كما قال النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (تجدون شر الناس ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه ، وهؤلاء بوجه) (رواه البخاري) ، فهذا الصنيع وإن كان في عرف المتأخرين دهاءٌ ولباقة فهو في عرف المتقدمين كذب ونفاق وخيانة .

لذلك فإننا بحاجة شديدة إلى اجتثاث هذا الخلق الشنيع من بيننا و تطهير المجتمع من مظاهره ، وأن نتحلى بخلق الصدق الذي أمرنا به ربنا سبحانه وتعالى ، فقال:{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ}[التوبة: ١١٩] ، وكذلك وصانا به رسولنا (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فقال : (عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا ، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا) (متفق عليه).

كما يجب علينا أن نغرس فضيلة الصدق في نفوس أطفالنا ، حتى يشبوا عليها ، وقد ألفوها في أقوالهم وأحوالهم كلها ، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَامِرٍ (رضي الله عنه) أَنَّهُ قَالَ : دَعَتْنِي أُمِّي يَوْمًا وَرَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) قَاعِدٌ فِي بَيْتِنَا ، فَقَالَتْ : هَا تَعَالَ أُعْطِكَ ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) : وَمَا أَرَدْتِ أَنْ تُعْطِيهِ ؟ قَالَتْ : أُعْطِيهِ تَمْرًا ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) : أَمَا إِنَّكِ لَوْ لَمْ تُعْطِهِ شَيْئًا كُتِبَتْ عَلَيْكِ كِذْبَةٌ) (رواه أبو داود). وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) عَنْ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أَنَّهُ قَالَ: (مَنْ قَالَ لِصَبِيٍّ: تَعَالَ هَاكَ، ثُمَّ لَمْ يُعْطِهِ فَهِيَ كَذْبَةٌ) (رواه أحمد).

فلننظر كيف علَّم الرسول (صلى الله عليه وسلم) الأمهات والآباء أن يُنشئوا أولادهم تنشئة يقدسون فيها الصدق ، ويتنزهون عن الكذب ، ولو أنه (صلى الله عليه وسلم) تجاوز عن هذه الأمور وحسبها من التوافه الهينة لخشي أن يكبر الأطفال وهم يعتبرون الكذب ذنبًا صغيرًا وهو عند الله عظيم.

* * *

آفات اللسان وضرورة حفظه

أولا: العناصر:

١. نعمة اللسان وضرورة صيانته ، والتحذير من التساهل في أمره .

٢. خطر اللسان على بقية الجوارح.

٣. صور من آفات اللسان (الكذب – الغيبة – النميمة– السب والقذف).

٤. الطريق إلى كف اللسان عن المحرمات.

٥. خطر القلم لا يقل عن خطر اللسان.

ثانيا الأدلة:

الأدلة من القرآن الكريم:

١. قال تعالى:{ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ} [البلد: ٨ ـ ٩] .

٢. وقال تعالى: {مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} [ق: ١٨] .

٣. وقال تعالى: {وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ} [المؤمنون: ٣] .

٤. وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا} [الأحزاب: ٧٠ ـ٧١] .

٥. وقال تعالى: {وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً} [الإسراء: ٧٠ ـ٧١] .

٦. وقال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ}

[الحجرات: ١٢] .

٧. وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ* يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[النور: ٢٣] .

الأدلة من السنة النبوية:

١. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ): (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلاَ يُؤْذِ جَارَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا ، أَوْ لِيَصْمُتْ) (رواه البخاري).

٢. وعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ (رضي الله عنه) قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ) فِى سَفَرٍ فَأَصْبَحْتُ يَوْمًا قَرِيبًا مِنْهُ وَنَحْنُ نَسِيرُ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِى بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِى الْجَنَّةَ وَيُبَاعِدُنِى مِنَ النَّارِ. قَالَ: (لَقَدْ سَأَلْتَنِى عَنْ عَظِيمٍ وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ، تَعْبُدُ اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَتُقِيمُ الصَّلاَةَ وَتُؤْتِى الزَّكَاةَ وَتَصُومُ رَمَضَانَ وَتَحُجُّ الْبَيْتَ)، ثُمَّ قَالَ: (أَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ الصَّوْمُ جُنَّةٌ وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ وَصَلاَةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ)، قَالَ ثُمَّ تَلاَ (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ) حَتَّى بَلَغَ: (يَعْمَلُونَ) ثُمَّ قَالَ : (أَلاَ أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الأَمْرِ كُلِّهِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ). قُلْتُ بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : (رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلاَمُ وَعَمُودُهُ الصَّلاَةُ وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ)، ثُمَّ قَالَ: (أَلاَ أُخْبِرُكَ بِمَلاَكِ ذَلِكَ كُلِّهِ ؟) قُلْتُ : بَلَى يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، قَالَ: فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ وقَالَ : (كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا). فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ

وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ): (ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ) (رواه الترمذي).

٣. وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) عَنِ النَّبِيِّ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ) قَالَ : (الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ) (رواه البخاري).

٤. وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ) قَالَ : (أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ) قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ: (ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ)، قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: (إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ) (رواه مسلم).

٥. وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ): (عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا ، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا). (رواه مسلم).

٦. وعنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ): (مِنْ حُسْنِ إِسْلاَمِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لاَ يَعْنِيهِ) (رواه الترمذي).

٧. وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) عَنِ النَّبِيِّ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ) قَالَ : (إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ لاَ يُلْقِي لَهَا بَالاً يَرْفَعُ اللَّهُ

بِهَا دَرَجَاتٍ وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ لاَ يُلْقِي لَهَا بَالاً يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ) (رواه البخاري).

ثالثا: الموضوع:

لقد خلق الله (عز وجل) الإنسان في أحسن تقويم ، وصوره في أبدع صورة وأبهى مظهر ، وأودع فيه من جمال الخلقة ما يبهر العقول ، فكل عضو في الإنسان آية من آيات الله (عز وجل) دالة على كمال قدرته ، وعظمة حكمته ، ويأتي اللسان على رأس هذه الأعضاء التي امتن الله (عز وجل) بها على الإنسان ، فقال تعالى:{أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ}[البلد: ٨ ـ ٩] . فهو من أجل النعم العظيمة التي أنعم الله بها على الإنسان ، فبه المنطق والبيان ، وبه تتضح الحجة والبرهان ، قال تعالى: {الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ}[الرحمن:١– ٤] ، فهو جزء صغير لكنه في جُرمه أو صلاحه كبير ، إذ هو ترجمان القلوب والأفكار ، له في الخير مجال ، وله في الشر أيضا مجال.

فمن استخدمه في طاعة الله كقراءة القرآن ، والكلم الطيب النافع ، وقيده بلجام الشرع فلا يتحدث إلا بالخير ، ولا يتكلم إلا بما برضي الله (عز وجل) فقد أقر بالنعمة لصاحبها ، وكان هذا شكراً لله على هذه النعمة ، وحينئذ تحصل له السعادة في الدنيا والنجاة في الآخرة ، قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا}

[الأحزاب: ٧٠ ـ٧١] ، وكان ذلك علامة على كمال إيمانه ، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ): (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلاَ يُؤْذِ جَارَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا ، أَوْ لِيَصْمُتْ) (رواه البخاري).

أما من أطلق لسانه وأهمله مرخي العنان ، واستخدمه في طاعة الشيطان ، والتفريق بين المسلمين، والكذب وقول الزور ، والغيبة والنميمة، وانتهاك أعراض المسلمين وغير ذلك مما حرمه الله ورسوله ، كان هذا كفراناً لهذه النعمة العظيمة ، وحينئذ يكون الهلاك والخسران مآله ، وجهنم عذابه ، فعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ (رضي الله عنه) قَالَ : كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ) فِي سَفَرٍ فَأَصْبَحْتُ يَوْمًا قَرِيبًا مِنْهُ وَنَحْنُ نَسِيرُ فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِى بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِى الْجَنَّةَ وَيُبَاعِدُنِى مِنَ النَّارِ. قَالَ: (لَقَدْ سَأَلْتَنِى عَنْ عَظِيمٍ وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ، تَعْبُدُ اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ، وَتُقِيمُ الصَّلاَةَ وَتُؤْتِى الزَّكَاةَ وَتَصُومُ رَمَضَانَ وَتَحُجُّ الْبَيْتَ)، ثُمَّ قَالَ: (أَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ : الصَّوْمُ جُنَّةٌ وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ وَصَلاَةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ)، قَالَ ثُمَّ تَلاَ (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ) حَتَّى بَلَغَ: (يَعْمَلُونَ) ثُمَّ قَالَ : (أَلاَ أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الأَمْرِ كُلِّهِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ). قُلْتُ بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : (رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلاَمُ وَعَمُودُهُ الصَّلاَةُ وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ)، ثُمَّ قَالَ: (أَلاَ أُخْبِرُكَ بِمَلاَكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟) قُلْتُ : بَلَى يَا نَبِىَّ اللَّهِ ، قَالَ: فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ قَالَ: (كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا). فَقُلْتُ: يَا نَبِىَّ اللَّهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا

نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ): (ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِى النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ) (رواه الترمذي).

ومن هنا فإنَّ اللسان إما أن يوصل صاحبه إلى عليين ، وإما أن ينزله إلى أسفل السافلين ، فرب كلمة ينطق بها الإنسان تكون سببا في نجاته ، ورب كلمة يتلفظ بها الإنسان لا يلقي لها بالا ، ولا يعرف لها قيمة تكون سببا في هلاكه ، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) عَنِ النَّبِيِّ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ) قَالَ : (إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ لاَ يُلْقِي لَهَا بَالاً يَرْفَعُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ لاَ يُلْقِي لَهَا بَالاً يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ) (رواه البخاري). فلا ينجو من شر اللسان إلا من قيده بلجام الشرع ، فلا يطلقه إلا فيما ينفعه في الدنيا والآخرة.

ولقد بين الحق سبحانه وتعالى في القرآن الكريم خطورة اللسان على الإنسان ، حيث جاء الأمر الإلهي بحفظ اللسان ، فقال تعالى:{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ * إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} [ق: ١٦– ١٨]. وتشتد خطورة اللسان على جوارح الإنسان ، فكلها مرتبطة به في الاستقامة والاعوجاج ، فعَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِىِّ (رضي الله عنه) ـ رَفَعَهُ ـ قَالَ: « إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ فَإِنَّ الأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكَفِّرُ اللِّسَانَ فَتَقُولُ اتَّقِ اللَّهَ فِينَا فَإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ فَإِنِ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا وَإِنِ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا ».(رواه الترمذي) ،

ولقد فطن الصالحون لخطورة اللسان فضربوا أروع الأمثلة في حفظهم لألسنتهم ، وخوفهم من آفاته، فهذا سيدنا أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) يمسك بلسانه ويقول : هَذَا الَّذِي أَوْرَدَنِي الْمَوَارِدَ ، وَقَالَ ابْنُ بُرَيْدَةَ : رَأَيْت ابْنَ عَبَّاسٍ (رضي الله عنهما) أَخَذَ بِلِسَانِهِ وَهُوَ يَقُولُ : " وَيْحَك قُلْ خَيْرًا تَغْنَمْ أَوْ اُسْكُتْ عَنْ شَرٍّ تَسْلَمْ ، وَإِلا فَاعْلَمْ أَنَّك سَتَنْدَمُ " فَقِيلَ لَهُ : يَا أَبَا عَبَّاسٍ لِمَ تَقُولُ هَذَا ؟ قَالَ: " إنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّ الإِنْسَانَ- أُرَاهُ قَالَ- لَيْسَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ جَسَدِهِ أَشَدَّ حَنَقًا أَوْ غَيْظًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْهُ عَلَى لِسَانِهِ إلا قَالَ بِهِ خَيْرًا أَوْ أَمْلَى بِهِ خَيْرًا ".

وقال الإمام عليّ بن أبي طالب (رضي الله عنه): «اللّسان قوام البدن ، فإذا استقام اللّسان استقامت الجوارح ، وإذا اضطرب اللّسان لم تقم له جارحة».

اِحفَظ لسانَكَ أيُّها الإنسانُ ... لا يَلدغَنَّكَ إنَّه ثُعبانُ

كم في المقابِرِ من لديغِ لِسانِهِ ... كانت تهابُ نِزالَهُ الشُجعانُ

وهذا عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) يقول: (وما من شيء أحوج إلى طول سجن من اللسان). وَقَالَ الْحَسَنُ (رضي الله عنه) : اللِّسَانُ أَمِيرُ الْبَدَنِ إذَا جَنَى عَلَى الأَعْضَاءِ شَيْئًا جَنَتْ، وَإِذَا عَفَّ عَفَّتْ . ومن ثمَّ يتضح أن صيانة اللسان دليل على كمال الإيمان ، وحسن الإسلام ، وسبيل الوصول إلى الفردوس الأعلى ، قال تعالى:{وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ}[المؤمنون:٣] إلى أن قال:{أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[المؤمنون:١٠-١١].

وعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الجَنَّةَ)

(صحيح البخاري).

وللسان آفات كثيرة وعظيمة حذرنا منها ديننا الحنيف ، منها :

* **منها : الكذب** ، وهو مخالفة الخبر للواقع ، فهو من قبائح الذنوب وفواحش العيوب ، وهو من الخصال الذميمة التي حذر منها الإسلام أشد تحذير ، حتى عدَّها النبي (صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ) خصلة من خصال النفاق ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) عَنِ النَّبِيِّ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ) قَالَ: (آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاَثٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ) (رواه البخاري). فالكذب علامة واضحة تشهد على صاحبها بالنفاق ، ومن ثمَّ فالكذب سبب للهلاك ، فعن عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ): (عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا ، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا) (رواه مسلم).

إن الكذب جماع كل شر ، وأصل كل ذمٍّ ، لسوء عاقبته، وخبث نتائجه، لأنه ينتج النميمةَ، والنميمةُ تنتج البغضاءَ ، والبغضاءُ تؤول إلى العداوة ، وليس مع العداوة أمن ولا راحة ؛ ولذلك قيل: " من قلَّ صدقُه قلَّ صديقُه".

وأفحش أنواع الكذب ما كان على الله (عز وجل) ورسوله الكريم (صلى الله عليه وسلم) وخاصة فيما يتعلق بشرع الله وسنة حبيبه (صلى الله عليه وسلم) من خلال الكلام والفتيا بغير علم، وإطلاق العنان للسان في التحليل والتحريم ، أو الاعتراض على النصوص الشرعية الثابتة والتي تلقتها الأمة بالقبول ، قال تعالى :{وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}

[النحل: ١١٦، ١١٧].

وكذا من أفحش أنواع الكذب ما أدى إلى فرقة المسلمين عن طريق نشر الأخبار الكاذبة والشائعات الباطلة ، وهذا عمل لا يجيده إلا كل منافق لا يحب دينه ولا وطنه ولا إخوانه ؛ لذا: كان حريٌّ بالمسلم أن يَحذر كل الحذر من القول على الله تعالى بغير علم حتى لا يقع تحت الوعيد الإلهي لمن يفعل ذلك ، قال تعالى: {وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ}[الزمر: ٦٠] .

الكذبُ عار وخير القول أصدقه ***** والحق ما مسهُ من باطلٍ زهقا

ويلحق بالكذب قول الزور وشهادة الزور ، يقول النبي (صلى الله عليه وسلم) : (مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ) (صحيح البخاري).

* **ومن آفات اللسان المهلكة: السخرية والاستهزاء** : فقد نهى الله تعالى المسلم عن السخرية والاستهزاء بإخوانه ، والتحقير من شأنهم ، فقد يكون المستهزَأ به أكرم عند الله تعالى من المستهزِئ ، فيكون قد ظلم نفسه بتحقير من وقَّره الله (تعالى) وكرَّمه ، قال تعالى :{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}[الحجرات:١١] . وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) يَقُولُ: (رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ تَنْبُو عَنْهُ أَعْيَنُ النَّاسِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ)

(المستدرك على الصحيحين للحاكم).

* **ومن صور آفات اللسان : الغيبة** : وهي ذكر المسلم أخاه بسوء في غيابه ؛ لذلك سميت بالغيبة ، فعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: (أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ). قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ: (ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ)، قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ ، قَالَ : (إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ) (رواه مسلم).

وقد ورد النهي عنها في القرآن الكريم ؛ لأنها تؤدي إلى تقطيع روابط الألفة والمحبة بين الناس، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم

بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ}[الحجرات:١٢] ، فلقد مثّل الله (عز وجل) الغيبة بأكل الميتة لأن الميت لا يعلم بأكل لحمه كما أن الحي لا يعلم بغيبة من اغتابه ، وقال ابن عباس (رضي الله عنهما) : " إنما ضرب الله هذا المثل للغيبة لأن أكل لحم الميت حرام مستقذر وكذا الغيبة حرام في الدين وقبيح في النفوس".

ومن هنا يجب على المسلم أن يمسك لسانه حتى لا يقع في أعراض الناس فيكون من الهالكين، فعن أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (صلي الله عليه وسلم): (لَمَّا عُرِجَ بِي مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ يَخْمِشُونَ وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ فَقُلْتُ مَنْ هَؤُلاَءِ يَا جِبْرِيلُ قَالَ هَؤُلاَءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ) (رواه أبو داود) . وليحذر المسلم من آفات اللسان ، ويحفظه إلا من القول الطيب ، فعَنْ عُقْبَة بْن عَامِرٍ قال: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ ، مَا النَّجَاةُ ؟ قَالَ: (أَمْلِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ ، وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ) (مسند أحمد) .

وليعلم الإنسان أن انتقام الله تعالى من المغتاب يكون من جنس عمله وذنبه ، فمن اغتاب الناس قيض الله له من يغتابه ، ومن تتبع عورات الناس قيض الله له من يتتبع عوراته ، فعَنْ أَبِى بَرْزَةَ الأَسْلَمِيِّ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): (يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الإِيمَانُ قَلْبَهُ لاَ تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ وَلاَ تَتَّبِعُوا

عَوْرَاتِهِمْ فَإِنَّهُ مَنِ اتَّبَعَ عَوْرَاتِهِمْ يَتَّبِعِ اللَّهُ عَوْرَتَهُ وَمَنْ يَتَّبِعِ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ) (رواه أبو داوود).

إضافة إلى أنه يأتي يوم القيامة ولا حسنة له ، لأن من اغتابهم أخذوا من حسناته حتى وصل لدرجة الإفلاس ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: « أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ ». قَالُوا الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعَ. فَقَالَ : (إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ) (رواه مسلم).

* **وكذلك من آفات اللسان أيضًا : النميمة** ، وهي نقل الكلام بين الناس بقصد الإفساد بينهم ، الأمر الذي يؤدي إلى تقطيع الأواصر والعلاقة بين الناس ، وقد ورد النهي عنها في القرآن الكريم، قال تعالى :{وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ * هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ}[القلم:١١،١٠] ، وقد بين النبي (صلى الله عليه وسلم) أن النمام من شرار خلق الله (عز وجل) ، فعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ أَنَّ النَّبِيَّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخِيَارِكُمْ) قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ ، قَالَ: (الَّذِينَ إِذَا رُؤُوا، ذُكِرَ اللهُ تَعَالَى) ثُمَّ قَالَ: (أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِشِرَارِكُمْ؟ الْمَشَّاءُونَ بِالنَّمِيمَةِ ، الْمُفْسِدُونَ بَيْنَ الْأَحِبَّةِ، الْبَاغُونَ لِلْبُرَآءِ الْعَنَتَ) (مسند أحمد).

*** ومن آفات اللسان المهلكة: السب والقذف لأعراض الشرفاء ،** وهو أمر يهدد بنيان المجتمع ويؤدي لانتشار الفوضى بين أبناء الوطن الواحد ، لذا جاء الأمر بالنهي عنه وإيجاب الحد على فاعله ، والوعيد الشديد باللعن له في الدنيا والآخرة ، قال تعالى: {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}[النور: ٣] ، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ* يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ}

[النور:٢٣ - ٢٤ - ٢٥].

وقد نهى النبي (صلى الله عليه وسلم) عن السبّ وجعله نوعًا من أنواع الفسوق ، فقَالَ: (سِبَابُ المُسْلِمِ فُسُوقٌ ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ) (صحيح البخاري) ، وكذلك جعل القذف أحد السبع المهلكات، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) عَنِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: (اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا هُنَّ قَالَ الشِّرْكُ بِاللَّهِ وَالسِّحْرُ وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَكْلُ الرِّبَا وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلاَتِ) (رواه مسلم). فرمي الأبرياء بالباطل صناعة الجبناء لئام الطباع ، مرضى النفوس ، مروجها مجرم في حق دينه ومجتمعه وأمته، مثيرٌ للاضطراب والفوضى في الأمة.

فاللسان نعمة ونقمة في آن واحد ، فإذا سخره الإنسان في طاعة الله (عز وجل) أوصله إلى رضوان الله تعالى ومرضاته ونعيمه المقيم، وإن سخره فيما لا يرضي الله تعالى كان ذلك سبباً في هلاكه وخسرانه في الدنيا والآخرة ، وصدق النبي (صلى الله عليه وسلم) حيث قال : « المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ ، وَالمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ» (صحيح البخاري). وفي صحيح الإمام مسلم "سُئِلَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أَيُّ الْمُسْلِمِينَ أَفْضَلُ؟ قَالَ: (مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ).

فحري بالمسلم أن يضبط لسانه ، ويسأل نفسه قبل أن يتحدث عن جدوى الحديث وفائدته؟ فإن كان خيراً تكلم وإلا سكت والسكوت في هذه الحالة عبادة يؤجر عليها ، وصدق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حيث قال: (ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت) (رواه البخاري ومسلم).

وكما أن للسان زلات تدمر المجتمع ، كذلك أيضا للقلم آفات وزلات تدمر الأمة بأسرها ، حيث إن القلم الذي يعبر به صاحبه عن ما بداخله من أفكار هو ترجمان اللسان ، فقد يظن البعض أن اللسان فقط هو طريق عبور الكلمة وما تحمله من معلومات ، والصواب أن القلم طريق ذلك أيضا، وكما قال الجاحظ: (القلم أحد اللسانين ، والقلم أبقى أثراً) ، بل هو أحدّ من السيف في قوته، ويصل إلى أبعد مما يصل إليه اللسان.

فخطورة الكلمة بالقلم لا تقل عن خطورة الكلمة باللسان ، من هنا وجب على كل صاحب قلم أن يعطي القلم حقه ويؤديه كما ينبغي ،

ويحرص عليه من الوقوع في الزلل ، فهو يعكس خُلقه وآراءه ، ويستعمله في مناصرة الحق، والمناداة للفضيلة ، فالقلم أمانة يجب أن تُصان.

أقسم الله تعالى به فقال: {ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ} [القلم:١] ، وبه يكتب الملائكة أقوال المكلفين وأفعالهم ، قال تعالى: {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ} [الانفطار:١٠ــ١١] ، وبه دُونت العلوم وبه حُفظت ، وبسببه ارتقى أقوامٌ، وخُلد أعلام ، وفاز كرام ، وخسر لئام ، فكم من ضال اهتدى بأنواره ، وكم من عاقل ضاع بشطحاته ، فهو – القلم– في يد الأمناء وسيلة للخير وجمع كلمة المسلمين ، وفي يد السفهاء سبب لتفريق الكلمة.

ومن صور آفات القلم وزلاته : نشر الأخبار الكاذبة ، وتشويه الحقائق أو تدليسها ، والنيل من أعراض الشرفاء ، وكل ما يتصل بنشر ما يشيع الفاحشة .

إن الأمة في حاجة ماسة إلى كل قلم صادق أمين ، ينشر الحق ويدافع عنه ، ويرشد الناس إلى ما فيه خير دينهم ودنياهم ، وليعلم كل صاحب قلم أنه سيفنى ويبقى قلمه شاهدًا عليه، فليكتب ما يسره أن يراه في الآخرة.

ورحم الله الشاعر حين قال:

ما من كاتب إلا سيفنى ... ويبقى الدهر ما كتبت يداه
فلا تكتب بكفك غير شيء ... يسرك في القيامة أن تراه

* * *

حق المرأة في الميراث والحياة الكريمة

أولًا: العناصر:

١- مكانة المرأة في الإسلام.

٢- تكريم الإسلام للمرأة (أمًا ، وبنتًا ، أختًا ، وزوجة).

٣- حث الإسلام على حق البنت في التربية السوية كالولد سواء بسواء.

٤- حق المرأة في الميراث .

ثانيا: الأدلة:

الأدلة من القرآن الكريم :

١- يقول تعالى: {يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا} [النساء:١١].

٢- ويقول تعالى: {وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ

كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ} [النساء: ١٢].

٣- ويقول تعالى: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ} [النساء: ١٣، ١٤].

٤- ويقول تعالى : {لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا} [النساء: ٧].

٥- ويقول تعالى:{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا} [النساء: ١٩].

٦- ويقول تعالى :{وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا * رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا} [الإسراء: ٢٣ – ٢٥].

٧- ويقول تعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ }

[لقمان: ١٤].

٨- ويقول تعالى:{وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [الأحقاف: ١٥].

الأدلة من السنة والآثار:

١- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ : (أُمُّكَ) قَالَ: ثُمَّ مَنْ ؟ قَالَ: (ثُمَّ أُمُّكَ) قَالَ: ثُمَّ مَنْ ؟ قَالَ: (ثُمَّ أُمُّكَ) ، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ : (ثُمَّ أَبُوكَ) (صحيح البخاري).

٢- وعَنْ ابنِ عباس (رضي الله عنهما) قال: قال رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ كَانَتْ لَهُ أُنْثَى فَلَمْ يَئِدْهَا وَلَمْ يُهِنْهَا وَلَمْ يُؤْثِرْ وَلَدَهُ عَلَيْهَا – قَالَ يَعْنِى الذُّكُورَ – أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ) (سنن أبي داود).

٣- وعَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه) قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) : (مَنْ كُنَّ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ أَوْ ثَلَاثُ أَخَوَاتٍ أَوْ بِنْتَانِ أَوْ أُخْتَانِ اتَّقَى اللَّهَ فِيهِنَّ وَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ حَتَّى يَبِنَّ أَوْ يَمُتْنَ كُنَّ لَهُ حِجَابًا مِنْ النَّارِ) (مسند أحمد).

٤- وعن عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ الْجُهَنِيَّ (رضي الله عنه) قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) يَقُولُ :(مَنْ كَانَتْ وَقَالَ مَرَّةً مَنْ كَانَ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ فَصَبَرَ عَلَيْهِنَّ فَأَطْعَمَهُنَّ وَسَقَاهُنَّ وَكَسَاهُنَّ مِنْ جِدَّتِهِ كُنَّ لَهُ حِجَابًا مِنْ النَّارِ) (مسند أحمد).

٥- وعَنْ عِمْرَانَ بْنِ سُلَيْمٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَنْ قَطَعَ مِيرَاثًا فَرَضَهُ اللَّهُ قَطَعَ اللَّهُ مِيرَاثَهُ فِي الْجَنَّةِ)

(سنن سعيد بن منصور).

٦- ويقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): (كُنَّا فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَا نَعُدُّ النِّسَاءَ شَيْئًا فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ وَذَكَرَهُنَّ اللَّهُ رَأَيْنَا لَهُنَّ بِذَلِكَ عَلَيْنَا حَقًّا) (صحيح البخاري).

ثالثًا: الموضــــــوع :

لقد اهتم الإسلام بالمرأة اهتمامًا بالغًا ، فرفع مكانتها وعظَّم منزلتها ، وجعلها مرفوعة الرأس عالية القدر ، تتمتع بشخصية محترمة وحقوق مقررة وواجبات معتبرة ، وبالجملة أكرمها أيما إكرام، فصان شخصيتها وردّ عنها ألوانًا من الظلم تراكمت عليها عبر قرونٍ طويلة ، وبث روح الأمل في نفوس النساء فساوى بينهن وبين الرجال في الثواب والجزاء على العمل الصالح ، يقول تعالى:{فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ}[آل عمران: ١٩٥] ، ويقول سبحانه:{مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النحل: ٩٧] .

ولقد بلغ من تكريم الإسلام للمرأة أن خصص لها سورة من القرآن سماها « سورة النساء » ، فدلَّ ذلك على اهتمام الإسلام بالمرأة اهتماماً كبيراً ، بخلاف ما كان عليه أمرها في الجاهلية قبل الإسلام ، فقد ظلمت المرأة في الجاهلية ظلماً شديداً ، فلما جاء الإسلام رفع مكانتها ، وأعلى

شأنها ، وأعزها وأكرمها ، يقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): (كُنَّا فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَا نَعُدُّ النِّسَاءَ شَيْئًا فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ وَذَكَرَهُنَّ اللَّهُ رَأَيْنَا لَهُنَّ بِذَلِكَ عَلَيْنَا حَقًّا) (صحيح البخاري).

وكما حرص الإسلام على حفظ كرامة المرأة ، واحترام شخصيتها المعنوية ، أثبت لها حقها في التصرف ومباشرة جميع الحقوق كحق البيع ، وحق الشراء ، وغير ذلك ، قال تعالى :{لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْن}[النساء:٣٢] ، وهكذا فالمرأةُ في ظل تعاليم الإسلام القويمة وتوجيهاتِه الحكيمة تعيش حياةً كريمة في مجتمعها المسلم ، حياةً مِلؤها الحفاوةُ والتكريم من أوَّل يوم تقدُم فيه إلى هذه الحياة، مُرورًا بكل حال من أحوال حياتها ، أماً كانت ، أو بنتاً ، أو أختاَ ، أو زوجة ، أو امرأة من سائر أفراد المجتمع.

أما تكريم الإسلام للمرأة أمًّا ، فقد دعا إلى إكرامها إكرامًا خاصًّا ، والإحسان إليها ، وحثّ على العناية بها ، فقال تعالى:{وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا}[الإسراء:٢٣، ٢٤] ، وقال سبحانه: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ} [لقمان: ١٤].

فأي تكريم أعظمُ من أن يقرن الله حقها بحقه ، ويجعلها المصطفى (صلى الله عليه وسلم) أحقَّ الناس بحسن الصحبة وإسداء المعروف ، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ الله (صلى الله عليه وسلم) فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله! مَنْ أَحَقُّ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ: (أُمُّكَ) قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: (أُمُّكَ) قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: (أُمُّكَ) قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ : (ثُمَّ أَبُوكَ) (متفق عليه).

وأما تكريم الإسلامُ للمرأة بنتاً : فرفع شأنَها ، وعدَّها نعمةً عظيمةً وهِبةً كريمة ، فقال تعالى : {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ}[الشورى: ٤٩-٥٠] ، ثمَّ أمر الله بإكرامها طفلةً ، وبين حقها في الرضاعة كالولد سواء بسواء ، وحثَّ على رعايتها والإحسان إليها منذ نعومة أظفارها ، قال تعالى:{وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ}[البقرة: ٢٣٣] ، وقد حثَّ النبي (صلى الله عليه وسلم) على تربية البنت في جو من العبادة، وتعليمها آداب الإسلام ، والإنفاق عليها ، ووعد على ذلك بالثواب العظيم ، ففي مسند أحمد من حديث عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الْجُهَنِيِّ (رضي الله عنه) قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) يَقُولُ: (مَنْ كَانَتْ- وَقَالَ مَرَّةً - مَنْ كَانَ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ فَصَبَرَ عَلَيْهِنَّ فَأَطْعَمَهُنَّ وَسَقَاهُنَّ وَكَسَاهُنَّ مِنْ جِدَّتِهِ كُنَّ لَهُ حِجَابًا مِنْ النَّارِ).

وبعد رعايتها وتربيتها حثّنا الإسلام على معاملتها بالعدل وعدم التفرقة بينها وبين إخوتها من الذكور والإناث ، فعن النُّعْمَانِ بْنِ بَشِير (رضي الله عنهما) يَقُولُ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) : (اعْدِلُوا بَيْنَ أَبْنَائِكُمْ اعْدِلُوا بَيْنَ أَبْنَائِكُمْ اعْدِلُوا بَيْنَ أَبْنَائِكُمْ قالها ثلاثاً) (البخاري ومسلم)، ولما كان أحد الناس جَالِسًا مَعَ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فَجَاءَ بُنَيٌّ لَهُ ، فَأَخَذَهُ فَقَبَّلَهُ وَأَجْلَسَهُ فِي حِجْرِهِ ، ثُمَّ جَاءَتْ بُنَيَّةٌ لَهُ ، فَأَخَذَهَا وَأَجْلَسَهَا إِلَى جَنْبِهِ ، فَقَالَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (فَمَا عَدَلَتْ بَيْنَهُمَا) (شعب الإيمان للبيهقي) ، أي أنه كما وضع الولد على فخذه كان ينبغي أن يفعل مع البنت فيجعلها على فخذه الآخر.

أما تكريم الإسلام للمرأة أختًا ، فقد حثّ على إكرامها والإحسان إليها ، ووعد من أحسن تربيتها بالأجر العظيم ، فعند الترمذي من حديث أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ (رضي الله عنه) أَنَّ رَسُولَ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: (لَا يَكُونُ لِأَحَدِكُمْ ثَلَاثُ بَنَاتٍ أَوْ ثَلَاثُ أَخَوَاتٍ فَيُحْسِنُ إِلَيْهِنَّ إِلَّا دَخَلَ الجَنَّةَ). وفي مسند أحمد من حديث عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه) قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) : (مَنْ كُنَّ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ أَوْ ثَلَاثُ أَخَوَاتٍ أَوْ بِنْتَانِ أَوْ أُخْتَانِ اتَّقَى اللَّهَ فِيهِنَّ وَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ حَتَّى يَبِنَّ أَوْ يَمُتْنَ كُنَّ لَهُ حِجَابًا مِنْ النَّارِ).

ومن تكريم الإسلام للمرأة زوجة : فقد حُفَّت المرأة بسياج عظيم من التكريم ، والمتأمل في شريعة الإسلام السمحة يجد أنها قد أوجبت للمرأة على زوجها حقوقًا مادية ، كالصداق والنفقة ، وغير ذلك ، تكريماً

لها ورفعة لشأنها ، فقال تعالى:{وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا}[النساء: ٤]، فالآية الكريمة عبرت عن المهر بأسلوب هو غاية في تكريم المرأة ، فجعلته حقًا ثابتًا لها ، ولم تجعله ثمنًا للتمتع بها ، ومن ثمَّ لا يجوز لأحد أكْل صداق المرأة أو التصرف فيه بغير إذنها ورضاها الحقيقي.

وكذلك على الزوج أن ينفق على زوجه ، والنفقة تشمل الطعام والشراب والملبس والمسكن، وما تحتاج إليه الزوجة لقوام حياتها ، لقوله تعالى: {لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ} [الطلاق:٧].

كما أوجبت الشريعة الإسلامية للمرأة حقوقاً معنوية عظيمةً ، من المعاشرة بالمعروف ، والإحسان، والرفق ، والإكرام ، لما تقوم به من عمل عظيم في بيتها ، من تربية أولادها ، ومسئوليتها تجاه زوجها ، وغير ذلك من الأمور التي تقوم بها المرأة تجاه أسرتها ، قال سبحانه: {وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا}[النساء: ١٩] ، وقال تعالى: {فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ}[البقرة:٢٢٩] ، وهذا ما وصى به النبي (صلى الله عليه وسلم) في خطبته في حجة الوداع ، حيث قال : (اتَّقُوا اللهَ فِي النِّسَاءِ ، فَإِنَّهُنَّ عَوَانٌ عِنْدَكُمُ، اتَّخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللهِ) (شعب الإيمان) ، وعن أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) عَنِ النَّبِي (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلاَ يُؤْذِ

جَارَهُ، وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا فَإِنَّهُنَّ خُلِقْنَ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلاَهُ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا) (صحيح البخاري).

وفي شأن المرأة بصفة عامة أمًّا كانت أو أختًا أو زوجَة أو ابنَة أو غير ذلك ، فقد نهى ديننا عن عضلهن وظلمهن وبخسهن ، حقوقهن ، بل جعل العدل معهن وعدم التفرقة بين البنت والابن سبيلاً واسعًا لمرضاة الله وطريقًا لرضوانه وجنته ، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ (رضي الله عنهما) قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) : (مَنْ كَانَتْ لَهُ أُنْثَى فَلَمْ يَئِدْهَا وَلَمْ يُهِنْهَا وَلَمْ يُؤْثِرْ وَلَدَهُ عَلَيْهَا – قَالَ يَعْنِى الذُّكُورَ – أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ) (رواه أبو داود) ، ففي هذا الحديث معان راقية وبلاغة عالية ، حيث عبر النبي (صلى الله عليه وسلم) في صدر الحديث بالاسم الموصول (مَنْ) الذى يفيد العموم والشمول، وعبر بلفظ الأنثى دون البنت ، لأنه أعم ، فلفظ الأنثى يشمل كل أنثى سواء أكانت بنتًا ، أم أختًا ، أم بنت ابن ، أم بنت بنت ، أم غير ذلك.

وإضافة إلى هذه الحقوق التي أقرها الإسلام للمرأة فقد جعل لها حقًّا في الميراث مع الرجل جنبًا إلى جنب ، فقال تعالى: {لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا}[النساء: ٧]، فقضية الميراث تعد واحدة من أهم القضايا التي أكد عليها سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم)

في خطبته الجامعة في حجة الوداع حيث قال : (إِنَّ اللَّهَ عز وجل قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ ، أَلَا لَا وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ) (سنن ابن ماجة).

وقد حدد الحق سبحانه وتعالى بنفسه أنصبة الوارثين ولم يتركها لأحد من خلقه ، حيث يقول سبحانه وتعالى : {يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا} [النساء:١١] ، وبهذا الميزان الإسلامي الدقيق كان نصيب المرأة في بعض أحوال الميراث نصف نصيب الرجل، وذلك لأنها لا تتحمل من الأعباء المادية ما يتحمله الرجل.

ولم يقف الأمر عند حد تحديد الأنصبة ، وإنما رتب القرآن الكريم الوعيد الشديد لكل من تسول له نفسه الاعتداء على هذه الحقوق ، فقال سبحانه في ختام الحديث عن تحديد الأنصبة: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ} [النساء: ١٣، ١٤] ، وذلك ليعلم كل من يجترئ ويقترب من حدود الله ويأكل الميراث أو يعبث بالأنصبة إنما يقترب من النار ، بل يأكل النار ويتعاطاها بيديه ، فكيف به حين يُجاء

بجهنم؟!! {...وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا * وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا * كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا * وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا * وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى} [الفجر:١٩– ٢٣].

إن من أعظم مكتسبات المرأة في الإسلام إنصافها في قضية الميراث ، فلقد كان أهل الجاهلية لا يرون لها حقًا في الميراث ، بل كانوا يعتبرونها نفسها ميراثًا يتداولونه خلفًا عن سلف ، فجاء الإسلام بالنهي عن ذلك والتحذير منه، ونعى على أهل الجاهلية أكلهم حقوق بعض الورثة بغير حق ، فقال سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا}[النساء: ١٩] ، وهذا ما أكده النبي (صلى الله عليه وسلم) حيث رهب من منع المرأة حقها في الميراث ، فعَنْ عِمْرَانَ بْنِ سُلَيْمٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَنْ قَطَعَ مِيرَاثًا فَرَضَهُ اللَّهُ قَطَعَ اللَّهُ مِيرَاثَهُ فِي الْجَنَّةِ) (سنن سعيد بن منصور) ، وفي رواية : (مَنْ قَطَعَ مِيرَاثًا فَرَضَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ قَطَعَ اللهُ بِهِ مِيرَاثًا مِنَ الْجَنَّةِ) (شعب الإيمان للبيهقي) .

ثم إن حرمان النساء من الميراث يكون لعلل واهية أو عادات وتقاليد بالية لا أصل لها في الشرع ، وكأن الذي يعبث بالميراث فيحرم شخصا ويؤثر آخر وفق ما يقتضيه هواه يظن نفسه أعلم بالمصالح ، وأعلم بمن يستحق ومن لا يستحق من رب العالمين وأحكم الحاكمين ، خالق

الخلق ومالك الملك ، وكأن لسان حال هذا المفتئت على الله (عز وجل) في تشريعه يقول : تقسيم الله لا يعجبني، أو كأنه يقول: أنا أقسّم تقسيما أحسن من تقسيم الله- والعياذ بالله - ، إذ لو كان مؤمنا بأن تقسيم الله في كتابه العزيز هو الأفضل والأمثل ، لما تدخل بإيثار هذا وحرمان ذاك.

لقد أوصى القرآن الكريم بمعاملة النساء بصفة عامة ، والإحسان إليهن وملاطفتهن ومؤانستهن وتطييب القول لهن ، بعيداً عن الشتم والضرب والإهانة ، قال تعالى: {وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ}أي صاحبوهن بما أمركم الله به من طيب القول والمعاملة بالإِحسان.

* * *

الهجرة النبوية بين التخطيط البشري والتأييد الإلهي.

أولا : العناصر :

١. الهجرة والأخذ بالأسباب.
٢. التخطيط ضرورةٌ من ضرورات الحياةِ.
٣. تأييد الله تعالى لنبيه (صلى الله عليه وسلم).
٤. معية الله تعالى لعباده المؤمنين.
٥. الهجرة والعبور وبناء الدولة .

ثانيًا: الأدلـة:

الأدلة من القرآن الكريم :

١. قال تعالى:{وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ } [الأنفال: ٣٠].
٢. وقال تعالى :{ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[النحل:٩٧].
٣. وقال تعالى:{وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ} [الأنفال:٦٠].
٤. وقال تعالى:{ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ } [يس : ٩].
٥. وقال تعالى: {إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [التوبة :٤٠].

٦. وقال تعالى:{إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ}[غافر:٥١].

٧. وقال تعالى: :{إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} [النحل:١٢٨].

الأدلة من السنة :

١. عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): (لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا). تغدو: تذهب أول النهار، وتروح: ترجع آخر النهار. (رواه الترمذي).

٢. وعَنْ عَائِشَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا)، قَالَتِ اسْتَأْذَنَ النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) أَبُو بَكْرٍ فِي الْخُرُوجِ حِينَ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الأَذَى فَقَالَ لَهُ (أَقِمْ) فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ أَتَطْمَعُ أَنْ يُؤْذَنَ لَكَ ، فَكَانَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) يَقُولُ إِنِّي لأَرْجُو ذَلِكَ ، قَالَتْ : فَانْتَظَرَهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَتَاهُ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) ذَاتَ يَوْمٍ ظُهْرًا ، فَنَادَاهُ فَقَالَ: (أَخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ)، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : إِنَّمَا هُمَا ابْنَتَايَ...) (رواه البخاري).

٣. وعن عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) قال: تَشَاوَرَتْ قُرَيْشٌ لَيْلَةً بِمَكَّةَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِذَا أَصْبَحَ، فَأَثْبِتُوهُ بِالْوَثَاقِ، يُرِيدُونَ النَّبِيَّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلِ اقْتُلُوهُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ أَخْرِجُوهُ، فَأَطْلَعَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ نَبِيَّهُ عَلَى ذَلِكَ، فَبَاتَ عَلِيٌّ عَلَى فِرَاشِ النَّبِيِّ

(صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) تِلْكَ اللَّيْلَةَ، وَخَرَجَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) حَتَّى لَحِقَ بِالْغَارِ، وَبَاتَ الْمُشْرِكُونَ يَحْرُسُونَ عَلِيًّا، يَحْسَبُونَهُ النَّبِيَّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، فَلَمَّا أَصْبَحُوا ثَارُوا إِلَيْهِ، فَلَمَّا رَأَوْا عَلِيًّا، رَدَّ اللَّهُ مَكْرَهُمْ، فَقَالُوا: أَيْنَ صَاحِبُكَ هَذَا؟ قَالَ: لَا أَدْرِي، فَاقْتَصُّوا أَثَرَهُ، فَلَمَّا بَلَغُوا الْجَبَلَ خُلِّطَ عَلَيْهِمْ، فَصَعِدُوا فِي الْجَبَلِ، فَمَرُّوا بِالْغَارِ، فَرَأَوْا عَلَى بَابِهِ نَسْجَ الْعَنْكَبُوتِ، فَقَالُوا: لَوْ دَخَلَ هَاهُنَا، لَمْ يَكُنْ نَسْجُ الْعَنْكَبُوتِ عَلَى بَابِهِ، فَمَكَثَ فِيهِ ثَلَاثَ لَيَالٍ) (رواه أحمد).

٤. وعن أبي بكر (رضي الله عنه) قال: (... فَارْتَحَلْنَا بَعْدَ مَا زَالَتِ الشَّمْسُ وَاتَّبَعَنَا سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكٍ – قَالَ – وَنَحْنُ في جَلَدٍ مِنَ الأَرْضِ (صلبة) فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أُتِينَا ، فَقَالَ (لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا). فَدَعَا عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) فَارْتَطَمَتْ فَرَسُهُ إِلَى بَطْنِهَا ، أُرَى ، فَقَالَ : إِنِّى قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكُمَا قَدْ دَعَوْتُمَا عَلَىَّ فَادْعُوَا لِي فَاللَّهُ لَكُمَا أَنْ أَرُدَّ عَنْكُمَا الطَّلَبَ. فَدَعَا اللَّهَ فَنَجَى فَرَجَعَ لاَ يَلْقَى أَحَدًا إِلاَّ قَالَ قَدْ كَفَيْتُكُمْ مَا هَا هُنَا فَلاَ يَلْقَى أَحَدًا إِلاَّ رَدَّهُ – قَالَ – وَوَفَى لَنَا)

(صحيح مسلم).

٥. وعَنْ أَبِي بَكْرٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ : قُلْتُ لِلنَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) وَأَنَا فِي الْغَارِ: لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لأَبْصَرَنَا ، فَقَالَ (صلى الله عليه وسلم): (مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا).

(مُتَّفَقٌ عَلَيهِ).

ثالثًا: المـــوضــــــوع:

في مثل هذه الأيام المباركة من كل عام يحتفل المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها بذكرى هجرة النبي (صلى الله عليه وسلم) من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، ونحن حين نحتفل بهذه الذكرى العطرة إنما يكون ذلك للعبرة والتأسي وأخذ الدروس المستفادة منها ، فالمتدبر لمعاني الهجرة الشريفة يستنبط منها دروسًا عظيمة ، ويستخلص منها فوائد جمة، ويلحظ فيها حِكمًا باهرة يستفيد منها الفرد والمجتمع في شتى مجالات الحياة ، فالهجرة مع التخطيط والأخذ بالأسباب لم تخلُ من مظاهر التأييد الإلهي، والحفظ الرباني، يتضح ذلك مما يلي :

- **الهجرة والأخذ بالأسباب** : فحين وقف المشركون في طريق دعوة النبي (صلى الله عليه وسلم) ونشر رسالته مستخدمين كل أساليب القمع والبطش والتنكيل والتعذيب ليثنوه عنها ، ويمنعوه من أدائها ، حتى وصل بهم الجنون إلى العمل على قتله والخلاص منه قال تعالى : { وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [الأنفال:٣٠] ، أخذ النبي (صلى الله عليه وسلم) بالأسباب التي مكنت لدعوته وساعدت على نشر رسالته دون تقصير أو تكاسل ، فإن الإسلام دين لا يعرف التواكل ، بل يحاربه وينبذه ، ولا يعرف التواني والكسل والخمول ، وإنما هو دين الأخذ بالأسباب والتوكل على الله ، قال تعالى:{ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[النحل:٩٧]. وفي الحديث عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ (رضي الله عنه)

قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): (لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا).
تغدو: تذهب أول النهار، وتروح: ترجع آخر النهار.

(رواه الترمذي).

فهو (صلى الله عليه وسلم) مع علمه الكامل بربه،(وهو القائل عن نفسه ـ كما في صحيح ابن خزيمة ـ فأنا والله أعلم بالله وأتقاكم له)، وتيقنه التام على وعده بنصرته لدينه وتأييده له، إلا أنه (صلى الله عليه وسلم) أعد لحادثة الهجرة عدتها، واتخذ لها ما يقدر عليه من الأسباب ، فالأخذ بالأسباب هو طريق الحصول على ما عند الله عز وجل، مع مواصلة العمل الجاد المحكم وقوة العزم وإخلاص النية وصدقها .

لهذا رأينا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يتخذ من الأسباب ما يقدر عليه ، في إعداده لرحلة الهجرة، وترتيب كل ما يلزم لها ، حيث كان (صلى الله عليه وسلم) حريصًا على قضاء حاجته سرًّا، وقد ظهر ذلك واضحًا حينما جاء ليخبر الصديق (رضي الله عنه) بأن الله قد أذن له بالهجرة، تقول السيدة عائشة (رضي الله عنها) – كما في صحيح البخاري وغيره– : (اسْتَأْذَنَ النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) أَبُو بَكْرٍ فِي الْخُرُوجِ حِينَ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الأَذَى فَقَالَ لَهُ (أَقِمْ) فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ أَتَطْمَعُ أَنْ يُؤْذَنَ لَكَ فَكَانَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) يَقُولُ : (إِنِّي لأَرْجُو ذَلِكَ) ، قَالَتْ : فَانْتَظَرَهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَتَاهُ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) ذَاتَ يَوْمٍ ظُهْرًا) ، (وفي بعض الروايات : (أنه جاء متقنعًا) فَنَادَاهُ فَقَالَ: (أَخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ،

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : إِنَّمَا هُمَا ابْنَتَايَ...). فلنتأمل حرص النبي في أن يأتي إلى أبي بكر متقنعًا حتى لا يُعرَف ، و كان حريصًا على أن لا يدري أحد بحركته وتوجهاته.

- **التخطيط ضرورة من ضرورات الحياةِ ، وسبب من أسباب النجاح**:

لما أذن الله – تعالى – لرسوله (صلى الله عليه وسلم) بالهجرة أعد الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) لكل أمر عدته بالرغم من عصمة الله له ، وذلك باختياره الوقت المناسب ، والرفيق المناسب ، وأساليب التعمية والتمويه على القوم ، فكان (صلى الله عليه وسلم) أنموذجًا للقائد والمعلِّم ، فتراه يضع خطة الهجرة بمنتهى الدقة والحكمة مستخدمًا الفكر والعقل ، ويثق في نصر الله (عزّ وجلّ) أولاً وأخيرًا.

ويتجلى ذلك في توزيع الأدوار وعدم احتكار المهام ، فيستدعي ابن عمه علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) لينام على فراشه الشريف ؛ على سبيل التمويه للمتربصين بأنه (صلى الله عليه وسلم) مازال في فراشه ، ويسلك (صلى الله عليه وسلم) طريقًا وعِرًا غير مأهول ولا معتاد ؛ لتضليل المطاردين ، ثم يتجه ناحية الجنوب مع أنه (صلى الله عليه وسلم) كان يقصد المدينة المنورة شمالاً ، وفي اختيار ه (صلى الله عليه وسلم) من يهديه الطريق استعان بذوي الكفاءة من أهل المروءة، وهو عبد الله بن أريقط الخبير بمجاهل الصحراء .

ومن تخطيطه المحكم أنه (صلى الله عليه وسلم) مكث بغار ثور ثلاث ليال قبل التوجه نحو يثرب حتى يهدأ الطلب عليه وعلى صاحبه ،

ودبر من يأتيه في الغار بالطعام والشراب ، وهي أسماء بنت أبي بكر (رضي الله عنه) ، وينتقي عبد الله بن أبي بكر فيسند له مهمة نقل أخبار قريش ، وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) راعيًا للغنم ؛ ليخفي آثار عبد الله بن أبي بكر ، حتى لا تعرف قريش أين ذهب ، فكان (صلى الله عليه وسلم) يحسن انتقاء من يقوم بكل مهمة ، وهُو في هَذا كلّه متوكلٌ على الله – تعالى- مُعلنًا أنه في معية الله ، فيقول لصاحبه : { ..لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا..} [التوبة:٤٠] .

إن هذا التخطيط المُحكم بهذه الدقة من النبي (صلى الله عليه وسلم) ، ليُعلم أمته أن هذا الدين القويم هو دين التخطيط لأي أمرٍ من الأمور ، فالمؤمن إذا كان قوي الإيمان بالله يعتمد تمام الاعتماد على الله، لا بد له من إجادة التخطيط في أي أمرٍ يريد أن يبلغه في هذه الحياة كما فعل رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم) ، حيث كان معه نصر الله ومعه رعاية الله ومعه تثبيت الله ومعه كفالة الله لكن لا بد له من التخطيط الدقيق، هكذا يُعلمنا رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم) الدرس. فمن أراد أن يتعلم التخطيط فليتأمل هجرة النبي (صلى الله عليه وسلم) التي أكدت أن الإسلام دين الإعداد الجيد ، والتخطيط السليم ، وقد أمرنا الله بالإعداد في القرآن الكريم في قوله تعالى:{وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ}[الأنفال:٦٠]. ومن ثم كان التخطيط ضرورةً من ضرورات الحياةِ وسببًا من أسباب النجاح ، وفي ذلك درسٌ بليغ وحكمة

عظيمة؛ إذ إن حسن التخطيط وروعة التدبير لا تعدو أن تكون أسبابًا أُمرنا أن نجتهد في إعدادها دون التعلق بها ، إذ إن الحافظ والناصر و الموفق هو الله سبحانه وتعالى.

• **تأييد الله تعالى لنبيه (صلى الله عليه وسلم):**

إن المتأمل في الهجرة النبوية الشريفة يجد أنها مظهر من مظاهر تأييد الله تعالى لرسوله (صلى الله عليه وسلم) والدفاع عنه، فأحداثها لا تخلو من مظاهر التأييد الإلهي ، والحفظ الرباني. ولعل من أعظم تلك المظاهر في تأييد الله تعالى لرسوله (صلى الله عليه وسلم) وحفظه له : ما وقع له عند خروجه من مكة، وقد تآمر به كفار قريش ليقتلوه بضربة رجل واحد ليتفرق دمه في القبائل عملاً بمشورة أبي جهل، يقول تعالى حاكيًا عن كيدهم وتآمرهم:{وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [الأنفال:٣٠].

وهنا تتجلى العناية الربانية والتأييد الإلهي لرسوله (صلى الله عليه وسلم) ، حيث يخرج (صلى الله عليه وسلم) من بيته – بحفظ الله تعالى له ، وفي رعايته وعنايته – وهو يخترق صفوف المشركين ، وفي يده الشريفة حفنة من التراب ، فجعل يذره على رؤوسهم، وهو يتلو قول الله تعالى: { وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ}[يس : ٩] ، فقد أعمى الله أبصار قريش عن مقره فلا يرونه مع سعيهم الدائب في البحث عنه ، ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه ترابًا.

أخرج الإمام أحمد في مسنده ، عن عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) قال: تشاورت قريش ليلة بمكة، فقال: بعضهم إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق يريدون النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وقال: بعضهم بل اقتلوه، وقال بعضهم :بل أخرجوه ، فأطلع الله – عز وجل – نبيه على ذلك فبات عَلُّي في فراش النبي (صلى الله عليه وسلم) تلك الليلة وخرج النبي (صلى الله عليه وسلم) حتى لحق بالغار وبات المشركون يحرسون عليًّا يحسبونه النبي (صلى الله عليه وسلم) ، فلما أصبحوا ثاروا إليه فلما رأوا عليًّا رد الله مكرهم فقالوا : أين صاحبك هذا؟ قال لا أدري ، فاقتصوا أثره، فلما بلغوا الجبل خُلِّط عليهم فصعدوا في الجبل فمروا بالغار فرأوا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا: لو دخل ههنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه فمكث فيه ثلاث ليال).

ومظهر آخر من مظاهر ذلك التأييد الرباني، والحفظ الإلهي يتجلى واضحًا ، في خبر سراقة بن مالك وهو يلحق بالنبي (صلى الله عليه وسلم) وصاحبه، فحينما اقترب منهما، وهو على فرس له، ورآه أبو بكر وقع في نفسه الخوف والحزن، فالتفت أبو بكر، فقال: يا رسول الله هذا الطلب قد لحقنا، فقال النبي (صلى الله عليه وسلم): (لا تحزن إن الله معنا). وفي ذلك، يقول أبو بكر (رضي الله عنه) - كما في صحيح مسلم - (... قَالَ فَارْتَحَلْنَا بَعْدَ مَا زَالَتِ الشَّمْسُ وَاتَّبَعَنَا سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكٍ – قَالَ – وَنَحْنُ فِى جَلَدٍ مِنَ الأَرْضِ (صلبة) فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أُتِينَا ، فَقَالَ (لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا). فَدَعَا عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم)

فَارْتَطَمَتْ فَرَسُهُ إِلَى بَطْنِهَا ، أُرَى ، فَقَالَ : إِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكُمَا قَدْ دَعَوْتُمَا عَلَيَّ فَادْعُوَا لِي فَاللَّهُ لَكُمَا أَنْ أَرُدَّ عَنْكُمَا الطَّلَبَ. فَدَعَا اللَّهَ فَنَجَى فَرَجَعَ لاَ يَلْقَى أَحَدًا إِلاَّ قَالَ قَدْ كَفَيْتُكُمْ مَا هَا هُنَا فَلاَ يَلْقَى أَحَدًا إِلاَّ رَدَّهُ – قَالَ – وَوَفَى لَنَا) . فكان كذلك إذ صد الله سراقة، وعاد أدراجه بعد أن أعطى الأمان لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وعرض عليه الزاد والمتاع، بل وعاد يصد ويرد كل من يلقاه في طريقه يطلب محمدًا وصاحبه.

كما نرى من مظاهر ذلك التأييد الرباني، والحفظ الإلهي للرسول (صلى الله عليه وسلم)، حين خرج بصحبة أبي بكر الصديق وأقاما في غار ثور ثلاث ليال، وقريش تبحث عنهما في ربوع الصحراء ، وتجعل لمن يأتي بهما مائة من الإبل، حتى عظم الخطب ، ولما بلغ المشركون باب الغار، هناك قال أبو بكر (رضي الله عنه) للرسول (صلى الله عليه وسلم): لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لأَبْصَرَنَا ، فَقَالَ (صلى الله عليه وسلم) قولة المؤمن الواثق من معية الله تعالى وتأييده له: (مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا) (صحيح البخاري).

وصدق الله العظيم حيث قال :{إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}

[التوبة :٤٠].

في هذه المعالم من هجرته (صلى الله عليه وسلم) ، يقترن الإعداد البشري بالتأييد الإلهي، وفي ذلك عبرة وعظة للمسلمين من بعد، بأنهم مكلفون بأن يتخذوا من الأسباب ما يستطيعونه ويقدرون عليه، دون تقصير أو تكاسل، ثم التجرد من الأسباب وتفويض الأمر لرب الأسباب.

- **معية الله تعالى لعباده المؤمنين**:

كذلك ينبغي للإنسان أن يعلم أن معية الله تعالى هذه التي نستفيدها من حدث الهجرة النبوية ليست خاصة بالرسول (صلى الله عليه وسلم) ، بل إنها عامة لكل مؤمن تقي أخلص لله تعالى في طاعته وأحسن العمل ، قال تعالى:{إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} [النحل:١٢٨].وقال (صلى الله عليه وسلم): (احفظ الله يحفظك). فمن كان في معية الخالق سبحانه وتعالى لن يضره أذى ، وحاشا لله أن يترك أنبياءه وأولياءه أو يتخلى عنهم ، فهو القائل سبحانه: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} [غافر:٥١].

وانطلاقًا من ربط الماضي بالحاضر وحرص الإسلام على بناء دولة قوية مستقرة متماسكة شرع النبي (صلى الله عليه وسلم) في بناء الدولة بعد هجرته إلى المدينة المنورة ، فآخى بين المهاجرين والأنصار ، ووضع وثيقة للتعايش السلمي بين سكان المدينة جميعًا على اختلاف أديانهم وقبائلهم تعد أعظم وثيقة بشرية في تاريخ الإنسانية تؤصل لفقه العيش المشترك بين الناس جميعًا .

كما أن عبور قواتنا المسلحة لقناة السويس وخط برليف في العاشر من رمضان ١٣٩٣هـ – السادس من أكتوبر ١٩٧٣م كان نقطة تحول مهمة في تاريخ الدولة المصرية . وإننا الآن أمام نقطة تحول تاريخية فاصلة في اتجاه بناء الدولة المصرية القوية الحديثة ، وهذا ما يتطلب منا جميعًا بذل جهود كبيرة صادقة مخلصة : في العمل والإنتاج ، في التمسك بالقيم والأخلاق السامية ، في نشر المبادئ الإسلامية السمحة والقيم الإنسانية والحضارية الراقية التي تتفق وديننا الحنيف ، في التعاون والتكاتف من أجل بناء هذه الدولة .بهذا تكون الهجرة قد أعطت درسًا تطبيقيًا في حقيقة الإيمان بالله – عز وجل – وما يتطلبه من إعداد مادي وتأهيل قلبي اكتسابًا للمعية الإلهية ، والتأييد الرباني.



الأخذ بالأسباب في ضوء الهجرة النبوية الشريفة

أولا: العناصر:

١. الهجرة نموذج لانتصار الحق على الباطل.

٢. من مظاهر الأخذ بالأسباب التخطيط الجيد .

٣. الأنبياء وسنة الأخذ بالأسباب.

٤. الأخذ بالأسباب لا ينافي الإيمان بالقضاء والقدر.

ثانيا: الأدلة:

من القرآن الكريم:

١. قال تعالى: {إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [التوبة:٤٠].

٢. وقال تعالى: { وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [الأنفال:٣٠].

٣. وقال تعالي: {فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ * فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ} [المؤمنون:٢٧- ٢٩]

٤. وقال تعالى: { وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا}

[مريم: ٢٥].

٥. وقال تعالى: { فَأَتْبَعَ سَبَبًا} [الكهف: ٨٥]

٦. وقال تعالى:{ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ} [إبراهيم: ١٢]

٧. و قال تعالي:{مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا}[الأحزاب:٢٣].

من السنة النبوية:

١- عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): (لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا). تغدو: تذهب أول النهار، وتروح: ترجع آخر النهار. (رواه الترمذي).

٢- وعنْ أَبِي بَكْرٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ : قُلْتُ لِلنَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) وَأَنَا فِي الْغَارِ: (لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لأَبْصَرَنَا ، فَقَالَ (صلى الله عليه وسلم): (مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا)

(رواه البخاري).

٣- وعنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَعْقِلُهَا وَأَتَوَكَّلُ أَوْ أُطْلِقُهَا وَأَتَوَكَّلُ؟ قَالَ: (اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ)

(رواه الترمذي).

٤- وعَن عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه) أَنَّهُ حَدَّثَهُمْ ، أَنَّ النَّبِيَّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَضَى بَيْنَ رَجُلَيْنِ ، فَقَالَ الْمَقْضِيُّ عَلَيْهِ :

حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (رُدُّوا عَلَيَّ الرَّجُلَ فَقَالَ : مَا قُلْتَ ؟) قَالَ : قُلْتُ : حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (إِنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ ، وَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ : حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) (رواه النسائي).

٥- وعَنْ أَبِى خُزَامَةَ عَنْ أَبِيهِ ، قَالَ : سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ رُقًى نَسْتَرْقِيهَا وَدوَاءً نَتَدَاوَى بِهِ وَتُقَاةً نَتَّقِيهَا هَلْ تَرُدُّ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ شَيْئًا ؟ قَالَ: (هي مِنْ قَدَرِ اللَّهِ)

(رواه الترمذي).

٦- وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه) أَنَّ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ أَتَى النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) يَسْأَلُهُ فَقَالَ : (أَمَا فِى بَيْتِكَ شَىْءٌ ؟). قَالَ بَلَى ، حِلْسٌ نَلْبَسُ بَعْضَهُ وَنَبْسُطُ بَعْضَهُ وَقَعْبٌ نَشْرَبُ فِيهِ مِنَ الْمَاءِ. قَالَ (ائْتِنِى بِهِمَا ، فَأَتَاهُ بِهِمَا فَأَخَذَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) بِيَدِهِ وَقَالَ : (مَنْ يَشْتَرِى هَذَيْنِ)؟ قَالَ رَجُلٌ: أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمٍ. قَالَ : (مَنْ يَزِيدُ عَلَى دِرْهَمٍ؟) مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاَثًا ، قَالَ رَجُلٌ: أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمَيْنِ. فَأَعْطَاهُمَا إِيَّاهُ وَأَخَذَ الدِّرْهَمَيْنِ وَأَعْطَاهُمَا الأنصاري وَقَالَ : (اشْتَرِ بِأَحَدِهِمَا طَعَامًا فَانْبِذْهُ إِلَى أَهْلِكَ وَاشْتَرِ بِالآخَرِ قَدُومًا فَأْتِنِي بِهِ)، فَأَتَاهُ بِهِ فَشَدَّ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) عُودًا بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ لَهُ : (اذْهَبْ فَاحْتَطِبْ وَبِعْ وَلاَ أَرَيَنَّكَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا)، فَذَهَبَ الرَّجُلُ يَحْتَطِبُ وَيَبِيعُ فَجَاءَ وَقَدْ أَصَابَ عَشَرَةَ دَرَاهِمَ فَاشْتَرَى بِبَعْضِهَا

ثَوْبًا وَبِبَعْضِهَا طَعَامًا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): (هَذَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَجِىءَ الْمَسْأَلَةُ نُكْتَةً فِى وَجْهِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لاَ تَصْلُحُ إِلاَّ لِثَلاَثَةٍ لِذِى فَقْرٍ مُدْقِعٍ أَوْ لِذِى غُرْمٍ مُفْظِعٍ أَوْ لِذِى دَمٍ مُوجِعٍ) (رواه أبو داود).

ثالثا: الموضوع:

إن المتدبر لمعاني الهجرة النبوية الشريفة من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة يستنبط منها دروساً عظيمة ، ويستخلص منها فوائد جمة، ويلحظ فيها حكماً باهرة يستفيد منها الفرد والمجتمع في شتى مجالات الحياة ، فهجرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم تكن هجرة مكانية ـ مجرد انتقال من مكان إلى مكان ـ فحسب كما يعتقد الكثير من الناس، بل كانت في حقيقتها حلقة من حلقات الصراع الدائم والمستمر بين الحق والباطل ، وهذا الصراع والتدافع بين الحق والباطل سنة إلهية نافذة ، قد يظن البعض فيها قوة الباطل ، لكن الغلبة دوماً تكون لأهل الحق ، وما ذلك إلا ليتميز أصحاب الصبر والهمم ، قال سبحانه: { الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} [الحج: ٤٠]. وقال تعالى: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ }[الصافات:١٧١ـ ١٧٣]. وقال تعالى : { كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ } [المجادلة: ٢١] ، فجاءت

الهجرة لتعلن انتصار الحق على الباطل ، وانتصار الحرية على العبودية ، وانتصار الإيمان على الكفر، فكانت الهجرة حربًا على الضعف الإنساني في شتَّى صوره وألوانه، وانتصارًا للحق مهما بطشتْ به قوة الباطل، و تأسيسًا لأول دولةٍ دعائمُها العدلُ والعلم، والحريةُ والحضارة، والإخاءُ والمساواة، والرحمة والتوادّ ، لتظل الهجرة خير دليل على أن أصحاب الهمم والعزيمة لا تتوقف مسيرتهم.

ولم تكن الهجرة النبوية معجزة ربانية فحسب، ولا عملاً بشريًّا مجردًا فحسب ، فلقد اجتمع فيها الأمران التأييد الإلهي بعنايته ورعايته ، والتخطيط البشري متمثلاً في الأخذ بالأسباب المعينة على إتمام الأمر بنجاح.

والأخذ بالأسباب دون الاعتماد عليها عبادة واجبة يتقرب بها العبد إلى الله (تعالى)، وهي سنة من سنن الله الكونية ، فالدنيا بما أَوْدعه الله فيها من المنافع والسعي فيها ما هي إلا سبب للنجاح في الآخرة ، وإرسال الرسل وإنزال الكتب وتشريع الشرائع كلها أسباب موصلة إلى الغاية العظمى وهي رضوانِ الله (عز وجل) ، والدواء ما هو إلا سبب للشفاء ، والمدارسة سبب للنجاح ، وهكذا جعل الله لكل شيء سببًا.

ولقد طبق نبينا الكريم (صلى الله عليه وسلم) سنة الأخذ بالأسباب في الهجرة تطبيقًا عمليًا في أبهى صوره وأكمله ، حيث خطط للمهمة تخطيطًا جيدًا ، على الرغم من يقينه أن الله كافيه ؛ ليكون ذلك درسًا للأمة أن حسن التخطيط من دعائم التوكل على الله والأخذ

بالأسباب، فاتخذ كل الوسائل التي تعينه على إنجاح الهجرة ، وفي الوقت نفسه كان مع الله (عز وجل) يدعوه ويستنصره أن يكلل سعيه بالنجاح ، وكان كل أمر من أمور الهجرة مدروساً بعناية فائقة من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فعنصر التوقيت المناسب للخروج للهجرة كان مختارا بعناية من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، حيث جاء (صلى الله عليه وسلم) إلى بيت أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) في وقت شديد الحر حتى لا يراه أحد ، وأمر (صلى الله عليه وسلم) أبا بكر (رضي الله عنه) أن يُخرِج مَنْ عنده ، ولما تكلم لم يبين إلا الأمر بالهجرة دون تحديد الاتجاه، فعَنْ عَائِشَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا) قَالَتْ : لَقَلَّ يَوْمٌ كَانَ يَأْتِي عَلَى النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) إِلاَّ يَأْتِي فِيهِ بَيْتَ أَبِي بَكْرٍ أَحَدَ طَرَفَيِ النَّهَارِ فَلَمَّا أُذِنَ لَهُ فِي الْخُرُوجِ إِلَى الْمَدِينَةِ لَمْ يَرُعْنَا إِلاَّ وَقَدْ أَتَانَا ظُهْرًا فَخُبِّرَ بِهِ أَبُو بَكْرٍ ، فَقَالَ: مَا جَاءَنَا النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم) فِي هَذِهِ السَّاعَةِ إِلاَّ لأَمْرٍ حَدَثَ ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ لأَبِي بَكْرٍ: أَخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّمَا هُمَا ابْنَتَايَ، يَعْنِي عَائِشَةَ وَأَسْمَاءَ ، قَالَ: أَشَعَرْتَ أَنَّهُ قَدْ أُذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ ، قَالَ: الصُّحْبَةَ يَا رَسُولَ اللهِ ، قَالَ: الصُّحْبَةَ)   (رواه البخاري في صحيحه).

فبلغ الاحتياط عند النبي (صلى الله عليه وسلم) مداه ، باتخاذ طرق غير مألوفة للقوم، والاستعانة بشخصيات عاقلة لتقوم بالمعاونة في شئون الهجرة ، وتم وضع كل فرد في عمله المناسب ، الذي يحسن القيام به على الوجه الأكمل ، فعليّ بن أبي طالب (رضي الله عنه) ينام

مكان الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، فكان سببًا للتمويه على المشركين وخداعهم ، حتى خرج النبي (صلى الله عليه وسلم) تحرسه عناية الله وهم نائمون، وأبصار المشركين معلقة بمضجع الرسول (صلى الله عليه وسلم).

وعبد الله بن أبي بكر (رضي الله عنه) ودوره العظيم في استطلاع الأخبار ورصدها ، وأسماء ذات النطاقين (رضي الله عنها) وحملها الغذاء للنبي (صلى الله عليه وسلم) وأبيها الصديق (رضي الله عنه) ، وعامر بن فهيرة راعي الغنم ، وقائد سلاح التمويه والذي قام بدوره وبأغنامه بتبديد آثار سير النبي (صلى الله عليه وسلم) وصاحبه الصديق (رضوان الله عليه)، كيلا يتفرسها القوم ، وعبد الله بن أريقط دليل الهجرة الأمين، وخبير الصحراء البصير، يأخذ الركب المبارك من غار ثور إلى يثرب مدينة رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

إن ما فعله النبي (صلى الله عليه وسلم) من تدبير للأمور على نحو رائع ودقيق، وبأسلوب حكيم، ووضعه لكل شخص من أشخاص الهجرة في مكانه المناسب ، واقتصاره على العدد اللازم من الأشخاص من غير زيادة ولا إسراف ، لهو أكبر دليل على أخذه (صلى الله عليه وسلم) بالأسباب ، ثم اعتماده وثقته في الله (عز وجل) ، وعَنْ أَبِي بَكْرٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ : قُلْتُ لِلنَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) وَأَنَا فِي الْغَارِ: لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لأَبْصَرَنَا ، فَقَالَ : مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا) (رواه البخاري). ومن ثمَّ كانت عناية الله تحيط به في كل مكان.

إن اتخاذ الأسباب أمر ضروري وواجب في حياة المسلم ، وهو من علامات حسن التوكل على الله عز وجل ، والرضا بقضائه وقدره ، فلا يعني الرضا بالقضاء والقدر أن نضعف أمام المحن، أو نستسلم لليأس ، ولكن عين الرضا هو التوكل على الله (عز وجل) والأخذ بالأسباب ، فطلب الشفاء صورة من صور التوكل على الله والأخذ بأسباب الدواء ، وفي نفس الوقت لا يرد من قدر الله شيئا ، فعَنْ أَبِي خُزَامَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَرَأَيْتَ رُقًى نَسْتَرْقِيهَا وَدَوَاءً نَتَدَاوَى بِهِ وَتُقَاةً نَتَّقِيهَا هَلْ تَرُدُّ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ شَيْئًا قَالَ : (هي مِنْ قَدَرِ اللَّهِ) (رواه الترمذي).

ولم يرض النبي (صلى الله عليه وسلم) بأن يقف الإنسان عاجزا لا يدفع عن نفسه ويعتقد أن هذا من تمام الرضا ، ولكنه (صلى الله عليه وسلم) ينهى عن العجز والضعف ، لما فيهما من مظاهر ذل لا تليق بمسلم أبدا ، عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه) أَنَّهُ حَدَّثَهُمْ ، أَنَّ النَّبِيَّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَضَى بَيْنَ رَجُلَيْنِ ، فَقَالَ الْمَقْضِيُّ عَلَيْهِ : حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (رُدُّوا عَلَيَّ الرَّجُلَ ، فَقَالَ : مَا قُلْتَ ؟ قَالَ: قُلْتُ : حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (إِنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ، وَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ : حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ)

(رواه النسائي).

ولما جاءه (صلى الله عليه وسلم) رجل يشكو حالة فقره – وكأنه كان معطلا للأسباب– فأرشده (صلى الله عليه وسلم) عمليًّا إلى ضرورة السعي وضرورة الأخذ بالأسباب، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه) أَنَّ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ أَتَى النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) يَسْأَلُهُ فَقَالَ : (أَمَا فِي بَيْتِكَ شَيْءٌ ؟) قَالَ : بَلَى ، حِلْسٌ نَلْبَسُ بَعْضَهُ وَنَبْسُطُ بَعْضَهُ وَقَعْبٌ نَشْرَبُ فِيهِ مِنَ الْمَاءِ. قَالَ : (ائْتِنِي بِهِمَا ، فَأَتَاهُ بِهِمَا فَأَخَذَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) بِيَدِهِ ، وَقَالَ : (مَنْ يَشْتَرِي هَذَيْنِ ؟) قَالَ رَجُلٌ: أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمٍ. قَالَ: (مَنْ يَزِيدُ عَلَى دِرْهَمٍ). مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاَثًا قَالَ رَجُلٌ: أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمَيْنِ. فَأَعْطَاهُمَا إِيَّاهُ وَأَخَذَ الدِّرْهَمَيْنِ وَأَعْطَاهُمَا الأنصاري وَقَالَ : (اشْتَرِ بِأَحَدِهِمَا طَعَامًا فَانْبِذْهُ إِلَى أَهْلِكَ وَاشْتَرِ بِالآخَرِ قَدُومًا فَأْتِنِي بِهِ) ، فَأَتَاهُ بِهِ فَشَدَّ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) عُودًا بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ لَهُ : (اذْهَبْ فَاحْتَطِبْ وَبِعْ وَلاَ أَرَيَنَّكَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا) ، فَذَهَبَ الرَّجُلُ يَحْتَطِبُ وَيَبِيعُ فَجَاءَ وَقَدْ أَصَابَ عَشَرَةَ دَرَاهِمَ فَاشْتَرَى بِبَعْضِهَا ثَوْبًا وَبِبَعْضِهَا طَعَامًا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) : (هَذَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَجِيءَ الْمَسْأَلَةُ نُكْتَةً فِي وَجْهِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لاَ تَصْلُحُ إِلاَّ لِثَلاَثَةٍ لِذِي فَقْرٍ مُدْقِعٍ أَوْ لِذِي غُرْمٍ مُفْظِعٍ أَوْ لِذِي دَمٍ مُوجِعٍ) (رواه أبو داود).

وكان (صلى الله عليه وسلم) يأمر أصحابه بالأخذ بالأسباب حتى في الأمور التي قد يراها البعض دون جدوى أو فائدة ، فعنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَعْقِلُهَا وَأَتَوَكَّلُ أَوْ

أَطْلِقُهَا وَأَتَوَكَّلُ؟ (يقصد ناقته) قَالَ: (اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ) (رواه الترمذي). ولهذا عاب سيدنا عمرُ بن الخطاب (رضي الله عنه) على جماعة من أهل اليمن، كانوا يحجون بلا زاد فذمهم؛ قال معاوية بن قرة: لقي عمر بن الخطاب ناساً من أهل اليمن، فقال: من أنتم؟ قالوا: نحن المتوكلون، قال: بل أنتم المتواكلون، إنما المتوكل الذي يلقي حَبَّه في الأرض ثم يتوكل على الله.(رواه ابن أبي الدنيا). ورأى (رضي الله عنه) قومًا قابعين في رُكن المسجد بعدَ صلاة الجمعة، فسألهم: من أنتم؟ قالوا: نحن المُتوكِّلون على الله، فعَلاهم عمر (رضي الله عنه) بدِرّته ونَهَرَهم، وقال: لا يَقعُدنّ أحدُكم عن طلب الرزق، ويقول: اللهم ارزقني، وقد علِمَ أن السماءَ لا تُمطِرُ ذهبًا ولا فضّة، وإن الله يقول: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصّلاَةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ}[الجمعة :١٠].

إن الإسلام دين لا يعرف التواكل ، بل يحاربه وينبذه ، ولا يعرف التواني والكسل والخمول ، وإنما هو دين الأخذ بالأسباب والتوكل على الله ، قال تعالى:{ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[النحل:٩٧]. وفي الحديث عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): (لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا). (تغدو): تذهب أول النهار، (وتروح): ترجع آخر النهار. (رواه الترمذي).

والأخذ بالأسباب أيضًا سنة عن الأنبياء والرسل (عليهم السلام) ، فهذا نبي الله موسى (عليه السلام) أمره ربه (سبحانه) أن يضرب البحر بعصاه حيث أتبعه فرعون وجنوده يريدون إلحاق الضرر به وبمن آمن معه ، وما العصى إلا سبب من أسباب النصر والتأييد الإلهي ، قال تعالى:{وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ * فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ *إِنَّ هَؤُلاء لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ * فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ * فَلَمَّا تَرَاءى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ * وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ } [الشعراء: ٥٢ ـ ٦٨] ، ولو شاء الله أن يؤيد نبيه موسى (عليه السلام) بالنصر دون أن يأمره بضرب العصى لفعل ، ولكنه يُعلِّم أنبياءه وعباده الصالحين سنة الأخذ بالأسباب ، لتأخذ الأسباب نصيبها من حياة الإنسان .

ومريم بنت عمران (عليها السلام) أمرها ربها تبارك وتعالى وهي في أشد حالات الضعف والوهن وكانت في حالة المخاض ، أن تهز النخلة لتسقط عليها رطبًا جنيًا، قال تعالى:{وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ

عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا}[مريم : ٢٥]. ومن المعلوم أنه لو هز النخلة عشرة رجال من جذعها لما تساقطت ثمرة واحدة ولكنها سنة الأخذ الأسباب.

ألم تر أن الله أوحى لمريم *** وهزي إليك الجذع تسَّاقط الرطب

ولو شاء أن تجنيه من غير هزها *** جنته ولكن كل شيء له سبب

إن الإيمان بالقضاء والقدر لا يتعارض بأي حال من الأحوال مع سنة الأخذ بالأسباب، وهذه عقيدة يجب أن ترسخ في الأذهان لنقضي بها على مفهوم السلبية والتواكل ويتأكد معنى الإيجابية، و يعمق مفهوم التوكل عند العبد وعدم الاغترار بحوله وقوته، فالأمور مقدرة أزلا بأسبابها الشرعية والدنيوية بمشيئة الله تعالى وحده .

إن المسلمين اليوم وهم يحتفلون بمقدم عام هجري جديد حري بهم أن يفهموا الإسلام فهمًا صحيحًا بعيدًا عن الأفكار المغلوطة ، فالإسلام أمر أتباعه بالعمل والسعي لعمارة الأرض ، ولا يعرف الكسل أو الضعف ، فهو دين حضارة ، ولن تتأتى الحضارة إلا بالأخذ بأسبابها معتمدين على الله عز وجل.

* * *

دروس وعبر من الإسراء والمعراج

أولاً : العناصر:

١. رحلة الإسراء والمعراج ودورها في ترسيخ الإيمان.
٢. مكانة النبي (صلى الله عليه وسلم) ومنزلته .
٣. مشاهد من رحلة الإسراء والمعراج.
٤. الصلاة وعظمتها ومنزلتها في الإسلام.
٥. مكانة المسجد الأقصى في الإسلام.

ثانيًا : الأدلة:

الأدلة من القرآن:

١- قال تعالى :{سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الإسراء: ١].

٢- وقال تعالى :{وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى } [النجم: ١ – ١٨].

٣- وقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء: ٢٥].

٤- وقال تعالى: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [الروم :٣٠].

الأدلة من السنة :

١- عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ :(أُتِيتُ بِالْبُرَاقِ – وَهُوَ دَابَّةٌ أَبْيَضُ طَوِيلٌ فَوْقَ الْحِمَارِ وَدُونَ الْبَغْلِ يَضَعُ حَافِرَهُ عِنْدَ مُنْتَهَى طَرْفِهِ – قَالَ فَرَكِبْتُهُ حَتَّى أَتَيْتُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ – قَالَ – فَرَبَطْتُهُ بِالْحَلْقَةِ الَّتِى يَرْبِطُ بِهِ الأَنْبِيَاءُ – قَالَ – ثُمَّ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَصَلَّيْتُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ خَرَجْتُ فَجَاءَنِى جِبْرِيلُ (عَلَيْهِ السَّلاَمُ) بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ فَاخْتَرْتُ اللَّبَنَ فَقَالَ جِبْرِيلُ (صلى الله عليه وسلم) اخْتَرْتَ الْفِطْرَةَ..) (رواه مسلم).

٢- وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) (لَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي الْحِجْرِ وَقُرَيْشٌ تَسْأَلُنِي عَنْ مَسْرَايَ فَسَأَلَتْنِي عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ لَمْ أُثْبِتْهَا فَكُرِبْتُ كُرْبَةً مَا كُرِبْتُ مِثْلَهُ قَطُّ قَالَ فَرَفَعَهُ اللَّهُ لِي أَنْظُرُ إِلَيْهِ مَا يَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْبَأْتُهُمْ بِهِ وَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي جَمَاعَةٍ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ فَإِذَا مُوسَى قَائِمٌ يُصَلِّي فَإِذَا رَجُلٌ ضَرْبٌ جَعْدٌ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ ، وَإِذَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ (عَلَيْهِ السَّلَام) قَائِمٌ يُصَلِّي أَقْرَبُ النَّاسِ بِهِ شَبَهًا عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ ،

وَإِذَا إِبْرَاهِيمُ (عَلَيْهِ السَّلَام) قَائِمٌ يُصَلِّي أَشْبَهُ النَّاسِ بِهِ صَاحِبُكُمْ يَعْنِي نَفْسَهُ فَحَانَتْ الصَّلَاةُ فَأَمَمْتُهُمْ فَلَمَّا فَرَغْتُ مِنْ الصَّلَاةِ قَالَ قَائِلٌ يَا مُحَمَّدُ هَذَا مَالِكٌ صَاحِبُ النَّارِ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِ فَبَدَأَنِي بِالسَّلَامِ.) (رواه مسلم).

٣- وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم): (أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَالأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلاَّتٍ أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ)

(متفق عليه).

٤- وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) عَنِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: (لاَ تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلاَّ إِلَى ثَلاَثَةِ مَسَاجِدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ (صلى الله عليه وسلم) وَمَسْجِدِ الأَقْصَى) (متفق عليه).

٥- وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عَلَى قَوْمٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ. قَالَ: قُلْتُ مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالُوا: خُطَبَاءُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا مِمَّنْ كَانُوا يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ، وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا يَعْقِلُونَ)

(رواه الإمام أحمد).

ثالثًا : **الموضوع**:

تأتي ذكري الإسراء والمعراج علي الأمة الإسلامية هذا العام ، وقد مرت بها بعض الأحداث والمحن التي تذكرنا بالشدائد التي سبقت معجزة الإسراء والمعراج ، حيث كان رسول الله (صلي الله عليه وسلم) والمسلمون معه يعانون أشد المعاناة من أعداء الإسلام بأساليب مختلفة

وطرق متنوعة ، فجاءت رحلة الإسراء والمعراج تفريجًا للكروب وشرحًا للصدور وقربًا من الله علام الغيوب ؛ لتثبت قلب رسول الله (صلي الله عليه وسلم) وتطمئنه ، وتثبت كذلك قلوب المؤمنين الذين اتبعوه ، وتبعث فيهم الطمأنينة فيوقنون بأنهم علي الحق ، وأن دينهم الحق ، وأن الله ناصر الحق لا محالة .

والإسراء والمعراج من المعجزات التي أيد الله بها نبينا (عليه الصلاة والسلام)، والإيمان بهذه المعجزة جزء من العقيدة الإسلامية، وبهذا كان التصديق بمعجزة الإسراء والمعراج ترسيخاً لإيمان المؤمنين وامتحاناً للنفاق والمنافقين الذين ارتدوا عن الدين لضعف إيمانهم وقلة يقينهم، وفاز بالصدق والصديقية أبو بكر (رضي الله عنه) فسمي صديقاً، لإيمانه وتصديقه الجازم بمعجزة الإسراء والمعراج، ومثله الصحابة الكرام ممن امتحن الله قلوبهم بالتقوى ، ففازوا بالإيمان الراسخ والعقيدة الثابتة التي تمثل جزءاً هامًّا منها ، ومن ثم كانت رحلة الإسراء اختباراً جديداً للمسلمين في إيمانهم ويقينهم ، وفرصة لمشاهدة النبي (صلى الله عليه وسلم) عجائب القدرة الإلهية ، والوقوف على حقيقة المعاني الغيبيّة، والتشريف بمناجاة الله في موطنٍ لم يصل إليه بشرٌ قطّ ، إضافةً إلى كونها سبباً في تخفيف أحزانه وهمومه ، وتجديد عزمه على مواصلة دعوته والتصدّي لأذى قومه .

ومن هنا فلا عجب أن يقف العقل البشري عاجزًا أمام هذه المعجزة ، حيث أتى القرآن الكريم معلنًا أن الأمر يتعلق بقدرة الله تعالى

الذي أسرى بعبده، قال عز وجل: {سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بارَكْنا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الإسراء:١]

إننا نجد في هذه الآية الكبرى والمعجزة العظمى - الإسراء والمعراج - تكريمَ الله تعالى لنبيه محمدٍ (صلى الله عليه وسلم) وعلو منزلته وتثبيته وزيادة يقينه ، وعبرة وتمحيصاً وهدى ورحمة وثباتاً لمن آمن وصدق وكان من أمر الله على يقين ، ولا أدل على ذلك من أنه (صلى الله عليه وسلم) حينما عاد من رحلته وأصبح في المسجد الحرام جلس واجماً ساكناً فجاءه أبو جهل عليه - لعنة الله - فقال: ما بك يا ابن أخي؟ فأخبره النبي (صلى الله عليه وسلم) بالأمر فقال له: لو جمعت لك قريشاً تخبرهم؟ قال: نعم، فجمعهم فأخبرهم النبي (صلى الله عليه وسلم) فأخذوا في الضحك والصفير والتصفيق، فازدادوا كفراً وضلالاً والعياذ بالله ،وارتد ضعفاء النفوس، أما الصديق فقال: إني أصدقه بخبر السماء! ألا أصدقه في الإسراء.. فآمن من آمن وهو على يقين من ربه ، وكفر من كفر بعد أن قامت عليه الحجة.

لقد جاءت معجزة الإسراء والمعراج في وقت فَقَدَ فيه الرسول (صلى الله عليه وسلم) الناصر من الأهل ، إلا أنه لم يفقد عزيمته في مواصلة الدعوة، فتوجه إلى ربه داعياً: (اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي) ، فجاءت ضيافة الإسراء والمعراج بعد ذلك؛

تكريماً من الله تعالى له، وتجديداً لعزيمته وثباته، ثم جاءت دليلاً على أن هذا الذي يلاقيه (صلى الله عليه وسلم) من قومه ليس بسبب أن الله تعالى قد تخلى عنه، أو أنه تعالى قد غضب عليه، وإنما هي سُنَّة الله مع محبيه.

إن رحلة الإسراء والمعراج بيان لفضل نبينا (صلى الله عليه وسلم) الذي يتجلى في هذا اللقاء العظيم الذي مَثَّلَ فيه كلُ نبي أمتَه، إنه مؤتمر الأقصى الذي جمع الله تعالى فيه الأنبياء جميعًا، والعجب العجاب حين تأتي الصلاة فينتظر الأنبياء أيُّهم يصلي إمامًا، فيأخذ جبريل (عليه السلام) بيد النبي (صلى الله عليه وسلم) فيقدمه معلنًا إمامة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) لا لأمته فقط ، وإنما للأنبياء والمرسلين أجمعين، فعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): (...فَحَانَتِ الصَّلاَةُ فَأَمَمْتُهُمْ ...) (صحيح مسلم)، وكأن الله عز وجل بذلك يريد أن يرسل بلاغًا إلى عباده جميعًا أن دين الأنبياء واحد، فلقد جاء جميع الأنبياء بالتوحيد الخالص، قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء: ٢٥]، وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) : (أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَالأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلاَّتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ) (رواه البخاري)

وفي إمامته (صلى الله عليه وسلم) للأنبياء إشارة إلى أنَّ أمر النبوة قد ختم، وأنَّ هذا النبي الكريم هو خاتمهم، كما جاء في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ : (مَثَلِي وَمَثَلُ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بُنْيَانًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلاَّ مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهُ فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ هَلاَّ وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ – قَالَ – فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ) (متفق عليه) ولأنَّ هذا حدث في المسجد الأقصى مهبط الرسالات ومبعث الأنبياء، ففي ذلك إشارة من الله عز وجل أنه وضع حماية المقدسات في الأرض في يد هذا النبي الكريم وأمته من بعده.

وقد بين النبي (صلى الله عليه وسلم) جانباً من هذه الرحلة وكيف كان على نحو من التفصيل فقال: (أُتِيتُ بِالْبُرَاقِ – وَهُوَ دَابَّةٌ أَبْيَضُ طَوِيلٌ فَوْقَ الْحِمَارِ وَدُونَ الْبَغْلِ يَضَعُ حَافِرَهُ عِنْدَ مُنْتَهَى طَرْفِهِ – قَالَ فَرَكِبْتُهُ حَتَّى أَتَيْتُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ – قَالَ – فَرَبَطْتُهُ بِالْحَلْقَةِ الَّتِى يَرْبِطُ بِهِ الأَنْبِيَاءُ – قَالَ – ثُمَّ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَصَلَّيْتُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ خَرَجْتُ فَجَاءَنِى جِبْرِيلُ – عَلَيْهِ السَّلاَمُ – بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ فَاخْتَرْتُ اللَّبَنَ فَقَالَ جِبْرِيلُ (صلى الله عليه وسلم) اخْتَرْتَ الْفِطْرَةَ) وبهذا ، ومنذ هذه الليلة تأكدت الصفة الأولى لهذا الدين وهو أنه دين الفطرة.

فليعلم القاصي والداني أن سلامة الفطرة لب الإسلام، ويستحيل أن تُفتح أبواب السماء لرجل فاسد السريرة عليل القلب، فإن الفطرة الرديئة كالعين الحمئة لا تسيل إلا قذرًا وسوادًا، وربما أُخفى هذا السواد

الكريه وراء ألوان زاهية، ومظاهر مزوقة، ويوم تكون العبادات نفسها ستارًا لفطرة فاسدة فإن هذه العبادات الخبيثة- والحال كذلك- تعتبر أنزل رتبة من المعاصي الفاجرة..، ولم لا والإسلام هو الدين الذي يلبي نوازع الفطرة في توازن بين الروح والجسد والدنيا والآخرة، وقد كان هذا من أهم أسرار سرعة انتشار الإسلام وإقبال الناس عليه، على الرغم مما يوضع أمامه من عوائق وعقبات؟ قال تعالى: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [الروم :٣٠].

جدير بالذكر أن معجزة الإسراء والمعراج جاءت في منتصف فترة الرسالة التي مكثت ثلاثة وعشرين عاما، حيث كانت في نهايات العهد المكي وعلى مشارف العهد المدني للدعوة الإسلامية، وتحديداً كانت قبيل الهجرة النبوية بنحو عام، وبذلك فقد كانت علاجاً مَسَحَ متاعب الماضي ووضع بذور النجاح للمستقبل.

إن رؤية طرف من آيات الله الكبرى في ملكوت السموات والأرض له أثره الحاسم في توهين كيد الكافرين وتصغير جموعهم ومعرفة عقباهم. وقد عرف محمد (صلى الله عليه وسلم) في هذه الرحلة أن رسالته ستنتشر في الأرض وتتوطن الأودية الخصبة في النيل والفرات وتنزع هذه البقاع من مجوسية الفرس وتثليث الروم ، فكان الإسراء والمعراج فَتْحًا لأبواب السماء للترحيب بالرسول في هذه الرحلة القُدْسِيّة، وتكريمًا له، وبيانًا لعلوّ قَدْرِهِ ومنزلته في الأرض والسماء،

وإمامته لجميع الأنبياء الذين التقاهم في رحاب المسجد الأقصى، إيذانًا بأنَّ نبوّته خاتمة لكل الرسالات، وأنَّ ميراث الرسل قد انتقل إليه وإلى أمّته: { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} [البقرة:١٤٣].

على أن من أهم ما أثمرته هذه الليلة المباركة تلك الهدية التي رجع بها النبي (صلى الله عليه وسلم) ، ألا وهي الصلاة ، غرة الطاعات ، ورأس القربات ، وعماد الدين، وعصام اليقين ، وقد أراد الله تعالى أن تُفرض الصلاة مباشرة دون وساطة جبريل (عليه السلام) أو غيره لتكون الصلةَ الدائمة بين المسلم وبين ربه، وإعلانًا بعظيم منزلتها وعلو قدرها، وإلفاتًا لأنظار الناس بجلال قدرها وأن من أقامها فقد أقام الدين.

وفي فرض الصلاة في هذه الليلة دلالة على عظيم فضل الله تعالى على عباده، فقد انتهى الأمر بكونها خمسًا في العمل وخمسين في الثواب، فهل هناك فضل ويسر أعظم من ذلك!! بل إن هناك إشارة إلى ذلك في قول الله تعالى لنبيه (صلى الله عليه وسلم) في سورة الإسراء: {أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا * وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا }[الإسراء: ٧٨، ٧٩] ، وقال تعالى: {فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ } [الروم: ١٧، ١٨].

ويعتبر فرض الصلاة بهيئاتها وأعدادها وأوقاتها اليوميَّة المعروفة على المسلمين في رحلة المعراج دليلاً على أن الصلاة صلة بين العبد وربه، وهي معراجه الذي يعرج عليه إلى الله بروحه، وأنها الوقت الذي يناجي العبد فيه ربه، فالصلاة إذن عماد الدين؛ من تركها وأهملها فكأنه هدم دينه وأضاعه.

فللصلاة منزلتها الكبيرة في الإسلام ، ومما زادها أهمية وفضلا أنها فرضت في ليلة الإسراء والمعراج ، وفي هذا اعتناء بها ، وزيادة في تشريفها ، ومن ثم كانت آخر ما وصى به رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قبل موته ، ففي الحديث عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ ، قَالَتْ: كَانَ مِنْ آخِرِ وَصِيَّةِ رَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (الصَّلَاةَ الصَّلَاةَ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ) حَتَّى جَعَلَ نَبِيُّ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يُلَجْلِجُهَا فِي صَدْرِهِ ، وَمَا يُفْصِحُ بِهَا لِسَانُهُ. (رواه الإمام أحمد).

ولقد ربطت هذه المعجزة بين المسجد الحرام في مكة والمسجد الأقصى في القدس ، حيث كان ابتداؤها من المسجد الحرام بمكة المكرمة وانتهاؤها بالمسجد الأقصى من الأرض المباركة، وهذا مما يدل على قدسية هذين المسجدين وما يحيط بهما من أرض شهدت مبعث النبوات وكانت مهد الرسالات ، ولهذا كان المسجد الأقصى القبلة الأولى التي لا تنسى للمسلمين، وكان المسجد الحرام القبلة الدائمة التي يتوجهون إليها كل يوم ، ويحجون إليها كل عام .

وإذا كان المسجد الحرام هو أول بيت وُضِع للناس في الأرض ؛ فإن المسجد الأقصى هو المسجد الثاني والقبلة الأولى. جاء في صحيح البخاري عَنْ أَبِي ذَرٍّ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) ، قَالَ : قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ فِي الأَرْضِ أَوَّلُ قَالَ: (الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ) قَالَ : قُلْتُ : ثُمَّ أَيٌّ ؟ قَالَ : (الْمَسْجِدُ الأَقْصَى) قُلْتُ كَمْ كَانَ بَيْنَهُمَا قَالَ:(أَرْبَعُونَ سَنَةً) ثُمَّ أَيْنَمَا أَدْرَكَتْكَ الصَّلاَةُ بَعْدُ فَصَلِّهْ فَإِنَّ الْفَضْلَ فِيهِ)

وإذا كان المسلمون يتوجّهون في صلاتهم إلى الكعبة المشرّفة في اليوم خمس مرات لأداء الفريضة، فمن المهم أن يدرك هؤلاء المسلمون أن هذه الفريضة العظيمة التي هي عمود الدين قد فرضها الله تعالى من فوق سماء بيت المقدس التي هي بوّابة الأرض إلى السماء، وفي هذا ما يكفي لتذكير المسلمين بأهمية المسجد الأقصى ومكانته في عقيدة المسلمين ، إذ إنه مَسرى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ومعراجه إلى السماوات العلى ، وكان القبلة الأولى التي صلى المسلمون إليها في الفترة المكية ، وأحد المساجد الثلاثة التي تشد الرحال إليها ، فعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) عَنِ النَّبِىِّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ : (لاَ تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلاَّ إِلَى ثَلاَثَةِ مَسَاجِدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ (صلى الله عليه وسلم) وَمَسْجِدِ الأَقْصَى) (متفق عليه)، وفي ذلك توجيه للمسلمين بأن يعرفوا منزلته ، ويستشعروا مسئوليتهم نحوه ، وهذا يقتضي وجوب المحافظة من قبل المسلمين على هذه المساجد ورعايتها.

استقبال رمضان بالعبادة والعمل لا البطالة والكسل

أولاً : العناصر-:

١. التأهب والاستعداد لقدوم شهر رمضان.

٢. الحث على اغتنام مواسم الطاعات.

٣. رمضان شهر التوبة والغفران.

٤. من فضائل شهر رمضان.

٥. أهمية أكل الحلال والبعد عن الحرام في رمضان وغيره.

٦. رمضان شهر عبادة وعمل لا بطالة وكسل.

ثانياً: الأدلـــة-:

الأدلــة مــن القـرآن-:

١. قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [البقرة:١٨٣-١٨٥].

٢. وقال تعالى:{ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ }
[الزمر: ٥٣، ٥٤].

٣. وقال تعالى :{وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}
[النور: ٣١]

٤. وقال تعالى :{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}
[التحريم :٨] .

٥. وقال تعالى:{وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا} [النساء:١١٠] .

٦. وقال تعالى : {فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا }[نوح: ١٠] .

الأدلــة مــن السنة-:

١. عَنِ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ (رضي الله عنه) قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فِي آخِرِ يَوْمٍ مِنْ شَعْبَانَ، فَقَالَ: (أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ أَظَلَّكُمْ شَهْرٌ عَظِيمٌ، شَهْرٌ مُبَارَكٌ، شَهْرٌ فِيهِ لَيْلَةٌ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، جَعَلَ اللَّهُ صِيَامَهُ فَرِيضَةً، وَقِيَامَ لَيْلِهِ تَطَوُّعًا ، مَنْ تَقَرَّبَ فِيهِ بِخَصْلَةٍ مِنَ الْخَيْرِ كَانَ كَمَنْ أَدَّى فَرِيضَةً فِيمَا سِوَاهُ ، وَمَنْ أَدَّى فِيهِ فَرِيضَةً كَانَ كَمَنْ أَدَّى سَبْعِينَ فَرِيضَةً فِيمَا سِوَاهُ ، وَهُوَ شَهْرُ الصَّبْرِ، وَالصَّبْرُ ثَوَابُهُ الْجَنَّةُ ...) (صحيحُ ابن خُزَيمة) .

٢. وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ: لَمَّا حَضَرَ رَمَضَانُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَدْ جَاءَكُمْ رَمَضَانُ ، شَهْرٌ مُبَارَكٌ ، افْتَرَضَ

اللَّهُ عَلَيْكُمْ صِيَامَهُ ، تُفْتَحُ فِيهِ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ ، وَتُغْلَقُ فِيهِ أَبْوَابُ الْجَحِيمِ ، وَتُغَلُّ فِيهِ الشَّيَاطِينُ ، فِيهِ لَيْلَةٌ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ، مَنْ حُرِمَ خَيْرَهَا فَقَدْ حُرِمَ) (مسند أحمد).

٣. وعَنْ أَبِي مُوسَى عَنِ النبيِّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: (إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مسيء النَّهَارِ ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مسيء اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا) (صحيح مسلم) .

٤. وعن أَنَس بْن مَالِكٍ (رضي الله عنه) قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَقُولُ: (قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ منكَ وَلاَ أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلاَ أُبَالِي ، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً) (سنن الترمذي) .

٥. وعن عبادة بن الصامت (رضي الله عنه) أن النبي (صلى الله عليه وسلم) إذا أقبل شهر رمضان قام خطيباً ، فقال: (أَتَاكُمْ رَمَضَانُ شَهْرُ بَرَكَةٍ ، فِيهِ خَيْرٌ يَغْشَاكُمُ اللَّهُ فَيُنْزِلُ الرَّحْمَةَ وَيَحُطُّ فِيهَا الْخَطَايَا، وَيُسْتَحَبُّ فِيهَا الدَّعْوَةُ، يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَى تَنَافُسِكُمْ وَيُبَاهِيكُمْ بِمَلَائِكَةٍ، فَأَرُوا اللَّهَ مِنْ أَنْفُسَكُمْ خَيْرًا، فَإِنَّ الشَّقِيَّ كُلَّ الشَّقِيِّ مَنْ حُرِمَ فِيهِ رَحْمَةَ اللَّهِ) (مجمع الزوائد).

٦. وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: (إِذَا جَاءَ رَمَضَانُ فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ وَصُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ) (متفق عليه) .

٧. وعَنْ أَبِي مُوسَى (رضي الله عنه) عَنِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: (إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا)

(صحيح مسلم).

٨. وعن عبادة بن الصامت (رضي الله عنه) أنه كان الحبيب (صلى الله عليه وسلم) إذا أقبل شهر رمضان يقول: (أَتَاكُمْ رَمَضَانُ شَهْرُ بَرَكَةٍ ، فِيهِ خَيْرٌ يَغْشَاكُمُ اللَّهُ فَيُنْزِلُ الرَّحْمَةَ وَيَحُطُّ فِيهَا الْخَطَايَا ، وَيُسْتَحَبُّ فِيهَا الدَّعْوَةُ ، يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَى تَنَافُسِكُمْ وَيُبَاهِيكُمْ بِمَلائِكَةٍ ، فَأَرُوا اللَّهَ مِنْ أَنْفُسَكُمْ خَيْرًا ، فَإِنَّ الشَّقِيَّ كُلَّ الشَّقِيِّ مَنْ حُرِمَ فِيهِ رَحْمَةَ اللَّهِ) (الطبراني في المعجم الكبير).

٩. وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) أن رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) كان يقول: (الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ) (رواه مسلم).

١٠. وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: (مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ) ، وعَنْه (رضي الله عنه) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ:(مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ) (متفق عليه)

١١. وعَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ (رضي الله عنهما) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (رُبَّ صَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ صِيَامِهِ الْجُوعُ، وَالْعَطَشُ ، وَرُبَّ قَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ قِيَامِهِ السَّهَرُ) (المعجم الكبير للطبراني)

ثالثاً: الموضـــوع-:

من نعم الله عز وجل على عباده أن جعل لهم مواسم للخيرات والبركات ، ومَنَّ عليهم فيها بالنفحات والمزيد من الحسنات ، فيعملون قليلاً ويؤجرون كثيرًا ، وينفقون زهيدًا ويجزون مزيدًا ، {ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [الحديد:٢١] .

ومن هذه المواسم العظيمة ما نحن مقبلون عليه من أيام مباركة وليال فاضلة ، وهو شهر رمضان المبارك ، شهر جعل الله صيام نهاره فريضة ، وقيام ليله سنة ، قال سبحانه : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنْ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}

[البقرة:١٨٣-١٨٥].

ونحن نستقبل هذا الضيف الكريم علينا أن نستشعر منزلته ومكانته ، ونتأهب لاستقباله ، فهو شهر تتطلع إليه قلوب المؤمنين ، وتتشوف

لبلوغه أفئدة المتقين ، نهارُهُ مصونٌ بالصيام ، وليلُهُ معمورٌ بالقيام ، تهبُّ فيه رياحُ الأنس بالله ، وتجود الأنفسُ بما عندها نحو الله عز وجل ، إنه منحة ربانية لهذه الأمة ، فهو شهرٌ عظَّمه اللهُ وكرَّمه ، وأَعْظَمَ الثواب فيه لصُوَّامه وقوَّامه ، وهو بمثابة سوق يُتيحُه الله عز وجعل لعباده كل عام مرة ليتاجروا فيه مع ربهم التجارة الرابحة.

ولقد حرص الرسول (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) على تهيئة أصحابه لاستقبال هذا الشهر الكريم ، واغتنام أيامه ولياليه بالمسارعة إلى الخيرات ، وطلب المغفرة والرحمات من رب الأرض والسموات ، فعَن سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ (رضي الله عنه) قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فِي آخِرِ يَوْمٍ مِنْ شَعْبَانَ، فَقَالَ: (أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ أَظَلَّكُمْ شَهْرٌ عَظِيمٌ، شَهْرٌ مُبَارَكٌ، شَهْرٌ فِيهِ لَيْلَةٌ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، جَعَلَ اللَّهُ صِيَامَهُ فَرِيضَةً، وَقِيَامَ لَيْلِهِ تَطَوُّعًا ، مَنْ تَقَرَّبَ فِيهِ بِخَصْلَةٍ مِنَ الْخَيْرِ كَانَ كَمَنْ أَدَّى فَرِيضَةً فِيمَا سِوَاهُ ، وَمَنْ أَدَّى فِيهِ فَرِيضَةً كَانَ كَمَنْ أَدَّى سَبْعِينَ فَرِيضَةً فِيمَا سِوَاهُ ، وَهُوَ شَهْرُ الصَّبْرِ ، وَالصَّبْرُ ثَوَابُهُ الْجَنَّةُ ...) (صحيحُ ابن خُزَيمة)

وكان النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إذا هبت نسائم شهر رمضان المبارك يُشيع البِشرَ ويَنشُر البهجة والسرور ، ويحث على العمل ، ويحذر من الكسل والتفريط ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ: لَمَّا حَضَرَ رَمَضَانُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) :(قَدْ جَاءَكُمْ رَمَضَانُ ، شَهْرٌ مُبَارَكٌ ، افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ صِيَامَهُ ، تُفْتَحُ فِيهِ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ ، وَتُغْلَقُ فِيهِ

أَبْوَابُ الْجَحِيمِ ، وَتُغَلُّ فِيهِ الشَّيَاطِينُ ، فِيهِ لَيْلَةٌ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ، مَنْ حُرِمَ خَيْرَهَا فَقَدْ حُرِمَ) (مسند أحمد)

ولقد كان الصحابة (رضوان الله تعالى عليهم) أسرع الناس استجابة للتوجيهات النبوية الكريمة ، وأحرص الناس على الامتثال لها والعمل بموجبها ، فكانوا يدعون الله تعالى ستة أشهر أن يبلغهم رمضان ، ثم يدعونه ستة أشهر أخرى أن يتقبل منهم ، وكان من دعائهم: " اللهم سلمني إلى رمضان وسلم لي رمضان وتسلمه مني متقبلا ، فكانوا طوال العام في رحاب رمضان ، يستقبلونه بالدعاء والعبادة ، ويتهيأون لاغتنامه ، ويودعونه بالقرآن وبالعبادة.

ونحن على أعتاب شهر الخير وجب علينا أن نتأسى بصحابة رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، وأن نستقبل هذا الشهر الكريم بتوبة صادقة خالصة ، ونحاسب أنفسنا على التقصير في فعل الطاعات ، وكذلك المحاسبة على فعل المعاصي واتباع الشهوات ، بمنع أنفسنا من الاستمرار عليها ، والعزم على عدم العود إليها ، إنها دعوة لتوبة خالصة صادقة ، كما قال العلماء العاملون : " التخلية قبل التحلية.

هكذا ينبغي على كل مسلم أن يُعدَّ نفسَه ويجهزها ويؤهلها لاستقبال النفحات والرحمات والخيرات، بتوبة نصوح تغسل ذنوبنا ، وتطهر قلوبنا ، وليكن نصب أعيننا أن الله يبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ويبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، كما روى الإمام مسلم في صحيحه عَنْ أَبِى مُوسَى عَنِ النبيِّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ:

(إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مسيء النَّهَارِ ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مسيء اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا)

(صحيح مسلم).

فمهما أسرف الإنسان في المعاصي ، ومهما عظمت ذنوبه فلا ييأس من رحمة الله عز وجل فباب التوبة مفتوح ، قال تعالى :{ قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } [الزمر: ٥٣] . وفي الحديث القدسي : عن أَنَس بْن مَالِكٍ (رضي الله عنه) قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَقُولُ: (قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ منكَ وَلاَ أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلاَ أُبَالِي ، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً) (سنن الترمذي)

فالتوبة والرجوع إلى الله تعالى من أوجب الواجبات ، وقد جاءت الدعوة الإلهية لجميع المؤمنين طائعهم وعاصيهم بالتوبة والرجوع إلى الله عز وجل ، قال تعالى :{وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [النور: ٣١] ، كذلك جاء الأمر بالتوبة من أجل تكفير السيئات ، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى

بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [التحريم: ٨]. إنها التوبة الخالصة الصادقة الجازمة التي تمحو ما قبلها من السيئات ، قال ابن كثير – رحمه الله :- ولهذا قال العلماء : التوبة النصوح هي أن يُقلعَ عن الذنب في الحاضر ، ويندمَ على ما سلف منه في الماضي ، ويعزِم على ألا يفعل في المستقبل ، ثم إن كان الحق لآدمي ردّه إليه.

إن التوبة المرجو قبولها من الله تعالى هي التي يقف صاحبها ساعة التوبة نادمًا عازمًا – بصدق بينه وبين الله تعالى – ألا يعود إلى المعاصي أبدًا ، ولذا فالمطلوب أن يكون الإنسان ساعة التوبة عازمًا على ترك المعصية وعدم الرجوع إليها، قال تعالى:{وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا} [النساء:١١٠] ، بهذه المحاسبة وبالتوبة والاستغفار يجب علينا أن نستقبل رمضان ، فما أحوجنا إلى رحمة الله تعالى ومغفرته.

وعلينا أن نغتنم هذا الشهر الكريم بالعبادة والطاعة ، وكثرة الصلاة وقراءة القرآن والذكر، ففي الصحيحين من حديث أَبِى هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: (مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ) (متفق عليه).

وفي هذا الشهر الكريم نجد من أبواب الخير الكثير والكثير ؛ حيث رحمة الله القريبة من عباده ، وإجابة دعواتهم وتلبية حاجاتهم ، والعاقل من قام على أبواب الخير وفعل البر، حيث ينظر الله تعالى إلى التنافس

بين العباد في أبواب الخير ، فإياك أن تحرم نفسك في رمضان من رحمة الله تعالى ، فقد كانت وصية نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) لأمته باغتنام الفرصة والتنافس في الخير ، وهذا واضحٌ في وصيته التي رواها الطبراني من حديث عبادة بن الصامت (رضي الله عنه) أنه كان الحبيب (صلى الله عليه وسلم) إذا أقبل شهر رمضان يقول: (أَتَاكُمْ رَمَضَانُ شَهْرُ بَرَكَةٍ ، فِيهِ خَيْرٌ يَغْشَاكُمُ اللَّهُ فَيُنْزِلُ الرَّحْمَةَ وَيَحُطُّ فِيهَا الْخَطَايَا ، وَيُسْتَحَبُّ فِيهَا الدَّعْوَةُ، يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَى تَنَافُسِكُمْ وَيُبَاهِيكُمْ بِمَلائِكَةٍ ، فَأَرُوا اللَّهَ مِنْ أَنْفُسَكُمْ خَيْرًا ، فَإِنَّ الشَّقِيَّ كُلَّ الشَّقِيِّ مَنْ حُرِمَ فِيهِ رَحْمَةَ اللَّهِ) (الطبراني في المعجم الكبير)

ومن فضائل هذا الشهر الكريم:

* أنه تضاعف فيه الحسنات ، وتزداد فيه أسباب المغفرة ، والجنة تتزين وتتهيأ لاستقبال الصائمين والقائمين ، تُفتَّح أبوابها ، والنار تغلق أبوابها، وتُسلسل الشياطين ، ويتسابق العباد إلى الخيرات ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: (إِذَا جَاءَ رَمَضَانُ فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ وَصُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ.) (متفق عليه)

إن لشهر رمضان فضائل عظيمة ومكانة كبيرة ، ينبغي أن نعيها وأن نعيش في كنفها ، فهو شهر القرآن والصيام والذكر والقيام ، قال تعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [البقرة: ١٨٥].

وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) أن رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) كان يقول: (الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ) (رواه مسلم) فهو فرصة لمغفرة الذنوب ولمحو السيئات ، فعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: (مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ) (متفق عليه)، فعلينا أن نغتنم هذه الفرصة ، حتى لا نكون ممن ذكرهم المصطفى (صلى الله عليه وسلم) في الحديث الذي رواه أَبو هُرَيْرَةَ ، أَنَّ النَّبِيَّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) صَعِدَ الْمِنْبَرَ، فَقَالَ: (آمِينَ آمِينَ آمِينَ) قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّكَ حِينَ صَعِدْتَ الْمِنْبَرَ قُلْتَ: آمِينَ آمِينَ آمِينَ، قَالَ: (إِنَّ جِبْرِيلَ أَتَانِي، فَقَالَ: مَنْ أَدْرَكَ شَهْرَ رَمَضَانَ وَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ فَدَخَلَ النَّارَ فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ، قُلْ: آمِينَ، فَقُلْتُ: آمِينَ، وَمَنْ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ أَوْ أَحَدَهُمَا فَلَمْ يَبَرَّهُمَا، فَمَاتَ فَدَخَلَ النَّارَ فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ، قُلْ: آمِينَ، فَقُلْتُ: آمِينَ، وَمَنْ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ فَمَاتَ فَدَخَلَ النَّارَ فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ، قُلْ :آمِينَ، فَقُلْتُ: آمِينَ)

(صحيح ابن حبان).

إن شهر رمضان مدرسة تتربى فيها الأمة الإسلامية ، تتعلم منها الصبر وتقوية الإرادة ، فيجد المسلمون في نهاره ثمرة الصبر والانتصار على الشهوات ، ويجدون في ليله لذة المناجاة والوقوف بين يدي ربهم ، وتتجسد فيه ملامح التلاحم بين المسلمين عامتهم وخاصتهم ، علمائهم

وعامّتهم كبيرهم وصغيرهم ، ليكون الجميع يدًا واحدةً ، وبناءً متكاملاً ، لدفع تيارات الفتن ، وأمواج المحن.

فلنحرص في رمضان كله بل وفي كل حياتنا وأوقاتنا على أن نؤدي الصلاة في جماعة في بيوت الله عز وجل ، ولا يكن حالنا كحال المنافقين الذين وصفهم الله تعالى بقوله : {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا} [النساء: ١٤٢]. وأن ننفق في سبيل الله ، ولا يبخل أحد منا ، ولا يخش الفقر و الفاقة ، ففي الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أَنَّ النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: (مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلاَّ مَلَكَانِ يَنْزِلاَنِ فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا وَيَقُولُ الآخَرُ اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا).

ولنعلم أن لنا إخواناً فقراء علينا أن نتذكرهم ، فمن ملك الزاد وأطعم فقد فاز بأجر كبير وثواب عظيم ، فعَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الجُهَنِيِّ ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَنْ فَطَّرَ صَائِمًا كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ ، غَيْرَ أَنَّهُ لاَ يَنْقُصُ مِنْ أَجْرِ الصَّائِمِ شَيْئًا) (رواه الترمذي) .

ولقد كان الحبيب المصطفى (صلى الله عليه وسلم) أجود بالخير من الريح المرسلة في رمضان، وما منع النبي (صلى الله عليه وسلم) سائلاً أبداً، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ (رضي الله عنه) قَالَ :كَانَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) أَجْوَدَ النَّاسِ ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ

يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ فَلَرَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) (أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ) (متفق عليه).

ألا فلنستقبل هذا الشهر الكريم بقلوب عامرة ونفوس طاهرة ، وتوبة صادقة خالصة ، فضاعفوا فيه الطاعات ، وحافظوا على حرماته ، وتزودوا فيه لآخرتكم ، حتى يشملكم الله برعايته وعنايته ورحمته ومغفرته ، فعَنْ أَبِي نَضْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ: سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ (رضي الله عنهما) يَقُولُ : قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (أُعْطِيَتْ أُمَّتِي فِي شَهْرِ رَمَضَانَ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي، أَمَّا وَاحِدَةٌ : فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ أَوَّلُ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ نَظَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِمْ ، وَمَنْ نَظَرَ اللهُ إِلَيْهِ لَمْ يُعَذِّبْهُ أَبَدًا، وَأَمَّا الثَّانِيَةُ : فَإِنَّ خُلُوفَ أَفْوَاهِهِمْ حِينَ يُمْسُونَ أُطَيَّبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ ، وَأَمَّا الثَّالِثَةُ : فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، وَأَمَّا الرَّابِعَةُ : فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَأْمُرُ جَنَّتَهُ فَيَقُولُ لَهَا : اسْتَعِدِّي وَتَزَيَّنِي لِعِبَادِي أَوْشَكَ أَنْ يَسْتَرِيحُوا مِنْ تَعَبِ الدُّنْيَا إِلَى دَارِي وَكَرَامَتِي ، وَأَمَّا الْخَامِسَةُ : فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ آخِرُ لَيْلَةٍ غَفَرَ لَهُمْ جَمِيعًا) فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: أَهِيَ لَيْلَةُ الْقَدْرِ؟ فَقَالَ: (لَا ، أَلَمْ تَرَ إِلَى الْعُمَّالِ يَعْمَلُونَ فَإِذَا فَرَغُوا مِنْ أَعْمَالِهِمْ وُفُّوا أُجُورَهُمْ) (شعب الإيمان)

وليس من الحكمة لعاقل أن يمسك عن الحلال في نهار رمضان امتثالاً لأمر الله ثم يفطر على حرام يضيع به صيامه وقيامه ، فالحق سبحانه وتعالى أمرنا بما أمر به المرسلين بالأكل من الطيبات ، فما دام

الأكل حلالاً طيباً فالعمل صالح مقبول، فإذا كان الأكل غير حلال، فكيف يكون العمل مقبولاً ؟ فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} [المؤمنون:٥١] ، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ}[البقرة: ١٧٢]. ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ) (صحيح مسلم). فإذا ما صام الإنسان وأفر على الحرام فلا ثواب لصيامه مصداقاً لقول الرسول (صلى الله عليه وسلم) في الحديث: (رُبَّ صَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ صِيَامِهِ الْجُوعُ، وَالْعَطَشُ، وَرُبَّ قَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ قِيَامِهِ السَّهَرُ).

إن هذا الشهر الكريم شهر عبادة وعمل ، فالعمل لصالح الدين عبادة وتقرب لله (عز وجل) ، والعمل لصالح الوطن أيضا عبادة وتقرب لله (عز وجل)

فرمضان شهر القرآن ، رمضان شهر الجود والكرم ، رمضان شهر الصبر ، رمضان شهر الرحمة ، رمضان شهر البر والصلة ، رمضان شهر الدعاء والإجابة ، وهو كذلك في كل ما ذكر، غير أن هناك جانبًا هامًّا من الجوانب قد يُفهم على غير وجهه الصحيح ، أو لا يكون فيه التطبيق على مستوى الفهم ، حيث يركن بعض الناس إلى الراحة والكسل ، أو التفرغ الكامل طوال الشهر للعبادة على حساب العمل ، أو التقصير في الواجب

المهني أو الوظيفي، أو إرجاء الأعمال إلى ما بعد رمضان، فيكون التأجيل والتسويف والترحيل ، أو شغل الوقت المخصص للعمل وخدمة الناس بمزيد من الصلاة وقراءة القرآن في ساعات العمل الرسمية ، حتى لو كان ذلك على حساب قضاء حوائج الناس أو تعطيلها ، أو حمل بعض الناس على الحضور إلى المصلحة الواحدة اليوم تلو الآخر تلو الذي يليه.

ونؤكد أن الإسلام قد وازن بين حاجة الروح والجسد دون أن تطغى إحداهما على الأخرى ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى :{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُون} [الجمعة : ٩، ١٠] .

فالعمل قد يكون فرض عين ، وقد يكون فرض كفاية ، وقد يكون مندوبًا أو مستحبًا أو مباحًا ، وهو محمود على كل حال طالما أنه في مجال التنمية والإنتاج ، لا الهدم والتخريب ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) في الحث على العمل : (من أمسى كالاً من عمل يده أمسى مغفورًا له) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : (مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ وَإِنَّ نَبِيَّ اللهِ دَاوُدَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ) ، ونبي الله داود (عليه السلام) كما أخبر عنه نبينا (صلى الله عليه وسلم) كان يصوم يومًا ويفطر يومًا ، ولم يمنعه صيامه من

العمل ، بل العمل الشاق في صناعة الحديد ، حيث يقول الحق سبحانه: { وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ }

[الأنبياء :٨٠].

وإذا كان من أخص صفات الصائم المراقبة لله عز وجل فإن ذلك يقتضي مراقبة الله عز وجل في الوفاء بحق العمل ، فالذي يراقب صلاتك وصيامك وإمساكك عن الطعام والشراب هو هو من يراقب وفاءك بحق العمل أو تفلتك منه وتقصيرك في حقه.

وإذا كان من أهم ما يجب أن يحرص عليه الصائم أكل الحلال واستجابة الدعاء ، فعليه أن يدرك أنه إذا أخذ الأجر ولم يؤد حق العمل فإنه إنما يأكل سحتا وحرامًا ، لأنه يكون قد أخذ أجرًا بلا عمل ، أو أخل بالعقد والعهد والشروط التي يتطلبها العمل ، سواء أكان ذلك عملاً حكوميًا أم خاصًا ، على أن حرمة المال العام أشد ، لأنه حق لأفراد الشعب جميعًا ، وهم سيختصمون من يفتأت على حقهم أمام الله عز وجل يوم القيامة.

وإذا كان رب العزة لا يقبل صدقة من غلول فإن أهل العلم بل إن أي عاقل يدرك أنه إذا أتعب نفسه بالجوع والعطش ثم أفطر على الحرام الخبيث فما انتفع بصلاة ولا صيام ولا دعاء ولا حج ، لأن نبينا (صلى الله عليه وسلم) يقول : (كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به).

وقد تجد من يقول لك : ها نحن مقبلون على رمضان فاجعل هذا الأمر أو ذاك إلى ما بعد العيد ، وبعضهم قد يصدمك بقوله : وهل هذا

وقته ، إذا عرضت عليه أمرًا يتطلب جهدًا كبيرًا أو تركيز اً في العمل ، وكان الصيام الذي ينبغي أن يدفع إلى مزيد من النشاط والعمل صار يدفع البعض إلى الخلود إلى الراحة والكسل.

رمضان شهر العزيمة وشهر الإرادة ، وينبغي لتلك العزيمة القوية والإرادة الفولاذية التي تقهر الجوع والعطش ، بل تقهر سائر الشهوات والموبقات والخصال الذميمة أن تقهر البطالة والكسل ، كما ينبغي أن تقهر العادات السيئة ، وبخاصة لدى المدخنين أو المتعاطين أو المدمنين ، فهذه فرصتهم للإقلاع عن هذه العادات السيئة والأوبئة والسموم المدمرة القاتلة.

* * *

□رمضان شهر الإنفاق والبر والصلة

أولاً : العناصر :-

١- فضل الإنفاق والكرم في رمضان .

٢- جود النبي (صلى الله عليه وسلم) وعطاؤه .

٣- رمضان شهر البر للأقارب والصلة للأرحام .

ثانياً: الأدلـــة:-

الأدلـة مـن القـرآن:-

١- قال تعالى : { شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ }

[البقرة: ١٨٥].

٢- وقال تعالى: { لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ } [آل عمران: ٩٢] .

٣- وقال تعالى:{ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً }

[الإنسان:٨ – ١١].

٤- وقال تعالى: { مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } [البقرة:٢٦١] .

٥- وقَال تعالى:{ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ }

[الإسراء: ٢٦] .

٦- وَقَالَ تعالى: { ... وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ } [النساء:٣٦] .

الأدلــة مــن السنة:-

١- عَن عُقْبَةَ بْن عَامِرٍ (رضي الله عنه) قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) يَقُولُ: (كُلُّ امْرِئٍ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ حَتَّى يُفْصَلَ بَيْنَ النَّاسِ) أَوْ قَالَ: (حَتَّى يُحْكَمَ بَيْنَ النَّاسِ) (مسند أحمد بإسناد صحيح) .

٢- وعن أَنَس بْن مَالِكٍ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) قال: كَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَكْثَرَ الْأَنْصَارِ بِالْمَدِينَةِ مَالًا وَكَانَ أَحَبَّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بِيْرُحَاءَ وَكَانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ الْمَسْجِدِ وَكَانَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَدْخُلُهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ ، قال أنس: فَلَمَّا نَزَلَتْ هذه الآية : {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ}قَامَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَى رَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ اللهَ تَعَالَى أنزل عليك: { لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ } وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاءَ وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لِلهِ أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللهِ تعالى فَضَعْهَا يَا رَسُولَ اللهِ حَيْثُ أراك الله

فَقَالَ رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (بَخٍ ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ قَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ وإني أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ فقَالَ أبو طلحة: أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللهِ فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ) (متفق عليه) .

٣- وعَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ (رضي الله عنه) عن النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (مَنْ فَطَّرَ صَائِمًا فَلَهُ مِثْلُ أَجْرُهُ ، من غير أن يُنقَصَ مِنْ أَجْرِ الصَّائِمِ شَيْءٌ) (رواه الترمذي وابن ماجه).

٤- وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً) (متفق عليه) .

٥- وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) قَالَ : (كَانَ النبي (صلى الله عليه وسلم) أَجْوَدَ النَّاسِ ، وَكَانَ أَجْوَدَ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ فيدارسه القرآن ، وَكَانَ جِبْرِيلُ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ ، فَلَرَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ) (متفق عليه) .

٦- وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسولَ الله (صلى الله عليه وسلم) قال: (من أَحَبَّ أن يُبسَطَ له في رزقِه ، ويُنسأ له في أثرِه ؛ فليَصِلْ رَحِمَه) (متفق عليه).

٧- وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو (رضي الله عنهما) عن النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ : (لَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِئِ وَلَكِنِ الْوَاصِلُ الَّذِي إِذَا قَطَعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا) (أخرجه البخاري) .

ثالثاً: الموضـــوع:-

إن شهر رمضان الكريم فرصة عظيمة للتقرب إلى الله سبحانه وتعالى ، حيث جعله الله تعالى لمضاعفة الحسنات ، ومغفرة الذنوب والذلات ، ولذا تكثر فيه الأعمال الصالحات من تلاوة القرآن ، وعبادة الله وقيام الليل ، والإحسان إلى الفقراء والمساكين ، قال تعالى:{شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [البقرة: ١٨٥]. فهذه الآية الكريمة تبين لنا فضل هذا الشهر العظيم ، وفضل العمل فيه .

وإن من الأعمال الفاضلة في هذا الشهر الإنفاق والجود والكرم ، بها نرعى الفقراء المحتاجين ، ونسعى في الإنفاق والبذل ولقد حث الإسلام الحنيف على الجود والإنفاق في سبيل الله وابتغاء مرضاته ، وتضافرت الآيات والأحاديث الحاثة على ذلك : قال الله تعالى: { لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ } [آل عمران: ٩٢].

وانظر إلى عصر الصحابة كيف تعاملوا مع الآيات التي تحث وترشد إلى الإنفاق ، فعن أَنَس بْن مَالِكٍ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) قال: كَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَكْثَرَ الْأَنْصَارِ بِالْمَدِينَةِ مَالًا وَكَانَ أَحَبَّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بِيْرُحَاءَ وَكَانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ الْمَسْجِدِ وَكَانَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَدْخُلُهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ ، قال أنس: فَلَمَّا نَزَلَتْ هذه الآية : { لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ } قَامَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَى رَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ اللهَ تَعَالَى أنزل عليك: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ } وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاءَ وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لِلهِ أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللهِ تعالى فَضَعْهَا يَا رَسُولَ اللهِ حَيْثُ أراك الله فَقَالَ رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (بَخٍ ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ قَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ وإني أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ فقَالَ أبو طلحة: أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللهِ فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ)

(متفق عليه).

وهذا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) لما جاءته سهامه من خيبر جعلها في سبيل الله تعالى ؛ فعن ابن عمر (رضى الله عنهما) أن عمر أصاب أرضا بخيبر ، فأتى النبى (صلى الله عليه وسلم) يستأمره فيها ، فقال يا رسول الله ، إنى أصبت أرضا بخيبر ، لم أصب مالاً قط أنفس عندي منه ، فما تأمر به قال: (إن شئت حبست أصلها ، وتصدقت بها » ؛ قال فتصدق بها عمر أنه لا يباع ولا يوهب ولا يورث ، وتصدق بها في الفقراء

وفي القربى ، وفي الرقاب ، وفي سبيل الله ، وابن السبيل ، والضيف ، لا جناح على من وليها أن يأكل منها بالمعروف ، ويطعم غير متمول)

(رواه البخاري ومسلم) .

وعن عُقْبَةَ بْن عَامِرٍ (رضي الله عنه) قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) يَقُولُ: (كُلُّ امْرِئٍ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ حَتَّى يُفْصَلَ بَيْنَ النَّاسِ أَوْ قَالَ حَتَّى يُحْكَمَ بَيْنَ النَّاسِ) (مسند أحمد)، ومعنى ذلك أن الصدقة تحمي صاحبها من حر الشمس في أرض المحشر حتى انقضاء الفصل بين الناس .

ولهذا فإن من أعظم الطاعات وأجل القربات في شهر رمضان الإنفاق وإطعام الجائعين ، وتقديم الصدقات ، وتفطير الصائمين ، فما أعظم من أن يغتنم العبد هذه الفترة في فعل الخير وأعمال البر ، يقول (عليه الصلاة والسلام) فيما صح عنه ، عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ (رضي الله عنه) أَنَّ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (مَنْ فَطَّرَ صَائِمًا فَلَهُ مِثْلُ أَجْرُهُ ، من غير أن يَنْقص مِنْ أَجْرِ الصَّائِمِ شَيْءٌ) ، أي: أنك إذا فطَّرت صائماً كتب الله لك أجراً كأجر الصائم دون أن ينقص من أجره شيء ؛ فالحرص على إفطار الصائم الفقير ، والمسكين، والمحتاج ، مما تجود به النفس ، ولو بقليل من تمر ، أو مذقة لبن ، أو قطعة خبز، فهذا موسم الصدقات والأعطيات ؛ إن الصدقة تقع في يد الرحمن قبل أن تقع في يد الفقير فيربيها الله تعالى لصاحبها ، كما يربي أحدكم فلوه.

وروي أن ابن المبارك كان كثير الإطعام للناس لأنه أدرك ما أعده الله تعالى لعباده من وقاية وحماية من هول الموقف في عرصات القيامة ، بسبب إطعامهم الطعام ، وجودهم على الأنام ، قال تعالى:{ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً * إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً * فَوَقَاهُمْ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً } [الإنسان:٨ – ١١].

أما حين ننظر في جزاء الصدقات والإنفاق في سبيل الله ، والجود والكرم على الفقراء والمساكين ، نجد أن الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار ، وهذا شطر من حديث معَاذ قَالَ: كنت مَعَ النَّبِي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم) فِي سفر فَأَصْبَحت يَوْمًا قَرِيبا مِنْهُ إِلَى أَن قَالَ: (أَلا أدلك عَلَى أَبْوَاب الْخَيْر ؟ الصَّوْم جنَّة وَالصَّدَقَة تُطْفِئ الْخَطِيئَة كَمَا يُطْفِئ المَاء النَّار ، وَصَلَاة الرجل فِي جَوف اللَّيْل ثمَّ قَرَأَ تَتَجَافَى جنُوبهم عَن الْمضَاجِع) (رواه الترمذي). فالحرص كل الحرص على الصدقة ، ومراعاة الفقراء والمحتاجين ، والاغتنام بالإنفاق في سبيل الله .

وفي الحديث الصحيح عَنْ مُطَرِّفٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: انْتَهَيْتُ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وَهُوَ يَقُولُ: (أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ، قَالَ: يَقُولُ ابْنُ آدَمَ مَالِي ، وَمَا لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ) رواه مسلم . أي: ليس لك إلا لقمة تؤكل ، أو ثياب تبلى ، أو صدقة تبقى .

ومما يدل على فضيلة الإنفاق وأنها تبقى له عند الله سبحانه وتعالى ، ما روته عائشة أنها ذبحت شاة ، فسألها النبي (صلى الله عليه وسلم) عن الشاة فقالت: ذهبت كلها وبقي الذراع ، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: (بل بقيت كلها وذهب هذا الذراع) ، أي: أن الذي تنفقه في سبيل الله باق لك ، ومدخر ثوابه عند الله سبحانه وتعالى ، كما قال الله (عز وجل): { مَا عِنْدَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ } [النحل:٩٦] .

وما أعظم الإنفاق في سبيل الله في هذا الشهر وغيره ، حيث يبشر العبد بالزيادة ، وأن الله تعالى يخلف على العبد المتصدق بل ويزيد له في الحال ، فهذا أحد مفاتيح الرزق التي يستنزل بها رزق الله عز وجل، يقول الله تعالى: { وَمَا أَنفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ } [سبأ:٣٩] ، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً).

إن الله تعالى يحذرنا مما قد يتصوره البعض من نقص للمال بالصدقة والإنفاق ، ويبين لنا أن ذلك محض وسوسة وتزيين من الشيطان يقول تعالى: {الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [البقرة:٢٦٨] .

إن فضل وأجر الإنفاق في سبيل الله عظيم ، والثواب على الصدقة كبير ، إنه يضاعف أضعافا كثيرة ، قال عز وجل: { مَثَلُ الَّذِينَ

يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } [البقرة:٢٦١] ، إن ذلك ليس مختصاً برمضان فحسب ، لكن رمضان فيه مزيد من فضل الله عز وجل ومضاعفة الأجور ، فهل من مشمِّر ؟ وهل من منفق ومتصدق ؟ هل نحرص على أن نقوم بأعمال الخير ، ونفزع إليها ، ونرتبط بها ؟ إن ذلك ما ينبغي أن نتواصى به في هذا الشهر الكريم ، فإن للصدقة في رمضان خصوصية ليست في غيره ، فهو شهر الإنفاق ، وهو شهر الصدقة .

وإذا كنا بحاجة إلى كرم الله وجوده لا سيما في هذه الأيام المباركة ، فعلينا المسارعة إلى البذل والإنفاق والجود ، فإن الله عز وجل يكرم من يكرم عباده ، ويعطي السخي من عباده، فعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) أنَّ النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: (قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَا ابْنَ آدَمَ أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ) (رواه البخاري ومسلم) ؛ فشهر رمضان شهر يجود الله فيه على عباده بالرحمة و المغفرة و العتق من النار لا سيما في ليلة القدر ، فمن جاد على عباد الله جاد الله عليه بالعطاء و الفضل، و الجزاء من جنس العمل ، ولهذا كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يزداد جوده وبذله في رمضان .

فأما عن جوده (صلى الله عليه وسلم) في رمضان:

فقد كان النبي (صلى الله عليه وسلم) أجود بالخير من الريح المرسلة ؛ كما بيّن ذلك ابْنِ عَبَّاسٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) حيث قَالَ: (كَانَ

رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) أَجْوَدَ النَّاسِ ، وَكَانَ أَجْوَدَ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ ، وَكَانَ جِبْرِيلُ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ، فَلَرَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ) (متفق عليه) ، فينبغي الإكثار من الجود اقتداءً بالرسول (صلى الله عليه وسلم) في سائر الأحوال عامة ، وفي رمضان خاصة .

وفي هذا الحديث دلالة على زيادة جود النبي (صلى الله عليه وسلم) في رمضان عن غيره من الأزمان، وفي تشبيه جوده (صلى الله عليه وسلم) بالريح المرسلة وتفضيل جوده على ذلك يقول ابن حجر :" قال الزين بن المنير وجه التشبيه بين أجوديته (صلى الله عليه وسلم) بالخير وبين أجودية الريح المرسلة: أن المراد بالريح ريح الرحمة التي يرسلها الله تعالى لإنزال الغيث العام الذي يكون سببًا لإصابة الأرض الميتة وغير الميتة ، أي فيعم خيره وبره من هو بصفة الفقر والحاجة ومن هو بصفة الغنى والكفاية أكثر مما يعم الغيث الناشئة عن الريح المرسلة "

وأنواع جوده (صلى الله عليه وسلم) لا تنحصر ، والكلام في جوده يبدأ ولا ينتهي ، فهو أجود الناس على الإطلاق ، يتفنن (صلى الله عليه وسلم) في أنواع الجود ، ويعطي كل من سأله، لا يرد سائلاً ، حتى إنه (صلى الله عليه وسلم) قد يسأله رجل ثوباً عليه فيدخل بيته ويخرج وقد خلع ثوبه وأعطاه إياه ، وربما اشترى الشيء فأعطى ثمنه ورده على بائعه ، وربما اشترى وأعطى الثمن وزاده ، وربما استعار شيئاً فرده بأكثر

وأطيب وأكبر منه ، وربما أهدى وتصدق ، وأعطى ، وربما قبل الهدية وأثاب عليها أكثر منها وأعظم وأوفر ، وكان (صلى الله عليه وسلم) يفرح بأن يعطي أكثر مما يفرح الآخذ بما يأخذ ، ففرحه صلى الله عليه وسلم بالعطاء أعظم من فرح الآخذ بالأخذ ، حتى إنه ليصدق عليه وحده عليه الصلاة والسلام قول القائل: (تراه إذا ما جئته متهللاً كأنك تعطيه الذي أنت سائله) فكان يجود صلى الله عليه وسلم بنفسه وماله ، ويصفح عمن ظلمه ، ويعطي من حرمه ، ويعفو عمن أساء إليه .

لقد كان الحبيب المصطفى (صلى الله عليه وسلم) أجود بالخير من الريح المرسلة في رمضان ، وما منع النبي (صلى الله عليه وسلم) سائلاً سَألهُ أبداً ، بل لقد ورد في صحيح مسلم أن رجلاً جاء إلى المصطفى فسأله ، فنظر النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى غنم بين جبلين ، فقال: (انظر إلى هذه الغنم ، سقها فهي لك ! فساق الرجل الغنم كلها بين يديه ، وذهب إلى قومه قائلاً: يا قوم ! أسلموا ، فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر) .

إن جود الرسول (صلى الله عليه وسلم) في هذا الشهر الكريم ، واقتداءنا به عليه الصلاة والسلام في ذلك ، إنّما جاء ضمن دلالات خاصة يختص به هذا الشهر المبارك ، أهمها :

جود الله وعظيم فضله على عباده في رمضان ، ومدارسة القرآن وأثرها على النفس وغناها، ومجالسة الصالحين وأثرها في استقامة السلوك

وعلو الهمّة ، ومن ذلك : أن يبذل الإنسان ما له فيما ينفعه ، وفضل الصدقة عموماً ، فكيف إذا كانت في رمضان .

ولما كان رمضانُ شهرَ الرحمةِ والجودِ ، فهو شهر بر وصلة ، فما ألطفَ أن يتعهد العبدُ أهلَه وأولي الأرحام منه في هذا الشهرِ المبارَك ، فيُدخِل عليهم الفرحةَ والسُّرور ، ويتقرَّب إليهم ، احتراما للكبير ورحمةً للصغير وصلةً للرحم . فالصائم يَتشبَّه بأخلاقِ النبي (صلى الله عليه وسلم) ، حيث كان (صلى الله عليه وسلم) يعتني في كلِّ أحوالِهِ بنفعِ الناسِ وإسداءِ الخيرِ لهم ، كما قالت له زوجه خديجة (رضي الله عنها): (كلا والله لا يُخزيك اللهُ أبداً ؛ إنّك لَتَصِلُ الرَّحِم ، وتحمِل الكَلَّ ، وتَكْسِب المعدوم ، وتَقْرِي الضيف ، وتُعين على نوائبِ الحق) رواه البخاري .

ولا ريبَ أنَّ الصائمَ يجد في شهرِ رمضان فرصة إلى صِلَةِ أرحامِه وزيارةِ أهله وإكرام ذوي القربى منه ، وتعهدهم بالزيارة والسؤال ، وقد روى الشيخان عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسولَ الله (صلى الله عليه وسلم) قال: (من أحَبَّ أن يُبسَطَ له في رزقِه ، ويُنسأ له في أثرِه ؛ فلْيَصِلْ رَحِمَه) . وما أعظم من أن يَتفقَّدَ العبدُ المؤمن أهله وأقاربه في رمضان ؛ فيُعين فقيرَهم ويرحم ضعيفَهم ويُنفِّس كربَ المبتلى منهم ؛ فقد قال النبي (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ نَفَّسَ عن مؤمنٍ كُربَةً مِن كُرَبِ الدنيا نَفَّسَ الله عنه كُرْبةً من كُرَب يوم القيامة).

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو (رضي الله عنهما) عن النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ : (لَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِئِ وَلَكِنِ الْوَاصِلُ الَّذِي إِذَا قَطَعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا)   (أخرجه البخاري).

كما أخرج الإمام مسلم بسنده عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) أَنَّ رَجُلاً قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنَّ لِى قَرَابَةً أَصِلُهُمْ وَيَقْطَعُونِني ، وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيُسِيئُونَ إِلَىَّ ، وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَىَّ ، فَقَالَ: (لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ الْمَلَّ وَلاَ يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللَّهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ) ، وَمَعْنَاهُ كَأَنَّمَا تُطْعِمهُمْ الرَّمَاد الْحَارّ ، وَهُوَ تَشْبِيه لِمَا يَلْحَقهُمْ مِنْ الْأَلَم بِمَا يَلْحَق آكِل الرَّمَاد الْحَارّ مِنْ الْأَلَم ، وَلَا شَيْء عَلَى هَذَا الْمُحْسِن ، بَلْ يَنَالهُمْ الْإِثْم الْعَظِيم فِي قَطِيعَته ، وَإِدْخَالهمْ الْأَذَى عَلَيْهِ . وَقِيلَ : مَعْنَاهُ إِنَّك بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ تُخْزِيهِمْ وَتُحَقِّرهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ لِكَثْرَةِ إِحْسَانك وَقَبِيح فِعْلهمْ مِنْ الْخِزْي وَالْحَقَارَة عِنْد أَنْفُسهمْ كَمَنْ يَسُفُّ الْمَلّ . وَقِيلَ : ذَلِكَ الَّذِي يَأْكُلُونَهُ مِنْ إِحْسَانك كَالْمَلِّ يُحَرِّق أَحْشَاءَهُمْ، وَاَللَّه أَعْلَم"(شرح صحيح مسلم للإمام النووي) ، إذًا فالأذى واقع على المسيء المقاطع ، أما المحسن الواصل فثوابه على الله تعالى الذي يعينه ويتولى أمره وفي دعوة صريحة لتفقد الأهل ، وتعاهد الأقارب وأولي الأرحام ، أمر الله بإعطائهم من الحقوق الواجبة لهم على أقاربهم الأغنياء ، من بر وصدقة ، قَال اللَّهِ تعالى:{وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ}[الإسراء: ٢٦] . وَقَالَ تعالى:{ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ

بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ} [النساء:٣٦] ، فَأَوْجَبَ الله تَعَالَى حَقًا لذَوي الْقُرْبَى والأرحام ، وَافْتَرَضَ الإِحْسَانَ إليهم، وَالإِحْسَانُ يَقْتَضِي التعاهد بزيارتهم ، والإنفاق عليهم ، والقيام على مصالحهم .

فما أعظم أن نسعى في هذا الشهر الكريم من إقبالٍ على الخير وحرص على إفطار الصائمين وإكرامٍ للأقارب والأرحام ؛ إن رمضان جاء ليحرك الخير فينا ، فالخير في نفوسنا أصلاً لكن رمضان حرك ما كان راكدًا ، وساعد بنفحاته وجوده الإيماني على ظهوره ، ألا فليكن رمضان بداية لنا لا نهاية للجود والكرم والبر وصلة الأرحام ، والإقبال على الخير .

* * *

ليلة القدر وفضائل العشر الأواخر من رمضان

أولاً: العناصر :-

١- شهر رمضان وفضل العشر الأواخر منه .

٢- اغتنام الأوقات بحسن الطاعات .

٣- ليلة القدر ومكانتها العظيمة وفضلها الكبير .

٤- الختام لشهر الصيام إنما الأعمال بالخواتيم .

ثانياً: الأدلـــــــة :-

الأدلة من القرآن :

١- قال تعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ }

[البقرة:١٨٥] .

٢- وقال تعالى: { إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآَيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ }

[السجدة:١٥، ١٦] .

٣- وقال تعالى:{ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آَخِذِينَ مَا آَتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ*كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ } [الذاريات:١٥-١٨] .

٤- وقال تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ} [التحريم:٦] .

٥- وقال تعالى:{وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [العنكبوت:٦٩] .

٦- وقال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [المائدة:٣٥] .

٧- وقال تعالى: { إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ * سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ} [القدر: ١-٥] .

٨- وقال تعالى:{إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ} [الدخان:٣، ٤] .

٩- وقال تعالى: { فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى } [الليل:٥-١٠] .

الأدلة من السنة :

١- عن عائشة (رضي الله عنها) قالت: (كان النبي (صلى الله عليه وسلم) إذا دخل العشر أحيا الليل ، وأيقظ أهله ، وجدَّ وشدَّ المئزر). (متفق عليه.)

٢- وعن عائشة (رضي الله عنها) قالت: (كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يجتهدُ في العشرِ الأواخرِ من رمضانَ ما لا يجتهدُ في غيرِه) (صحيح مسلم).

٣- وعن الْمُغِيرَةَ بْن شُعْبَةَ قال: قَامَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) حَتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ فَقِيلَ لَهُ يا رسول الله: قَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ قَالَ: (أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا). (متفق عليه.) ، وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ (رضي الله عنهما) أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) يَقُولُ: (كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، فَالإِمَامُ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ زَوْجِهَا وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا ، وَالْخَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ). (متفق عليه.)

٤- وفي الصحيحين عن عائشة (رضي الله عنها) أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: (تحروا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان).

٥- وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: (من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه).

(متفق عليه).

٦- وعن عائشة (رضي الله عنها) قالت: قلت للنبي (صلى الله عليه وسلم): أرأيت إن وافقت ليلة القدر ما أقول؟ قال: (قولي اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني) (رواه الترمذي).

٧- وعن أنس (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : (إن الله إذا أراد بعبد خيراً استعمله).فقيل : كيف يستعمله يا رسول الله ؟ قال (يوفقه لعمل صالح قبل موته) (رواه الترمذي.)

ثالثاً: المـوضـــوع :-

إن الله – سبحانه وتعالى– يمتن على عباده بالنفحات ، بل ويزيد لهم فيها من البركات ، فهذا شهر رمضان ، قال عنه ربنا سبحانه: { شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآَنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[البقرة:١٨٥] ، وجعل الله في هذا الشهر الكريم العشر الأواخر ، فرصة لمن أحسن في أول الشهر أن يزداد ، ولمن أساء أن يستدرك ما فات ؛ ويغتنم هذه الأيام العشر في الطاعات ، وما يقربه من الله تعالى ، فحينما نتأمل ما كان عليه سيد الخلق (صلى الله عليه وسلم) في العشر الأواخر ، فإننا نجد أن العبارات والأحاديث التي رويت في هذا الشأن ليس فيها كثير كلام ، وليست من الأحاديث الطويلة مطلقاً ، ولكنها أوصاف أَجملت وأَوجزت صفة القلب ، وحياة الروح ، وشغل العقل ، وفعل البدن ، جاءت في كلمات عجيبة ذكرها أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) فهذه أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) قالت: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل العشرُ شدَّ مئزرَه ، وأحيَا ليله ، وأيقظَ أهلَه) (متفق عليه) .

وفي رواية عنها (رضي الله عنها) قالت: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجتهدُ في العشرِ الأواخرِ من رمضانَ ما لا يجتهدُ في غيرِه)

(صحيح مسلم) ، ومعنى شد المئزر: أي شمر واجتهد في العبادات ، وقيل: كناية عن اعتزال النساء .

فالنبي (صلى الله عليه وسلم) كان يخصُّ العشر الأواخر من رمضان ، ما لا يخصُّ غيرها ، بأعمالٍ يعملُها ويحرص عليها فمنها: إحياء الليل ؛ وفي المسند من وجهٍ آخرَ عنها قالت: (كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يخلطُ العشرين بصلاةٍ ونومٍ ، فإذا كان العشرُ – تعني الأخيرَ – شمَّرَ وشَدَّ المئزر) . ويحتمل أن يراد بإحياء الليل إحياء غالبه ؛ وفي صحيح مسلم عن عائشة (رضي الله عنها) قالت:) ما علمتُهُ (صلى الله عليه وسلم) قام ليلة حتى الصباح) .

ولم لا ؟! ودأب المؤمنين الصالحين قيام الليل ، والتهجد والوقوف بين يدي الله سبحانه، هذا ما بينه لنا ربنا جل في علاه ، فقال تعالى : { إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآَيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} [السجدة:١٥، ١٦] .

وأشار الله تعالى إلى عباده المتقين ، وكيف كان حالهم ، من قيام الليل وهجر للفرش ، قال تعالى: { إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آَخِذِينَ مَا آَتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلًا من اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} [الذاريات:١٥–١٨] ، وبهذا استحق هؤلاء المؤمنون جنات وعيون ، كما وعد الحق سبحانه.

وأما عن الهدي النبوي والتطبيق المحمدي لهذا الشأن ؛ فقد كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يقوم من الليل حتى تتورم قدماه ، ففي الحديث عن الْمُغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ قال: قَامَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) حَتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ فَقِيلَ لَهُ: قَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ قَالَ: (أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا) (متفق عليه) .

ومن الأعمال التي أشار النبي (صلى الله عليه وسلم) إليها ، وأرشد إلى القيام بها ، وكان يحرص ويواظب على أدائها ، إيقاظ أهله ؛ للعبادة والطاعة ، والتضرع لله سبحانه ، والوقوف بين يدي الحق جل في علاه ، لأن الإنسان مسئول عن أهله ، والراعي مسئول عما استرعاه الله عز وجل ، قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ } [التحريم:٦] . فقولها: (أيقظ أهله) فيه إشارة إلى أن الواجب المنوط بكل واحد منا لا يتعلق به وحده ، ولا يقتصر عليه وحده ، بل يشمل الدائرة الأوسع، وأقربها وأولاها الأهل ، فإنّ العبدَ مطالبٌ أن يقي نفسه وأهله من عذاب الله ، وأن يجعل له ولمن هم في رعايته حجاباً وستراً من النار ، إنها الرعاية الواجب فعلها ، والعناية التي ينبغي له القيام بها ، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ (رضي الله عنهما) أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) يَقُولُ:) كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، فَالإِمَامُ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ زَوْجِهَا وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا ، وَالْخَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ قَالَ : وَأَحْسِبُهُ

قَالَ : وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ ، أَلا فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ) (متفق عليه) .

وروي أن عمر (رضي الله عنه) كان يصلي من الليل ما شاء الله ، حتى إذا كان نصف الليل أيقظ أهله للصلاة ، يقول لهم: الصلاة الصلاة ، ويتلو هذه الآية: {وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ... الآية } [طه: ١٣٢] (الموطأ).

ولم يقف الأمر عند مجرد إحياء الليل ، وإيقاظ الأهل ، بل تعدى إلى بيان الحالة والهيئة التي ينبغي أن يكون العبد عليها ، من جد واجتهاد ، وهذا ما كان يحرص عليه النبي (صلى الله عليه وسلم) فكان يجد ويجتهد ، ويشد المئزر – كناية عن اعتزال النساء – إنها المجاهدة للنفس ، والتوجه لله تعالى ، قال سبحانه: { وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [العنكبوت:٦٩] ، ومن جهة أخرى يقال في كلام العرب: شمّر عن ساعد الجدّ أو شمّر عن المئزر ، إذا جَدّ واجتهد وبلغ الغاية القصوى في البذل والعمل .

بل هذا ما أمر الله تعالى به ، من مجاهدة في سبيله ، وأن يبتغى العبد وسيلة تقربه لله سبحانه ، قال تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[المائدة:٣٥] ؛ إنه الفلاح والنجاح ، والفوز العظيم ، يناله العبد بالمجاهدة والتوجه إلى الله تعالى .

وإذا كانت العشر الأواخر من رمضان أياماً عظيمة امتن الله بها على الأمة المسلمة ، بأن أعطاها نفحات ربانية عطرة ، فيها الأجر الكبير ، والثواب العظيم ، فيها تتضاعف الحسنات ، ويغفر الله تعالى الذنوب والسيئات ، ويمحو الزلات ؛ فقد جعل الله تبارك وتعالى في العشر الأواخر ليلة القدر ، إكراما من الله لأمة محمد (عليه الصلاة والسلام) حتى تكثر حسناتها ، وترتفع بها درجاتها ، ولا تسبقها الأمم الأخرى ، فليلة القدر التي هي خير من ألف شهر .. هي خلاصة رمضان ، وتاج رمضان ، وكان رسول الله يجاور في العشر الأواخر من رمضان ، ويقول :) تحروا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان) (صحيح البخاري) .

ولهذا كان من سُنةّ النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم) التأهب والاستعداد في تلك العشر ، وهذا فيه من الاجتهاد في العبادة ، وبذل الوسع في تحري تلك الليلة الفاضلة – ليلة القدر – التي هي خيرٌ من ألف شهر ، فينقطع تلك المدة عن كل الخلائق ، مشتغلاً بطاعة الخالق، قد حبس نفسه على طاعته ، وشغل لسانه بدعائه وذكره ، وتخلى عن جميع ما يشغله ، وعكف بقلبه على ربه وما يقربه منه ، فما بقي له سوى الله ، وما شغل نفسه إلا بما فيه رضاه ، طلباً لفضله وثوابه وإدراكاً لليلة القدر .

والمقصود الأسمى من الاجتهاد في العشر الأواخر أن يكون العبد مهيئاً لتنزلات الله سبحانه في ليلة القدر ، فإن ليلة القدر ليلة شريفة مباركة معظمة مفضلة ؛ قال الله تعالى فيها: {لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ

شَهْرٍ}، والمعنى: أن العمل فيها خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر .

وليلة القدر في الروايات الشريفة لها قدسية خاصة ، وأهمية كبرى ، فيستحب للمكلف أن يهتم بالغ الأهمية بإحياء هذه الليلة العظيمة ؛ ففي هذه الليلة تقدر مقادير الخلائق على مدار العام ، فيكتب فيها الأحياء والأموات ، والسعداء والأشقياء ، والآجال والأرزاق ، قال تعالى: {فيها يفرق كل أمر حكيم} [الدخان:٤].

وسميت ليلة القدر بهذا الاسم كما قيل: لأنه يقدر فيها ما يكون في تلك السنة من خير ومصيبة ، ورزق وبركة ، يروَى ذلك عن ابن عباس (رضي الله عنهما) ؛ وقد قال الله تعالى: {فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ} [الدخان:٤]. وقيل: سميت ليلة القدر لعظم قدرها عند الله ، وقيل: القدر بمعنى الضيق ، لضيق الأرض عن الملائكة التي تنزل فيها ، فروى الإمام أحمد عن أبي هريرة (رضي الله عنه) مرفوعاً: (إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ فِي الْأَرْضِ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ الْحَصَى) .

وسمَّاها الله تعالى مباركة ، فقال سبحانه: { إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ }. وهي ليلة القدر بدليل قوله تعالى: {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ}. وقال تعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ} (١٨٥). وعَنْ اِبْن عَبَّاس (رضي الله عنهما) قَالَ:) أُنْزِلَ الْقُرْآن جُمْلَة وَاحِدَة إِلَى سَمَاء الدُّنْيَا فِي لَيْلَة الْقَدْر ، ثُمَّ أُنْزِلَ بَعْد ذَلِكَ فِي عِشْرِينَ سَنَة) وَقَرَأَ: { وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ }.

ومن حكمة الله سبحانه وتعالى أنه قد أبهم هذه الليلة على الأمة ليجتهدوا في طلبها ، ويجدِّوا في العبادة في الشهر كله طمعاً في إدراكها ، كما أخفى ساعة الإجابة في يوم الجمعة ليكثروا من الدعاء في اليوم كله ، وأخفى اسمه الأعظم في الأسماء ، ورضاه في الطاعات ليجتهدوا في جميعها ، وأخفى الأجل وقيام الساعة ليجد الناس في العمل حذراً منها .

وأما عن العمل في ليلة القدر فينبغي على المسلم الاقتداء بالنبي (صلى الله عليه وسلم) فإنه هو الأسوة والقدوة ، وألا يضيّع ساعات هذه الأيام والليالي ، فإن المرء لا يدري لعله لا يدركها مرة أخرى ، عن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: (من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه) (متفق عليه) .

إن ليلة القدر عند المحبين ليلة الحظوة بأنس مولاهم وقربه ، وإنما يفرون من ليالي البعد والهجر لها ، بقيامها و إحيائها بالتهجد فيها والصلاة ، وقد أمر عائشة بالدعاء فيها ؛ قالت عائشة (رضي الله عنها) للنبي (صلى الله عليه وسلم): أرأيت إن وافقت ليلة القدر ما أقول؟ قال: (قولي اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني).

والحاصل أن السعيد حقًا من يوفق إلى إدراك هذه الليلة المباركة ، ومما لا خلاف فيه ولاشك ولا مرية أن من قام رمضان كله فقد أدرك ليلة القدر لا محالة ، ولهذا كان السلف الصالح منهم من يدخل المسجد من أول ليلة من رمضان ولا يخرج إلا بعد صلاة العيد .

إنما الأعمال بالخواتيم: إن الله تعالى بحكمته وعدله إذا علم من عبده صدق القلب وحسن النية فإنه يوفقه لعمل صالح يختم عليه ، ولو عمل ما عمل من شر ، وإذا علم منه فساداً في قلبه فإنه يختم له بسوء خاتمة ، ولو عمل فيما يبدو للناس بعمل أهل الجنة ، بل قد يظهر حقيقة أمره للناس عبرة وموعظة للمؤمنين ، كما في حديث سهل بن سعد في الرجل الذي أبلى بلاءً حسناً وقاتل المشركين ، ولكن لما في قلبه من فساد لا يعلمه إلا الله فإنه ختم له بخاتمة سوء ، وإنما أخبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) وعلم بحال خاتمته بوحي من الله تعالى تصديقاً لنبيه ، وبرهاناً على أنه رسول رب العالمين، ولهذا قال الصحابي الذي رآه قتل نفسه : (يا رسول الله صدق الله حديثك ، قد انتحر فلان فقتل نفسه) (رواه البخاري) .

وإن مما يدل على ذلك ما جاء في القرآن الكريم من قوله تعالى: { فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى } [الليل:٥-١٠] ، وروى البخاري في كتاب التفسير عن علي (رضي الله عنه) قال: كنا في جنازة في بقيع الغرقد ، فأتانا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقعد وقعدنا حوله ومعه مخصرة ، فنكس فجعل ينكت بمخصرته ، ثم قال: (ما منكم من أحدٍ ، وما من نفسٍ منفوسة إلا كتب مكانها من الجنة أو النار ، وكتبت شقية أو سعيدة) ، قال رجل : يا رسول الله ، أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل ، فمن كان منا من أهل السعادة

فسيصير إلى أهل السعادة ، ومن كان منا من أهل الشقاء فسيصير إلى عمل أهل الشقاء .! قال: (أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة ، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاء) ثم قرأ { فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى...} الآية .

وعن أنس (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : (إن الله إذا أراد بعبد خيراً استعمله) ، فقيل : كيف يستعمله يا رسول الله ؟ قال (يوفقه لعمل صالح قبل الموت) (رواه الترمذي) .

إنَّ الأعمال بالخواتيم ، هكذا قال النبي (صلى الله عليه وسلم) : (إنما الأعمال بالخواتيم). ولأجل هذا فإن الحكم على الآخرين إنما يكون بظواهر الأمور وعلى ما يختم عليه العبد ، والخفايا والسرائر إنما يترك علمها للخبير العليم الذي يعلم السر وأخفى .

فمن ختم له بخير فقد أفلح ونجح ، ومن ختم له بشر فقد خاب وخسر ، فعلى كل مسلم أن يخاف من سوء الخاتمة ، وأن يسأل الله – عز وجل – الثبات على الدين حتى الممات ، وعليه أن يحرص على العمل بأسباب الثبات ؛ عسى الله أن يوفقه لذلك .

فاحرصوا على أن تختموا شهركم بطاعة الله تعالى والتقرب إليه بأنواع القربات ، وإحسان الصلة به، وصدق العبد في الرغبة فيما عنده جلَّ في علاه ، فمن كان مقصراً فيما مضى فليحفظ ما بقي من هذا الشهر بالطاعة والإحسان ، ومن كان محسناً فيما مضى فليحرص على سلامة القصد وصحة النية .

الحج بين السلوك والنسك

وفضائل العشر الأول من ذي الحجة

أولاً : العناصر :-

١. فضل الحج ومكانته في الإسلام

٢. الحج دعوة إبراهيم وشريعة محمد عليهما السلام

٣. العبادات كلها تهذب السلوك وتقومه

٤. الحج أنموذج للتربية والسلوك

٥. آثار الحج السلوكية على الفرد والمجتمع

٦. فضائل العشر الأول من ذي الحجة

ثانياً : الأدلة :

الأدلة من القرآن :-

١. قال تعالى : {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَاأُولِي الْأَلْبَابِ} [البقرة: ١٩٧] .

٢. وقال تعالى : {وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ} [الحج: ٢٧، ٢٨] .

٣. وقال تعالى : { فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ

مِنْ خَلَاقٍ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [البقرة: ٢٠٠، ٢٠١] .

٤. وقال تعالى : {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَابُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَاأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ } [الصافات: ١٠٢] .

٥. وقال تعالى : { يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات: ١٣] .

٦. وقال تعالى : {وَإِنَكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم: ٤] .

الأدلة من السنة :-

١. عن أَبَي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَقُولُ: (مَنْ حَجّ لِلَّهِ فَلَمَ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ) (رواه البخاري) .

٢. وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: خَطَبَنَا وَقَالَ مَرَّةً: خَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَقَالَ: (أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ فَرَضَ عَلَيْكُمُ الْحَجّ فَحُجُّوا) فَقَالَ رَجُلٌ: أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَسَكَتَ، حَتَّى قَالَهَا ثَلَاثًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ، لَوَجَبَتْ، وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ) ثُمَّ قَالَ: (ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ، فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ، فَدَعُوهُ) (رواه مسلم) .

٣. وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أَنّ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (العُمْرَةُ إِلَى العُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا، وَالحَجُّ المَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الجَنَّةُ) (رواه مسلم).

٤. وعَنْ عَائِشَةَ (رضي الله عنها) عَنِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ : (إِنَّ الرَّجُلَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ ، دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ)

(رواه أحمد في مسنده) .

٥. وعَنْ جَابِرٍ (رضي الله عنه) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ : (إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّى مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلاَقًا ، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّى مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ وَالْمُتَفَيْهِقُونَ) قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ : قَدْ عَلِمْنَا الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ فَمَا الْمُتَفَيْهِقُونَ؟ قَالَ : (الْمُتَكَبِّرُونَ) (رواه الترمذي).

٦. وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ) (رواه البيهقي) ، وفي رواية لأحمد (إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ).

٧. وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) عَنِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ : مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ وَالْجَهْلَ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ. (رواه البخاري) .

٨. وعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) : (سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ)

(رواه البخاري).

٩. وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ (رضي الله عنهما) قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) : (مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهَا أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ الأَيَّامِ). يَعْنِى أَيَّامَ الْعَشْرِ. قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ : وَلاَ الْجِهَادُ في سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ : (وَلاَ الْجِهَادُ في سَبِيلِ اللَّهِ إِلاَّ رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بشيء). (رواه الترمذي) .

ثالثاً : الموضوع :-

إن الحج موسم من مواسم الطاعة ، و ركن من أركان الإسلام ، وركيزة من ركائزه ، ففي الحديثَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) : (الإِسْلاَمُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ وَتُؤْتِىَ الزَّكَاةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلاً) رواه مسلم ، فرضه الله تعالى على من استطاعه من عباده ، فقال : {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} [آل عمران: ٩٧] ، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَقَالَ: (أَيُّهَا النّاسُ قَدْ فَرَضَ اللهُ عَلَيْكُمُ الْحَجّ، فَحُجُّوا) (رواه مسلم).

ففريضة الحج ثابتة بالكتاب والسنة والإجماع، من أنكر ها فقد كفر ، ومن أقرَّ بها وتركها تهاونًا فهو على خطر ، إذ كيف تطيب نفس المؤمن أن يترك الحج مع قدرته عليه بماله وبدنه، وهو يعلم أنه من فرائض الإسلام وأركانه.

والحج له فضل كبير وثواب جزيل بيّنه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) أَنّ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) سُئِلَ: أَيُّ العَمَلِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ: (إِيمَانٌ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ) . قِيلَ: ثُمّ مَاذَا؟ قَالَ: (الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) قِيلَ: ثُمّ مَاذَا؟ قَالَ: (حَجٌّ مَبْرُورٌ) (رواه البخاري). ورغم أن الحج مرة واحدة في العمر كله ، إلا أن تأثيره يمتد بقية عمر الإنسان إن أحسن حجه وأخلصه.

وقد أمر الله عز وجل نبيه إبراهيم (عليه السلام) أن ينادي بالحج ، فقال تعالى: {وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ} [الحج: ٢٧].

والمتأمل في العبادات يجد أن الغاية المنشودة والثمرة المرجوّة منها هي تزكية النفوس البشرية وتقوية صلة الإنسان بربه وخالقه ، وبمن يعيشون معه في مجتمعه ، لتؤتي أكلها إذا صدقت النية ، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، قال تعالى:{اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ}[العنكبوت : ٥٤] . وبالزكاة تتآلف القلوب وتتطهر النفوس والأموال، قال تعالى: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [التوبة ١٠٣].

وبالصوم يتدرب المسلم على الصبر ، وبالحج ومناسكه تغرس الفضائل في قلوب المسلمين وتدعوهم إلى محاسن الأخلاق وإلى وحدة الصف ، وإلى التعارف والتعاون والتراحم والتكافل ورحمة القوي

بالضعيف والإيثار ولين الجانب، فالعبادات والطاعات شرعت للارتقاء بالخلق الإنساني وتقويم السلوك البشري ، فكل عبادة تأخذ بيد صاحبها إلى الطريق المستقيم ، ومن ذلك فريضة الحج ، والتي تسهم بدورها في تصحيح مسار السلوك الإنساني .

فقد يظن بعض الناس أن مجرد السفر إلى الأراضي المقدسة لأداء النسك رحلة مجردة عن المعاني الخلقية ، وهذا ظن خاطئ ، فالعبادات تحمل في طياتها كل المعاني الخلقية والإنسانية ، ولها ثمرتها التي تؤثر في أخلاق صاحبها وسلوكياته ، وفي فريضة الحج يقول ربنا سبحانه: { الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَاأُولِي الْأَلْبَابِ}[البقرة: ١٩٧]. وفي هذا إشارة إلى علاقة الأخلاق والسلوك بالحج ، فلا يتصور أبداً أن يكتمل حج إنسان دون أن يتخلق بأخلاقياته ، فالحج ليس كلمة ، وإنما هو سلوك ومسئولية وخلق.

فالآية الكريمة جاءت حاملة معها النهي عن هذه السلوكيات تحديداً ، لأن الحج شُرع ليطهر الروح والنفس من كل أشكال الرفث والفسوق ، وإن المسلم إذا تحققت فيه آثار العبادات وتحلى بالآداب الشرعية ، وأصبحت أخلاقه انعكاساً لما يعلمه ويعمل به من دين الله – عز وجل –كان من أهل الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة.

فمن بداية رحلة الحج يعلن الحاج عن حسن توكله على الله وتفويض كل أموره إليه ، ويردد : اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ، اللَّهُمَّ اصْحَبْنَا فِي سَفَرِنَا، وَاخْلُفْنَا فِي أَهْلِنَا، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ، وَمِنَ الْحَوْرِ بَعْدَ الْكَوْنِ، وَمِنْ دَعْوَةِ الْمَظْلُومِ، وَمِنْ سُوءِ الْمَنْظَرِ فِي الْأَهْلِ وَالْمَالِ

إن الحج يربي في نفس صاحبه أخلاقا عظيمة ، وآدابا رفيعة، وقيما عالية، والتي يجب أن يتحلى بها الحاج وتنعكس على تصرفاته وسلوكه كله ،بعد أن حل ضيفا على أكرم الأكرمين ، مبتغيا الأجر والثواب ، قال (صلى الله عليه وسلم) : (من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه) (متفق عليه) ، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَة (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) : أَنّ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (العُمْرَةُ إِلَى العُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا، وَالحَجُّ المَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الجَنَّةُ) (رواه مسلم).

وبناء على فضل الحج وثوابه العظيم، كان الانضباط الخلقي أشد لزومًا ، يتطلب من الحاج أن يسمو بعقله وقلبه وسلوكه إلى مقام رفيع من الاستقامة والتقدير والتعظيم لشعائر الله تعالى : { ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ} [الحج:٣٢] .

وحسبنا أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قد بين الغاية من بعثته بقوله : (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) ، فقد ملك قلوب الناس في دعوته بسلوكه القويم ، وتعامله الحسن ، وخلقه العظيم الذي امتدحه الله

سبحانه وتعالى به في قوله : {وَإِنَكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم: ٤]، وما أجمل قول الشاعر :

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت *** فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وللحج أثاره البالغة التي تظهر على سلوك الفرد في السمو الأخلاقي، ويتعدى هذا الأثر من الفرد إلى المجتمع كله من خلال وحدته، وتصرفاته، **ومن تلك الآثار:**

وحدة الصف : فالحج فرصة لتوحيد كلمة المسلمين وجمع شملهم تحت راية واحدة ، شعارهم التلبية ـ لبيك اللهم لبيك ـ ، والوقوف في وجه الإرهاب ، والتصدي لكل دعوات التخريب تحقيقاً لأمر الله تعالى : {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا }.

كذلك من آثار الحج : تبادل المنافع والتجارب والخبرات في المجال الاقتصادي ، فلا شك أن هذا التجمع للمسلمين من كل بقاع الأرض فرصة لبحث الأمور الاقتصادية والاجتماعية وغيرها لدى بعض البلاد ليتم تحقيق التكامل بين جميع أفراد الأمة.

ومن ذلك أيضاً : البذلُ والإنفاقُ للمحتاجين والفقراء والمساكين ، فلا يبخل بمال أو جهد رغبة في الثواب والأجر ، ومن أشهر من عرف عنه ذلك الإمام عبد الله بن المبارك ـ رحمه الله تعالى ـ الذي كان إذا أراد الحج من بلده (مروْ) جمع أصحابه وقال : من يريد منكم الحج ؟ فيأخذ نفقاتهم ، فيضعها عنده في صندوق ويقفل عليه ، ثم يحملهم وينفق عليهم أوسع النفقة ، ويطعمهم أطيب الطعام ، ثم يشتري لهم من مكة ما يريدون

من الهدايا والتحف ، ثم يرجع إلى بلده ، فإذا وصلوا صنع لهم طعاما ، ثم جمعهم عليه ، ودعا بالصندوق الذي فيه نفقاتهم ، فرد إلى كل واحد منهم نفقته.

ومن ثم فإن الحاج لا بد وأن يتأثر بخلق الحج ويبقى أثره في نفسه ، ويعود من الحج وقد تحسن حاله واستقام أمره وأقبل على طاعة ربه ، حتى يتقبل الله حجه، فالله لا يقبل العمل إلا من المتقين ، كما قال سبحانه:{إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ } [المائدة:٢٧].

ولنعلم أن أعظم الزمن بركة ، عشر ذي الحجة ؛ إذ لها مكانة عظيمة عند الله تعالى ، تدل على محبته وتعظيمه لها، فهي عشر مباركات ، وهي أفضل أيام العام كله ، حيث يجتمع فيها حجاج بيت الله الحرام في أطهر بقعة من الأرض ، حول الكعبة المشرفة يطوفون ، وإلى الطاعات يتسابقون ، وفي الخيرات يتنافسون ، وبخير زادٍ يتزودون ، عملاً بقول الله تعالى: {وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ} [البقرة: ١٩٧].

ومن فضائلها:

* **أن الله تعالى أقسم بها** فقال:{وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ}. ولا يقسم تعالى إلا بعظيم، وأن الله تعالى قرنها بأفضل الأوقات ، فقد قرنها بالفجر وبالشفع والوتر وبالليل ، وقد حظيت بهذه المكانة وتلك المنزلة ؛ لاجتماع أمهات العبادات فيها ، وهي الصلاة ، والصيام ، والصدقة ، ووقوع غالب مناسك الحج فيها، ولا يتأتى ذلك في غيرها ؛ لحديث ابن

عَبَّاسٍ (رضي الله عنهما) عنِ النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قال: (ما من عَمَلٍ أَزْكَى عِنْدَ الله – عز وجل – ولا أَعْظَم أَجْرًا من خَيْرٍ يعمله في عَشْرِ الأَضْحَى)، قِيلَ: ولا الجِهاد في سبيل الله؟ قال: (ولا الجِهَاد في سبيل الله – عز وجل– إلاَّ رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فلم يَرْجِعْ من ذلك بِشَيْءٍ) (رواه الدارمي).

* **أنّ الله – تعالى – نصّ في كتابه العزيز على ذكره فيها** ؛ تعظيمًا لله – تعالى – وإعلامًا بفضيلة هذه العشر، وإظهارًا لشعائرها ، حيث سماها الأيام المعلومات ، فقال تعالى: {وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ}[الحج: ٢٧]. وقال ابن عباس (رضي الله عنهما) هي أيام العشر . فالأيام المعلومات هي العشر في قول أكثر أهل العلم.

* **ومن فضائلها: أنها أفضل أيام الدنيا على الإطلاق** ، وهي أحب الأيام إلى الله تعالى، والعمل الصالح فيها أحب إلى الله تعالى ، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): (مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهَا أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ الأَيَّامِ). يَعْنِي أَيَّامَ الْعَشْرِ. قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلاَ الْجِهَادُ في سَبِيلِ اللَّهِ ؟ قَالَ : (وَلاَ الْجِهَادُ في سَبِيلِ اللَّهِ إِلاَّ رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بشيء). ومن هذا الحديث يتضح أن هذه الأيام أفضل أيام السنة كلها، وأن العمل الصالح فيها – أيًّا كان نوعه – أفضل منه في غيرها ، وأن العامل في هذه العشر أفضل من المجاهد في سبيل الله الذي رجع بنفسه وماله.

إلى غير ذلك من الفضائل ، ويستحب فيها الإكثار من العبادات من صلاة وصيام وذكر ، وآكدها صوم يوم عرفة لغير الحاج، وقد خص النبي (صلى الله عليه وسلم) صيام يوم عرفة من بين أيام عشر ذي الحجة بمزيد عناية ، وبيّن فضل صيامه ، فقد ثبت عن أبي قتادة (رضي الله عنه) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سئل عن صوم يوم عرفة فقال: (يكفّر السنة الماضية والباقية) [رواه مسلم] . وقال (صلى الله عليه وسلم): (صِيَامُ يَوْمِ عَرَفَةَ أَحْتَسِبُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ وَالسَّنَةَ الَّتِي بَعْدَهُ) (رواه مسلم).

* **التكبير والتحميد والتهليل والذكر** :

ومن الأعمال التي ورد فيها النص على وجه الخصوص الإكثار من ذكر الله عمومًا ومن التكبير خصوصاً لقول الله تعالى:{ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ } [الحج: ٢٨] ، وجمهور العلماء على أن المقصود بالآية : أيام العشر.

وعن ابن عمر (رضي الله عنهما) عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: (مَا مِنْ أَيَّامٍ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ وَلَا أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعَمَلُ فِيهِنَّ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ الْعَشْرِ، فَأَكْثِرُوا فِيهِنَّ مِنَ التَّهْلِيلِ وَالتَّكْبِيرِ وَالتَّحْمِيدِ) (رواه أحمد). وقال البخاري: كان ابن عمر وأبو هريرة (رضي الله عنهما) يخرجان إلى السوق في أيام العشر يكبران ويكبر الناس بتكبيرهما. وقال: وكان عمر يكبر في قبته بمنى فيسمعه أهل المسجد فيكبرون، ويكبر أهل الأسواق

حتى ترتج منى تكبيراً. وكان ابن عمر يكبر بمنى تلك الأيام وخلف الصلوات وعلى فراشه ، وفي مجلسه وممشاه تلك الأيام جميعاً .

ويستحب أن يكثر العبد من نوافل الصلوات بعد الفرائض ، فهي سبب من أسباب محبة الله، ويكثر فيها من الصدقة ، إذ الصدقة فيها أفضل من الصدقة في رمضان ، ويكثر من الصيام فيها، ولو صام التسعة أيام لكان ذلك مشروعاً ، لأن الصيام من العمل الصالح ، وينبغي للمسلم أن يسابق في هذه العشر بكل عمل صالح ، ويكثر من الدعاء والاستغفار ، ويتقرب إلى الله بكل قربة، وينبغي للمسلم إذا دخلت عليه العشر وهو يريد أن يضحي فلا يأخذ من شعره ولا أظفاره شيئاً، وأما من يُضحَّى عنه فلو أمسك لكان حسناً باعتباره يضحي في الأصل بأضحية وليّه ، وإن لم يمسك فلا حرج عليه.

فعلى المسلم أن يخرج من حجه وقد تغير ظاهرًا وباطنا وبدا طاهرًا قلبه ، نظيفًا فى تعامله مع الناس، محافظًا على وحدة الصف متآلفًا مع أبناء مجتمعه، وإذا كان الله (عز وجل) قد شرع للمسلمين اجتماعات تلم شعثهم وتوحد صفوفهم كصلاة الجماعة والجُمعة فإن الحج أعظم هذه الاجتماعات ، فيه يتعارفون ، وفيه يتآلفون ، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات: ١٣].

ومن رحمة الله عز وجل أنه لم يحرم أحدا أيا كان من الفضل والثواب ، فمن لم يستطع الحج أو كان قد أدى الفريضة التي افترضها الله

عز وجل عليه فقد جعل رب العزة له في هذه العشر متسعا من ألوان الخير والبر ، كما شرع فيها التكبير والأضحية لنشارك الحجاج في نسكهم وفي تقربهم إلى الله عز وجل ، هذه الأضحية التي هي سنة مؤكدة عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لكل قادر ، فعَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا هَذِهِ الْأَضَاحِيُّ؟ قَالَ: (سُنَّةُ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ) (رواه أحمد في مسنده)، وعَنْ عَائِشَةَ (رضي الله عنها) ، أَنَّ النَّبِيَّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (مَا عَمِلَ ابْنُ آدَمَ يَوْمَ النَّحْرِ عَمَلًا أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ هِرَاقَةِ دَمٍ، وَإِنَّهُ لَتَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِقُرُونِهَا وَأَظْلَافِهَا وَأَشْعَارِهَا، وَإِنَّ الدَّمَ لَيَقَعُ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِمَكَانٍ ، قَبْلَ أَنْ يَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ، فَطِيبُوا بِهَا نَفْسًا).

*   *   *

حقوق الإنسان والحفاظ على آدميته في ضوء خطبة الوداع

أولا: العناصر:

١. خطبة الوداع من جوامع كلمه (صلى الله عليه وسلم)

٢. خطبة الوداع والإعلان العالمي لحقوق الإنسان

٣. حرمة الدماء والأعراض في الإسلام

٤. الإعلان عن حقوق النساء والأمر بالاعتراف بها وأدائها

٥. الإعلان عن حرمة الاستغلال بكل صوره

ثانيا : الأدلة:

الأدلة من القرآن الكريم:

١. قال تعالى: {وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى} [النجم: ٣-٤].

٢. وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً * وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيرًا} [النساء: ٢٩-٣٠].

٣. وقال تعالى: {وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا}. [النساء: ٩٣].

٤. وقال تعالى: {مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ

أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ}. [المائدة: ٣٢].

٥. وقال تعالى: {وَلَهُنَّ مِثْلُ الذي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [البقرة: ٢٢٨].

٦. وقال تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات: ١٣].

الأدلة من السنة النبوية:

١.عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) عَنْ رَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) أَنَّهُ قَالَ (نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ عَلَى الْعَدُوِّ وَأُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ وَبَيْنَمَا أَنَا نَائِمٌ أُتِيتُ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الأَرْضِ فَوُضِعَتْ في يَدَيَّ) (رواه مسلم).

٢.وعَنْ أَبِي بَكْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ: خَطَبَنَا النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم) يَوْمَ النَّحْرِ قَالَ: (أَتَدْرُونَ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا ؟ قُلْنَا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ ، قَالَ: أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ ؟ قُلْنَا : بَلَى قَالَ : أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟ قُلْنَا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ ، فَقَالَ: أَلَيْسَ ذُو الْحَجَّةِ ؟ قُلْنَا : بَلَى ، قَالَ: أَيُّ بَلَدٍ هَذَا ؟ قُلْنَا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ ، قَالَ : أَلَيْسَتْ بِالْبَلْدَةِ الْحَرَامِ ؟ قُلْنَا : بَلَى ، قَالَ : فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا إِلَى يَوْمِ تَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ أَلاَ هَلْ بَلَّغْتُ قَالُوا نَعَمْ قَالَ اللَّهُمَّ اشْهَدْ فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ

الْغَائِبَ فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ فَلاَ تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ) (رواه البخاري).

٣. وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ (رضي الله عنهما) قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (لَنْ يَزَالَ المُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ، مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا) (رواه البخاري).

٤. وعن جابر بن عبد الله (رضي الله عنهما) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: (...فَاتَّقُوا اللهَ فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللهِ ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللهِ ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ) (رواه مسلم).

٥. وعَنْ أم المؤمنين عَائِشَةَ (رضي الله عنها) أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: (إِنَّمَا النِّسَاءُ شَقَائِقُ الرِّجَالِ)

(رواه البيهقي في السنن الكبرى).

٦. وعَنْ أَبِي نَضْرَةَ (رضي الله عنه) قال : حَدَّثَنِي مَنْ سَمِعَ خُطْبَةَ رَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فِي وَسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ فَقَالَ : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، أَلاَ إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ ، أَلاَ لاَ فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ ، وَلاَ لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ ، وَلاَ أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ ، وَلاَ أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ ، إِلاَّ بِالتَّقْوَى) (رواه أحمد في المسند).

ثالثًا : الموضوع:

كلما لاحَ في الأفق هلالُ ذي الحِجَّة تجلت في الأذهانِ شعائر الحج ، وتذكر المسلمون جميعا حجة رسول الله (صلى الله عليه وسلم)

التي رسمت معالم الحج لكل المسلمين في كل عصر ومصر ، فقد اِحتوت هذه الحجَّةُ النبويةُ على مجموعة من المبادئ السامية ، وبها عدة مشاهد إيمانية راقية ، يضيق المقام عن ذكرها أو استقصائها .

ويتجلى لنا مشهد الخطبةِ الجامعةِ المانعة التي خطبَها الرسول الأكرم (صلى الله عليه وسلم) في صعيدِ عرفات ، في جَمْعٍ من الصحابة وقد التفوا حولَ النبيِّ (صلى الله عليه وسلم) فكانَ لقاءً مشهوداً بين أمَّةٍ ورسولِها ، الكلماتُ تتلألأ من فَمِ النبيِّ (صلى الله عليه وسلم) وهو يَسْتَشْعِرُ مع كل حرف منها دنوَّ أجلِه بعد هذه المناسك ، فعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ ، عَنْ أَبِيهِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أَنَّهُ شَهِدَ خُطْبَةَ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فِي يَوْمِ عَرَفَةَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ: (أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي وَاللَّهِ لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ يَوْمِي هَذَا بِمَكَانِي هَذَا، فَرَحِمَ اللَّهُ مَنْ سَمِعَ مَقَالَتِي الْيَوْمَ فَوَعَاهَا ، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ وَلَا فِقْهَ لَهُ ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ) (رواه الدارمي في سننه) .

وتُعد خطبة الوداع من جوامع كلمه وفصاحته (صلى الله عليه وسلم) ، فعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) عَنْ رَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) أَنَّهُ قَالَ : (نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ عَلَى الْعَدُوِّ وَأُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ وَبَيْنَمَا أَنَا نَائِمٌ أُتِيتُ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الأَرْضِ فَوُضِعَتْ فِى يَدَىَّ) (رواه مسلم في صحيحه)، فكلام رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في أعلى درجات البلاغة والفصاحة لأنه مضبوط بضابط الوحي ، قال تعالى : {وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى}[النجم: ٣-٤]. وأصغت الدنيا

بأسرها لتسمع كلام النبي (صلي الله عليه وسلم) وهو يوضح مبادئ الرحمة والإنسانية ويرسي لها دعائم السلم والسلام ، ويقيم فيها أواصر المحبة والأخوة وفرش بأرضها روح التراحم والتعاون.

وتعد خطبة الوداع أول وثيقة وإعلان عالمي لحقوق الإنسان بغض النظر عن دينه أو معتقده أو لونه أو جنسه ، ويعد النبي (صلى الله عليه وسلم) هو الرائد الأول والراعي الأعظم لحقوق الإنسان، فرسالته التي حملها للعالمين جميعا رسالة إنسانية ، شملت برعايتها جميع الحقوق التي تتعلق بالإنسان من حيث هو إنسان.

وقد تطرقت خطبة الوداع إلى جوانب دقيقة من حياة الإنسان ، لم يتطرق إليها الإعلان العالمي لحقوق الإنسان في القرن العشرين ، ولم يخطر على بال واضعي هذا الإعلان أن يتحدثوا عنها من جملة الحقوق التي تضمنها إعلانهم.

إن رسول الإنسانية الأعظم (صلى الله عليه وسلم) الذي وقف لجنازة يهودي احتراما لإنسانيته ، وجعل من نفسه خصما لكل من يؤذي ذميا لجدير بأن يتربع على عرش حقوق الإنسان، وأن يقف واضعو هذه الوثيقة العالمية لحقوق الإنسان صاغرين أمام عظمته وإنسانيته. يقول الشيخ الغزالي (رحمه الله): إن آخر ما أملت فيه الإنسانية من قواعد وضمانات لكرامة الجنس البشري كان من أبجديات الإسلام، وان إعلان الأمم المتحدة عن حقوق الإنسان ترديد عادي للوصايا النبيلة التي تلقاها المسلمون عن الإنسان الكبير والرسول الخاتم سيدنا محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم).

وإذا تأملنا خطبة الوداع بكل ما فيها من كلمات مباركات ودققنا فيها النظر ، وجدنا كل ما يتشدق به الشرق والغرب من نظريات وأفكار موجودًا في هذه الكلمات المعدودة ، بل إننا نجد ما هو أكثر منه وأهم.

لقد فرَّقت هذه الخطبة الجامعة بين عهدين : عهد الظلم والقوة والجهل والكفر البواح، إلى عهد العدل والأمان والعلم والإيمان ، فرسمت للبشرية منهج حياة ومبادئ دائمة لا تتغير ولا تتبدل عبر العصور والأزمان.

وتأتي على رأس حقوق الإنسان والمحافظة على آدميته حرمة دمه ، وهذا ما أكده النبي (صلى الله عليه وسلم) في خطبة الوداع بقوله: (إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا إِلَى يَوْمِ تَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ ، أَلاَ هَلْ بَلَّغْتُ ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، قَالَ : اللَّهُمَّ اشْهَدْ) .

إن الإسلام لا يرضى – بأي حال من الأحوال – بسفك الدماء ، ويُحرِّم قتل النفس البشرية بغير حق ، قال تعالى: {مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا}[المائدة: ٣٢]، وقال تعالى: {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا} [النساء: ٩٣].

إن المسلم في متسع من الأمر يرجو دومًا أن يعدل مساره ويتوب إلى ربه، لكن حينما يقترب من الدماء ويعتدي على البناء الذي بناه الله

سبحانه وتعالى وهو الإنسان يكون قد ضيَّق الخناق على نفسه، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ (رضي الله عنهما) قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ، مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا) (رواه البخاري). إن القتل ورطة يورط القاتل بها نفسه، فهذا عبدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ (رضي الله عنهما) يقول: " إِنَّ مِنْ وَرَطَاتِ الْأُمُورِ الَّتِي لَا مَخْرَجَ لِمَنْ أَوْقَعَ نَفْسَهُ فِيهَا ، سَفْكَ الدَّمِ الْحَرَامِ بِغَيْرِ حِلِّهِ " (رواهُ البخاري). وَثَبَتَ عَنْه (رضي الله عنه) قوله لِمَنْ قَتَلَ عَامِدًا بِغَيْرِ حَقٍّ: (تَزَوَّدْ مِنْ الْمَاءِ الْبَارِدِ ، فَإِنَّك لَا تَدْخُلُ الْجَنَّة) (فتح الباري).

إن أمر الدماء في الإسلام عظيم ، لدرجة أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قَالَ : (لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ قَتْلِ مُؤْمِنٍ بِغَيْرِ حَقٍّ) (رواه ابن ماجه)، بل إن المعاهد الذي له عهدٌ مع المسلمين بعقدِ أمان حقه محفوظ ، وقتله منهي عنه ، فعن عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ عَمْرٍو (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) عَنْ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ : (مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا) (رواهُ البخاري).

وأعظم ذلك أن الإسلام حمى الإنسان من نفسه فحرم عليه الانتحار ، وأن يلقى بيده إلى التهلكة ، فقال تعالى: {وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا} [النساء: ٢٩] ، وقال سبحانه : {وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} [البقرة: ١٩٥].

ومن المبادئ الإنسانية العظيمة التي أرست قواعدها خطبة الوداع حرمة انتهاك الأعراض واستباحتها بالقيل والقال ، وخاصة القول

الفاحش ، ولقد أعلن النبي (صلى الله عليه وسلم) هذا المبدأ في خطبة الوداع ، فعن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ ، عَنْ أَبِيهِ ، أنَّ النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) قَعَدَ عَلَى بَعِيرِهِ وَأَمْسَكَ إِنْسَانٌ بِخِطَامِهِ ، أَوْ بِزِمَامِهِ– قَالَ : أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟ فَسَكَتْنَا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ ، قَالَ : أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ ؟ قُلْنَا : بَلَى ، قَالَ : فَأَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟ فَسَكَتْنَا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ ، فَقَالَ : أَلَيْسَ بِذِي الْحِجَّةِ ؟ قُلْنَا : بَلَى ، قَالَ : فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ بَيْنَكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ ، فَإِنَّ الشَّاهِدَ عَسَى أَنْ يُبَلِّغَ مَنْ هُوَ أَوْعَى لَهُ مِنْهُ) (رواه البخاري). وفي رواية قال (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ – قَالَ مُحَمَّدٌ: وَأَحْسِبُهُ قَالَ: وَأَعْرَاضَكُمْ – حَرَامٌ عَلَيْكُمْ ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا ، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا ، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا ، وَسَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ، فَلَا تَرْجِعُنَّ بَعْدِي كُفَّارًا – أَوْ ضُلَّالًا – يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ) (رواه مسلم).

وللإسلام عناية عظيمة بالأعراض فقد صانها وحرم الاعتداء عليها بالإيذاء أو النظر أو القذف، ومن أجل الحفاظ على الأعراض : حرم الله – تعالى – الزنا ، وحرم الوسائل المؤدية إليه من النظر والاختلاط والخلوة ، قال تعالى:{وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً} [الإسراء:٣٢].

ومن أجل حماية الأعراض وصيانتها حرم الله (عز وجل) السخرية بالمسلم ، ونهى عن اللمز والهمز ، وأن يعيب المسلم أخاه

ويتنقصه ، وحرم الغيبة والنميمة ، وحرم القذف بالفاحشة، وبالجملة حرم كل ما من شأنه أن يهتك عرضاً أو يجرح كرامة ، فالعِرض والشرف لا يُقدِّره إلا أصحاب النخوة والدين والمروءة.

هـذا : والمرأة أيضا كان لها نصيب في خطبة الوداع لما لها من حقوق آدمية وكرامة إنسانية ، فالنساء شقائق الرجال ، كما أخبر الصادق (صلى الله عليه وسلم) ، ومن ثم جاء في الإعلان عن حقوق المرأة في خطبة الوداع ما رواه جابر بن عبد الله (رضي الله عنهما) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: (فَاتَّقُوا اللهَ فِي النِّسَاءِ ، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللهِ ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللهِ ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ ، وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ) (رواه مسلم).

فالمرأة في الإسلام لها من الحقوق وعليها من الواجبات مثل ما للرجل، ولقد لخص القرآن دستور العلاقة بين الزوجين أجمل تلخيص حين قال: {وَلَهُنَّ مِثْلُ الذي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ} [البقرة: ٢٢٨].

وهكذا اهتم الإسلام بالمرأة أما و أختا و بنتا و زوجة وجعل لها من الحقوق ما يكفل سعادتها في الدارين ويصونها ويحافظ على كرامتها الإنسانية.

وأوصانا بهنَّ النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) خيرًا ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ):

(اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ ، فَإِنَّ المَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلاَهُ ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْراً) (رواه البخاري) فكلمة (خيرًا) الواردة في الحديث كلمة جامعة مانعة للتخلق بأسمى معاني الرجولة حين يتعامل الرجال مع النساء.

كذلك يتجلى في خطبة الوداع مبدأ المساواة بين جميع أفراد الأمة كحق إنساني يحافظ على كرامة الفرد في الأمة ، ويجعل معيار التفاضل هو التقوى والعمل الصالح ، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} (الحجرات: ١٣)، وعَنْ أَبِي نَضْرَةَ (رضي الله عنه) قال: حَدَّثَنِي مَنْ سَمِعَ خُطْبَةَ رَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فِي وَسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ فَقَالَ : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، أَلاَ إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ ، أَلاَ لاَ فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ ، وَلاَ لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ ، وَلاَ أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ ، وَلاَ أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ ، إِلاَّ بِالتَّقْوَى)

(رواه أحمد في المسند).

وبيَّن النبي (صلى الله عليه وسلم) معنى المساواة عمليا بين جميع أفراد الأمة حين جاء وجهاء من القوم شفعاء في امرأة شريفة وجب عليها حد السرقة ، حتى لا توقع عليها العقوبة، فأبى النبي (صلى الله عليه وسلم) ذلك ، ونبَّه إلى خطورة المسألة ، فلو انتهك مبدأ المساواة بين جميع أفراد الأمة لعمَّت الفوضى وحل الهلاك كما حل بالأمم السابقة ،

فعَنْ عَائِشَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا) أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ المَرْأَةِ المَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ ، فَقَالُوا : وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ؟ فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ ، حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ، ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ ، أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ ، وَأَيْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا) (رواه البخاري).

إن مبدأ المساواة مبدأ أصيل بين جميع أفراد المجتمع بغض النظر عن أي اعتبار على أساس أنه حق أصيل للإنسان ، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقَيراً فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا } [النساء: ١٣٥].

ومن الصور المشرقة لتحقيق هذا المبدأ على أرض الواقع ما حدث من تنازع بين سيدنا عليّ بن أبي طالب (رضي الله عنه) وهو أمير على المؤمنين مع يهودي ، فاحتكما إلى شريح قاضي المسلمين ، فسأل أمير المؤمنين ـ على اعتبار أنه خصم يتساوى مع خصمه اليهودي ـ البيّنة فعجز عن إقامتها ، فوجّه اليمين إلى خصمه اليهودي فحلف ، فحكم بالدرع لليهودي ، فتعجب اليهودي من الأمر ، وقال: قاضي أمير

المؤمنين يحكم لي عليه! ونطق بالشهادتين وأسلم لما رأى من عظمة الإسلام وعظمة مبادئه وأحكامه التي تتعامل مع الإنسان على اعتبار إنسانيته.

كذلك من حقوق الإنسان التي تناولها النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) في خطبة الوداع المحافظة على ماله ، فلا ينكر أحد ما للمال من أهمية في تسيير أمور الحياة لتحقيق وسائل العيش الكريم ، وصدق من قال:

بالعلم والمال يبني الناس ملكهمُ لم يبن ملك على جهل وإقلال

وجاء في مأثور الحكمة : (لا خير فيمن لا يطلب المال ، يصون به عِرْضه ، ويسد به خلله).

وحفظ المال من ضروريات الدين الخمس ، وحق تملكه في الإسلام غاية في السمو والرقي أوجب على المسلم أن يحفظه ويصونه ، وحرَّم عليه سرقته أو إتلافه.

وفي خطبة الوداع حذر النبي (صلى الله عليه وسلم) من الربَّا على اعتبارها أفحش صور استغلال حاجة الناس وضياع أموالهم وأكلها بالباطل ، فقال (صلى الله عليه وسلم): (وإنَّ رِبَا الجَاهِلِيّة مَوضوعٌ ولكن لكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ، قضى الله أنه لا ربا، وإنّ أَوّلَ رباً أَبْدأُ بِهِ رِبَا عَمّي العباسُ بن عبد المطلب).

ويقول الحق سبحانه وتعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ

وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ * وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ* وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ} [البقرة: ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠، ٢٨١].

ويقول سبحانه: { يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا* وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا} [النساء: ٢٩ ، ٣٠].

ما أجدر الدنيا كلها أن تقف أمام هذا الهدي النبوي العظيم المتمثل في خطبة الوداع التي جمعت في كل ألفاظها ومعانيها الخير كله للبشرية جمعاء ، فقد كانت بحق سبقًا في تاريخ البشرية أرست قواعد حقوق الإنسان . فهذه الخطبة أعظم وثيقة رائدة في مجال حقوق الإنسان، رسمت المبادئ والقيم الأساسية الإنسانية والخلقية.

* * *

خطبة عيد الأضحى المبارك

أولاً: العناصر:

١- عيد الأضحى رمز للتضحية والبذل والعطاء.

٢- بعض الدروس المستفادة من قصة الذبيح عليه السلام.

٣- الأضحية عبادة وتوسعة.

٤- من فضائل يوم الأضحى.

ثانياً : الأدلة :

الأدلة من القرآن:

١- قال الله تعالى: {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ}

[الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

٢- وقال تعالى: {فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ* قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ* إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ* وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ}

[الصافات: ١٠١ – ١٠٧].

٣- وقال تعالى: {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ} [الكوثر].

٤- وقال تعالى: {ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ}

[الحج: ٣٢].

٥- وقال تعالى: {لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ} [الحج: ٣٧].

الأدلة من السنة والآثار:

١- عَنْ عَبدِ اللَّهِ بْنِ قُرْطٍ (رضي الله عنه) عَنِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: (إِنَّ أَعْظَمَ الأَيَّامِ عِنْدَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَوْمُ النَّحْرِ ثُمَّ يَوْمُ الْقَرِّ – يعني اليوم الذي يليه–) (سنن أبي داود).

٢- وعَنْ عَائِشَةَ (رضي الله عنها) أَنَّهُمْ ذَبَحُوا شَاةً فَقَالَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم): (مَا بَقِيَ مِنْهَا؟). قَالَتْ مَا بَقِيَ مِنْهَا إِلاَّ كَتِفُهَا. قَالَ: (بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرَ كَتِفِهَا) (سنن الترمذي).

٣- وعَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِىِّ (رضي الله عنه) قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): (يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ لاَ تَأْكُلُوا لُحُومَ الأَضَاحِىِّ فَوْقَ ثَلاَثٍ) ، وَقَالَ ابْنُ الْمُثَنَّى ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ. فَشَكَوْا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) أَنَّ لَهُمْ عِيَالاً وَحَشَمًا وَخَدَمًا فَقَالَ: (كُلُوا وَأَطْعِمُوا وَاحْبِسُوا أَوِ ادَّخِرُوا) (متفق عليه).

٤- وعَنِ ابْنِ عُمَرَ (رضي الله عنهما) قَالَ: (الضَّحَايَا وَالْهَدَايَا ثُلُثٌ لأَِهْلِك، وَثُلُثٌ لَك، وَثُلُثٌ لِلْمَسَاكِينِ) (المحلى لابن حزم).

ثالثاً: **الموضـــوع**

هذا يوم عيدنا الأكبر، عيد التضحية والبذل والعطاء، التضحية بكل شيء في سبيل مرضاة الله عز وجل، التضحية بالنفس والمال،

التضحية بالأهل وبكل شيء، فهذا خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام يضحي بكل شيء في سبيل دينه وعقيدته ، أخرج من وطنه الذي يحبه فحب الأوطان فطرة في النفوس، هجر وطنه بعد صراع بينه وبين قومه، وبعد أن عانى من أبيه نفسه ما عانى، بعد رفقه به غاية الرفق في دعوته، وحاول بكل سبيل أن يستميله إلى طريق الله عز وجل قال تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا}[مريم:٤١ – ٤٤]، ثم يبلغ الأدب والرفق وحسن التأدب مع الأب غايته حين يقول لأبيه:{يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا}[مريم: ٤٥] لم يقل له : إنك كافر جاحد وإن مصيرك العذاب ، ولم يقل: ستعذب في النار .. لا ، بل قال: إني أخاف أن يمسك – مجرد مسّ ... تخيلوا مدى الرفق والأدب مع الأب على الرغم من كفره !!! ثم إن المقام مقام عذاب ومع ذلك لم يقل: عذاب من الجَبَّار ، وإنما أتى باسم من أسماء الله تعالى فيه رحمة حتى لا يفجع أذن أبيه – منتهى الأدب والبر ؛ لكن كيف كان ردّ الأب الكافر:{قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا}[مريم: ٦٤] فهذا ردّ الأب الكافر الذي مات على الكفر.

لكن كيف كان جزاء سيدنا إبراهيم (عليه السلام) ؟! رزقه الله تعالى بولد أطاعه فيما لا يطيع فيه أحد أحدًا في الذبح وإنهاء الحياة كلها قال تعالى : { فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ}[الصافات:١٠٢] منتهى البلاء وغاية المحنة أن يؤمر الأب بذبح ابنه ؛ ثم مَن الأب ومَن الابن؟! الأب رجل بلغ من الكبر عتيا ورزق ولدا في نهايات العمر ، ثم هو اليوم يؤمر بذبحه! والابن شاب في بداية شبابه بدليل قوله : {فلما بلغ معه السعي ...} في بداية شبابه؟ يعني في السن التي يكون الولد فيها قرة عين لأبيه ويكون الشاب فيها مزهوًا بشبابه ؛ في هذه اللحظة الفارقة في عمر الولد والوالد يؤمر الوالد بذبح ولده... فماذا كان رد الابن؟! { قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ} ياأبتِ ؟! إنها نفس الكلمة الحانية التي كان يقولها سيدنا إبراهيم لأبيه ! حقًا إن الجزاء من جنس العمل؛ كما تدين تدان؛ بروا آباءكم تبركم أبناؤكم ؛ ما تفعله اليوم مع والديك ستلقاه غدا من أبنائك .

إن الدرس الأعظم في قصة الذبيح عليه السلام هو منتهى الامتثال والاستسلام الكامل والانقياد التام لأمر الله تعالى، امتثال يجعل حرص المسلم على أمر الله تعالى وطاعته أشد من حرصه على نفسه وولده والدنيا وما فيها، يقول الله تعالى: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ}[النور: ٥١، ٥٢].

ما أحوجنا أن نستلهم هذه المعاني الإيمانية العظيمة في زمن بدت تلوح في آفاقه موجات جديدة من الضلال والإلحاد، وفي قصة سيدنا إبراهيم (عليه السلام) دروس وعبر يتوجب علينا أن نديم النظر فيها، لقد واجه خليل الرحمن محنًا شديدة، وواجه مهمات جسامًا، لقد وجد نفسه يواجه وحده سيلًا من الإلحاد والضلال، الإلحاد الذي وصل إلى أن يدعي النمرود أنه يحيي ويميت، قال تعالى : {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [البقرة: ٢٥٨].

يقول ابن كثير رحمه الله: (وكان- أي النمرود- طَلَبَ مِنْ إِبْرَاهِيمَ دَلِيلًا عَلَى وُجُودِ الرَّبِّ الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ، فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: {رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ} أي إنما الدَّلِيلُ عَلَى وُجُودِهِ حُدُوثُ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الْمُشَاهَدَةِ بَعْدَ عَدَمِهَا وَعَدَمُهَا بَعْدَ وُجُودِهَا، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى وُجُودِ الْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ، ضَرُورَةً لِأَنَّهَا لَمْ تَحْدُثْ بِنَفْسِهَا فَلَا بُدَّ لَهَا مِنْ مُوجِدٍ أَوْجَدَهَا، وَهُوَ الرَّبُّ الَّذِي أَدْعُو إِلَى عِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ المحاجّ – وهو النمرود-:{أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ}، قال قتادة: وذلك أني أوتى بالرجلين استحقا القتل فآمر بقتل أحدهما فيقتل، وآمر بالعفو عَنِ الْآخَرِ فَلَا يُقْتَلُ، فَذَلِكَ مَعْنَى الْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ، وَالظَّاهِرُ – وَاللَّهُ أَعْلَمُ – أَنَّهُ مَا أَرَادَ هَذَا لِأَنَّهُ لَيْسَ جَوَابًا لِمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ وَلَا فِي مَعْنَاهُ لِأَنَّهُ

غَيْرُ مَانِعٍ لِوُجُودِ الصَّانِعِ، وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنَّ يَدَّعِيَ لِنَفْسِهِ هَذَا الْمَقَامَ عِنَادًا وَمُكَابَرَةً وَيُوهِمُ أَنَّهُ الْفَاعِلُ لِذَلِكَ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ كَمَا اقْتَدَى بِهِ فِرْعَوْنُ فِي قَوْلِهِ: {مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي}، وَلِهَذَا قَالَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ لَمَّا ادَّعَى هَذِهِ الْمُكَابَرَةَ: {فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بالشمس مِنَ المشرق فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ} أَيْ إِذَا كُنْتَ كَمَا تدعي من أنك تحيي وتميت فالذي يحيي ويميت هُوَ الَّذِي يَتَصَرَّفُ فِي الْوُجُودِ، فِي خَلْقِ ذواته تسخير كواكبه وحركاته، فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق فإن كنت إِلَهًا كَمَا ادَّعَيْتَ تُحْيِي وَتُمِيتُ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ؟ فَلَمَّا عَلِمَ عَجْزَهُ وَانْقِطَاعَهُ وَأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْمُكَابَرَةِ فِي هَذَا الْمَقَامِ بُهِتَ، أَيْ أُخْرِسَ فَلَا يَتَكَلَّمُ وَقَامَتْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ) (تفسير ابن كثير).

لكن سيدنا إبراهيم (عليه السلام) حين اختلى بربه أراد أن يُريه الله تعالى قضية الإحياء والإماتة رأي العين حتى يعاينَ ما تطمئنُ به نفسه حين يجادل الملحدين ، قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}[البقرة: ٢٦٠]، يقول القرطبي –رحمه الله–: (...فأخذ هذه الطير حسب ما أمر وذكاها ثُمَّ قَطَعَهَا قِطَعًا صِغَارًا، وَخَلَطَ لُحُومَ الْبَعْضِ إِلَى لُحُومِ الْبَعْضِ مَعَ الدَّمِ وَالرِّيشِ حَتَّى يَكُونَ أَعْجَبَ، ثُمَّ جَعَلَ مِنْ ذَلِكَ الْمَجْمُوعِ الْمُخْتَلِطِ جُزْءًا

عَلَى كُلِّ جَبَلٍ، وَوَقَفَ هُوَ مِنْ حَيْثُ يَرَى تِلْكَ الْأَجْزَاءَ وَأَمْسَكَ رُءُوسَ الطَّيْرِ فِي يَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: تَعَالَيْنَ بِإِذْنِ اللَّهِ، فَتَطَايَرَتْ تِلْكَ الْأَجْزَاءُ وَطَارَ الدَّمُ إِلَى الدَّمِ وَالرِّيشُ إِلَى الرِّيشِ حَتَّى الْتَأَمَتْ مِثْلَ مَا كَانَتْ أَوَّلًا وَبَقِيَتْ بِلَا رُءُوسٍ، ثُمَّ كَرَّرَ النِّدَاءَ فَجَاءَتْهُ سَعْيًا، أَيْ عَدْوًا عَلَى أَرْجُلِهِنَّ)

(تفسير القرطبي).

وعيد الأضحى عيد الأضحية ، عيد إخلاص الدين لله عز وجل قال تعالى : {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]، نذبح الأضاحي في هذا اليوم تقربًا إلى الله تعالى، وإنها لدليل على عظيم فضل الله على هذه الأمة، فالأضحية ذبيحة توسِّعُ بها على نفسك وأهلك ومن حولك، ومع ذلك هي قربة وعبادة تؤجر عليها الأجر العظيم، إن الأضحية شعيرةٌ من شعائر الله واجبٌ تعظيمها كما قال تعالى: {ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ}[الحج: ٣٢]، وسنة من سنن الرسول (صلى الله عليه وسلم) ينبغي الالتزام بها، وإحياؤها بالعمل بها، ذكرى لهذا الحادث العظيم الذي ترجع إليه الأمة المسلمة لتعرف فيه حقيقة أبيها إبراهيم، الذي تتبع ملته، والذي ترث نسبه وعقيدته، ولتدرك طبيعة العقيدة التي تقوم بها أو تقوم عليها، ولتعرف أنها الاستسلام لقدر الله في طاعة راضية واثقة ملبية لا تسأل ربها لماذا؟ ولا تتلجلج في تحقيق إرادته عند أول إشارة منه وأول توجيه، ولا تستبقي لنفسها في نفسها شيئًا، ولا تختار في ما تقدمه لربها هيئةً ولا طريقةً

لتقديمه إلا كما يطلب هو إليها أن تقدم، ثم لتعرف أن ربها لا يريد أن يعذبها بالابتلاء، ولا أن يؤذيها بالبلاء، إنما يريد أن تأتيه طائعةً ملبيةً وافيةً مؤدية مستسلمةً لا تقدم بين يديه، ولا تتألى عليه، فإذا عرف منها الصدق في هذا أعفاها من التضحيات والآلام، وهكذا تكون التكاليف الشرعية تربية وتأديبًا للعباد لا طلبًا للمشقة عليهم.

والمسلم بذبحه الأضحية يعبر عن ذبحه شهواته وتضحيته بحظوظ نفسه تقربًا إلى الله تعالى، فالأهم ليس اللحم والدم ولكن التقوى المُسْتَكِنَّة في القلب، التقوى التي يريد الله تعالى أن يربي العباد عليها من خلال العبادات التي يشرعها لهم، فهي التي تدفعهم لكل خير، وتمنعهم عن كل شر، وتأخذهم إلى تحري مرضاة الله تعالى، يقول الله تعالى: {لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ}[الحج: ٣٧]، يقول الزمخشري: والمعنى :(لن يُرضى المضحون والمقرِّبون ربَّهم إلا بمراعاة النية والإخلاص والاحتفاظ بشروط التقوى في حل ما قرب به، وغير ذلك من المحافظات الشرعية وأوامر الورع. فإذا لم يراعوا ذلك ، لم تغن عنهم التضحية والتقريب وإن كثر ذلك منهم) (الكشاف).

وإذا كانت الأضحية قد شرعت توسعة على النفس والأهل والأقارب والمساكين فإن للمضحي أن يأكل منها ما شاء، ويدخر ويتصدق بما شاء فإن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: (كُلُوا وَأَطْعِمُوا وادَّخِرُوا)، لكن يستحب أن يقسمها ثلاثًا، فيأكل هو وأهله ثلثها ويهدي

ثلثها ويتصدق بثلثها، فعَنِ ابْنِ عُمَرَ (رضي الله عنهما) قَالَ: (الضَّحَايَا وَالْهَدَايَا ثُلُثٌ لأَهْلِك، وَثُلُثٌ لَك، وَثُلُثٌ لِلْمَسَاكِينِ)، وعلينا أن ندرك أن الصدقة منها هي الأبقى والأنفع لصاحبها في الآخرة، فعَنْ عَائِشَةَ (رضي الله عنها) أَنَّهُمْ ذَبَحُوا شَاةً فَقَالَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم): (مَا بَقِيَ مِنْهَا؟). قَالَتْ مَا بَقِيَ مِنْهَا إِلاَّ كَتِفُهَا. قَالَ : (بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرَ كَتِفِهَا).

وينبغي أن تكون الأضحية مظهرًا من مظاهر عظمة الإسلام ونظافته وطهارته، فلا ينبغي الذبح في مداخل العمارات والبيوت وفي الشوارع والأزقة وأمام المساجد والمستشفيات ونقل العدوى، والمناظر المشينة المسيئة للإسلام والمسلمين، كيف وقد حرم الإسلام الضرر، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ (رضي الله عنهما) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ) : (لاَ ضَرَرَ وَلاَ إِضْرَارَ)، كما أمرنا بتطهير الطرقات وإبعاد الأذى عنها وعدَّ ذلك من شعب الإيمان، فعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): (الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ) (صحيح مسلم).

فهذا يوم ينبغي أن يكون رحمة كله وخيرًا كله وجمالاً وعظمة، إنه أعظم الأيام، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قُرْطٍ (رضي الله عنه) عَنِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: (إِنَّ أَعْظَمَ الأَيَّامِ عِنْدَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَوْمُ النَّحْرِ ثُمَّ يَوْمُ الْقَرِّ – يعني اليوم الذي يليه–)، وفي هذا اليوم العظيم وقف نبيُّنا محمدٌ (صلى الله عليه وسلم) في منًى خطيبًا في الحجَّاج، فذَكَر

تعظيم مكان الحج، وتعظيم زمانه، وتعظيم يومه الأكبر الذي هو يوم النحر، وتعظيم أمر الدماء والأعراض والأموال؛ روى جَابِرٌ (رضي الله عنه) قال: خَطَبَنَا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يوم النَّحْرِ، فقال: (أَيُّ يَوْمٍ أَعْظَمُ حُرْمَةً؟)، فَقَالُوا: يَوْمُنَا هذا، قال: (فأي شَهْرٍ أَعْظَمُ حُرْمَةً؟)، قالوا: شَهْرُنَا هذا، قال: (أي بَلَدٍ أَعْظَمُ حُرْمَةً؟)، قالوا: بَلَدُنَا هذا، قال: (فإن دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هذا، في بَلَدِكُمْ هذا، في شَهْرِكُمْ هذا، هل بَلَّغْتُ؟)، قالوا: نعم، قال: (اللهم اشهد).

فسبحان من جعل حرمة الدم كحرمة بيته الحرام، فهلّا اتخذنا من هذه المناسبة الكريمة فرصة للتآلف وتعظيم معاني الأخوة؟! هذه الأخوة فرضها الله تعالى علينا وربط بها بين جميع المؤمنين، يقول تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الحجرات: ١٠]، والآية التي بدأت بإثبات الأخوة بين المسلمين ختمت بقوله "وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ" أي: اتقوا الله فيما ذكر في هذه الآية من الأخوة لعلكم ترحمون، فتأمل كيف علق الله تعالى الرجاء في رحمته على مراعاة الأخوة!! وكأن الله تعالى يقول لنا: لن أرحمكم حتى يرحم بعضكم بعضًا، وليعلم كل واحد منا أن أحدًا لن يدخل معه قبره، لا الجماعة الفلانية ولا الزعيم الفلاني ولا الحزب الفلاني، ستقف وحدك أمام ربك ليحاسبك فاتق الله فيما بينك وبين المسلمين من أخوة، واستثمر الفرصة العظيمة هذه الأيام الطيبة المباركة.

وقفة مع النفس

(وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ)

أولا: العناصر:

١- محاسبة النفس قبل أن تحاسب.

٢- استحضار عظمة الوقوف بين يدي الله عز وجل.

٣- لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت.

٤- ما أعده الله عز وجل لعباده المؤمنين وما أعده للضالين المفسدين.

ثانيًا: الأدلة من القرآن والسنة:

الأدلة من القرآن الكريم:

١- قال تعالى:{وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} [البقرة:٢٨١] .

٢- وقال تعالى:{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [الحشر: ١٨].

٣- وقال تعالى:{يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ} [لقمان: ٣٣].

٤- وقال تعالى:{يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ * وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ}

[الشعراء: ٨٨ -٩١].

٥- وقال تعالى:{الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [غافر: ١٧] .

٦- وقال تعالى:{وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا * مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا}

[الإسراء: ١٣– ١٥].

٧- وقال تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ}

[المدثر: ٣٨، ٣٩] .

٨- وقال تعالى:{يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ} [الحاقة:١٨].

٩- وقال تعالى :{إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ} [فصلت٣٠-٣٢].

١٠- وقال تعالى:{فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} [الزلزلة: ٧، ٨].

١١- وقال تعالى:{وُجُوهٌ يَّوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ} [القيامة:٢٢– ٢٥].

الأدلة من السنة:

١- عَنْ أَبِي يَعْلَى شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ)

(رواه الترمذي وَقالَ: حديث حسن) ، ودَانَ نَفْسَهُ ، أي: حَاسَبَها.

٢- وعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) : (مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ سَيُكَلِّمُهُ اللَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلاَ يَرَى إِلاَّ مَا قَدَّمَ ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلاَ يَرَى إِلاَّ مَا قَدَّمَ ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلاَ يَرَى إِلاَّ النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ) (مُتَّفَقٌ عَلَيهِ).

٣- وعَنْ حَنْظَلَةَ الأُسَيدِيِّ قَالَ - وَكَانَ مِنْ كُتَّابِ رَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ : لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ (رضي الله عنه) فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ ، قَالَ: قُلْتُ نَافَقَ حَنْظَلَةُ ، قَالَ : سُبْحَانَ اللَّهِ مَا تَقُولُ ؟ قَالَ: قُلْتُ نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيِ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلاَدَ وَالضَّيْعَاتِ فَنَسِينَا كَثِيرًا ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ : فَوَاللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا. فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): « وَمَا ذَاكَ ». قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْىَ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا

مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلاَدَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): « وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِى الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلاَئِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِى طُرُقِكُمْ ، يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً ». ثَلاَثَ مَرَّاتٍ. (صحيح مسلم).

٤- وعَنْ أَبِى بَرْزَةَ الأَسْلَمِىِّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): (لاَ تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمْرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَا فَعَلَ ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَا أَبْلاَهُ) (رواه الترمذي وقال : حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ).

٥- وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (قَالَ اللَّهُ : أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: {فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ} [السجدة:١٧] (رواه البخاري).

٦- وعن أبي سعيد وأبي هريرة (رضي الله عنهما): أنَّ رسولَ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) قال: (إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ يُنَادِي مُنَادٍ : إِنَّ لَكُمْ أنْ تَحْيَوْا ، فَلاَ تَمُوتُوا أَبَداً ، وإِنَّ لَكُمْ أنْ تَصِحُّوا ، فلا تَسْقَمُوا أبداً ، وإنَّ لَكمْ أنْ تَشِبُّوا فلا تَهْرَمُوا أبداً ، وإنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا ، فَلاَ تَبْأَسُوا أَبَداً) (رواه مسلم).

ومن أقوال السلف الصالح:

١- قال عُمَر بْن الْخَطَّابِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) : (حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا، فَإِنَّهُ أَهْوَنُ – أَوْ قَالَ: أَيْسَرُ – لِحِسَابِكُمْ، وَزِنُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ

أَنْ تُوزَنُوا، وَتَجَهَّزُوا لِلْعَرْضِ الْأَكْبَرِ :{يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ}[الحاقة: ١٨]) (الزهد والرقائق لابن المبارك). وفي سنن الترمذي: (حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا وَتَزَيَّنُوا لِلْعَرْضِ الأَكْبَرِ وَإِنَّمَا يَخِفُّ الْحِسَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ في الدُّنْيَا).

٢- وعَنِ الْحَسَنِ قَالَ: (الْمُؤْمِنُ قَوَّامٌ عَلَى نَفْسِهِ يُحَاسِبُ نَفْسَهُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَإِنَّمَا خَفَّ الْحِسَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى قَوْمٍ حَاسَبُوا أَنْفُسَهُمْ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنَّمَا شَقَّ الْحِسَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى قَوْمٍ أَخَذُوا هَذَا الْأَمْرَ مِنْ غَيْرِ مُحَاسَبَةٍ) (مصنف ابن أبي شيبة).

٣- وعن ميمون بن مهران قال: (لَا يَكُونُ العَبْدُ تَقِيًّا حَتَّى يُحَاسِبَ نَفْسَهُ كَمَا يُحَاسِبُ شَرِيكَهُ مِنْ أَيْنَ مَطْعَمُهُ وَمَلْبَسُهُ) (سنن الترمذي).

ثالثًا: الموضوع:

من فضل الله (عز وجل) على الإنسان أن وهبه عقلا فطنًا يميز به بين الخير والشر، ويفرق به بين الحق والباطل ، ويزن به الأمور حتى يعيش سعيدًا في دنياه وأخراه. ولما كانت النفس البشرية بطبيعتها كثيرة التقلب ، ما بين ذكر وغفلة ، وطاعة ومعصية ، وفرح وحزن ، ورضى ويأس، تميل إلى الشر تارة وإلى الخير تارة ، وتأمر صاحبها بالسوء ، وترغبه فيه.

فعلى كل عاقل أن يقف مع نفسه وقفات ليحاسبها على ما بدر منها ، ويلجمها بتقوى الله (عز وجل) ومراقبته في كل قول وعمل ،

فتزكية النفس وتطهيرها مدار فلاح العبد ونجاته يوم القيامة ، قال تعالى:{قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا} [الشمس: ٩-١٠].

فالعاقل من الناس هو الذي ينظر في أيامه ولياليه ، فإن كانت عامرة بالأقوال الطيبة والأعمال الصالحة سأل الله - تعالى- المزيد ، وإن وجد غير ذلك تاب إلى الله (عز وجل) توبة صادقة خالصة نصوحًا ، فمن فضل الله - تعالى- ورحمته بعباده أنه يقبل توبة التائبين، بل إنه سبحانه أخبرنا في كتابه الكريم بأن المسلم عندما يتوب إلى الله توبة صادقة تتحول سيئاته إلى حسنات ، يقول تعالى:{إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً} [الفرقان:٧٠] .

ولقد حثّ الله- تعالى- عباده المؤمنين على محاسبة نفوسهم ومعاتبتها على تقصيرها وتفريطها في حق الله عز وجل ، والتأمل فيما قدموه لآخرتهم ، فقال سبحانه : {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}[الحشر: ١٨] ، وعَنْ أَبِى بَرْزَةَ الأَسْلَمِيِّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): «لاَ تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمْرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَا فَعَلَ ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَا أَبْلاَهُ) (رواه الترمذي وقال : حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ).

فلينظر الإنسان فيما يقدمه من أعمال ، أهي من الصالحة التي تنجيه ، أم من السيئات التي توبقه؟ فإن ذلك علامة من علامات التقوى

لله رب العالمين ، لذا صدرت بها الآية الكريمة ، يقول مَيْمُون بْن مِهْرَان: (لَا يَكُونُ الرَّجُلُ تَقِيًّا حَتَّى يَكُونَ لِنَفْسِهِ أَشَدَّ مُحَاسَبَةً مِنَ الشَّرِيكِ لِشَرِيكِهِ) ، وذلك بمحاسبة نفسه قبل العرض على الله (عز وجل) ، وأن يزن أعماله قبل أن توزن ، وأن يهيئها للعرض على الله (عز وجل) ، فالحق سبحانه عالم بجميع الأعمال والأحوال ، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء. يقول الماوردي (رحمه الله) في معنى محاسبة النفس: " أن يتصفّح الإنسان في ليله ما صدر من أفعال نهاره ، فإن كان محموداً أمضاه وأتبعه بما شاكله وضاهاه ، وإن كان مذموماً استدركه إن أمكن وانتهى عن مثله في المستقبل" [أدب الدنيا والدين].

ومن ثم وجب على كل إنسان أن يقف مع نفسه للحظات ، ليسأل نفسه ماذا قدم للقاء ربه؟ وماذا قدم لوطنه ؟ وما آخر الطريق الذي يريد الوصول إليه ؟ وماذا عن راحة ضميره في كل ما قدم ويقدم ؟ لقد سأل رجل النبي (صلى الله عليه وسلم) فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ ؟ فقال له (صلى الله عليه وسلم): (وَمَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا ؟) فقال الرجل: لَا شَيْءَ إِلَّا أَنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فقال له النبي (صلى الله عليه وسلم) : (أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ) (متفق عليه).

وإذا كان من الحقائق المؤكدة أن الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل ، فيمكن لكل عاقل أن يثوب إلى طريق الرشاد بلا تردد أو توجس ما دام يوقن أنه سبيل الرشاد ، فاليوم سبيل العمل، وغدًا يوم الحساب ، حيث يقال : {وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ}[الصافات :٢٤]،

ومن هنا تتضح أهمية محاسبة النفس ، وخطورة إهمالها من غير محاسبة ولا معاتبة ، لأن إهمالها هو شأن الغافلين الضالين.

إن محاسبة النفس هي أعظم طريق إلى الله (عز وجل) ، وخير زاد للمؤمنين في حياتهم وآخرتهم ، وسبب سعادة الفائزين المفلحين في دنياهم ومعادهم ، فما نجا من نجا يوم القيامة إلا بمحاسبة النفس ومخالفة الهوى ، فمَن حاسب نفسه قبل أن يُحاسب خفَّ يوم القيامة حسابه ، قال عُمَر بْن الْخَطَّابِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) : (حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا ، فَإِنَّهُ أَهْوَنُ – أَوْ قَالَ: أَيْسَرُ – لِحِسَابِكُمْ، وَزِنُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا، وَتَجَهَّزُوا لِلْعَرْضِ الْأَكْبَرِ :{يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ}[الحاقة: ١٨]). وفي رواية: (حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا وَتَزَيَّنُوا لِلْعَرْضِ الأَكْبَرِ وَإِنَّمَا يَخِفُّ الْحِسَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ فِي الدُّنْيَا). فالمحاسبة للنفس في دار الدنيا أهون من محاسبة الله للعبد في يوم تشيب فيه رؤوس الولدان ، فالمحاسِب هو الله ، وكفى بالله حسيبا.

جدير بالذكر أن محاسبة النفس علامة على قوة إيمان العبد بربه ، وذلك لأنه يستحضر عظمة الوقوف بين يدي الله (عز وجل) يوم القيامة وما فيه من أهوال وأحوال يشيب لها الولدان، قال تعالى: { وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ * إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ}[مريم: ٣٩-٤٠] ، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ

عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ}[لقمان : ٣٣] ، وفي ذلك يقول النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ) (رواه الترمذي) ، وَدَانَ نَفْسَهُ ، أي: حَاسَبَها. وعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) : (مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ سَيُكَلِّمُهُ اللَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلاَ يَرَى إِلاَّ مَا قَدَّمَ ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلاَ يَرَى إِلاَّ مَا قَدَّمَ ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلاَ يَرَى إِلاَّ النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ)

(مُتَّفَقٌ عَلَيهِ).

ويصف الْحَسَن البصري (رضي الله عنه) المؤمن بقوله: (الْمُؤْمِنُ قَوَّامٌ عَلَى نَفْسِهِ يُحَاسِبُ نَفْسَهُ لِلَّهِ (عَزَّ وَجَلَّ) ، وَإِنَّمَا خَفَّ الْحِسَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى قَوْمٍ حَاسَبُوا أَنْفُسَهُمْ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنَّمَا شَقَّ الْحِسَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى قَوْمٍ أَخَذُوا هَذَا الْأَمْرَ مِنْ غَيْرِ مُحَاسَبَةٍ). ويقول أيضًا : (لَا يَزَالُ الْعَبْدُ بِخَيْرٍ مَا كَانَ لَهُ وَاعِظٌ مِنْ نَفْسِهِ، وَكَانَتِ الْمُحَاسَبَةُ مِنْ هِمَّتِهِ) (الزهد والرقائق لابن المبارك)، فالمؤمن دائمًا يعاتب نفسه والفاجر يمضي قُدُماً لا يعاتبها.

ومن عظيم رحمة الله (عز وجل) بالعبد ساعة الحساب أنه يحاسبه بالفضل لا بالعدل ، فكل نفس لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): {لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي

أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[البقرة: ٢٨٤]، قَالَ: فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَأَتَوْا رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرُّكَبِ، فَقَالُوا: أَيْ رَسُولَ اللهِ ، كُلِّفْنَا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ ، الصَّلَاةَ وَالصِّيَامَ وَالْجِهَادَ وَالصَّدَقَةَ، وَقَدِ أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ هَذِهِ الْآيَةُ وَلَا نُطِيقُهَا ، قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا؟ بَلْ قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)، قَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ، فَلَمَّا اقْتَرَأَهَا الْقَوْمُ، ذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ فِي إِثْرِهَا:{آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}[البقرة: ٢٨٥]، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا اللهُ تَعَالَى، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: {لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ...} [البقرة: ٢٨٦] [رواه مسلم].

ولقد ضرب لنا الصحابة الكرام (رضي الله تعالى عنهم) أروع الأمثلة في المحاسبة ، واضعين نصب أعينهم قول الله (عز وجل):{يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ}[الحاقة:١٨]. ولسان حال الواحد منهم ما قاله ربنا سبحانه على لسان الخليل إبراهيم (عليه السلام): {وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ* يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ * وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ} [الشعراء: ٨٧ –٩١].

وعن أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال : سمعتُ عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يوماً وخرجت معه حتى دخل حائطاً فسمعتُه يقول وبيني وبينه جدار : عمر أمير المؤمنين بخٍ بخٍ ، واللهِ بُنَيّ الخطاب لتتقينّ الله أو ليعذبنّك) [الزهد للإمام أحمد].

ولا نزال مع عمر (رضي الله عنه) : فقد كَتَبَ (رضي الله عنه) إِلَى بَعْضِ عُمَّالِهِ كتابا ، فَكَانَ فِي آخِرِه: " أَنْ حَاسِبْ نَفْسَكَ فِي الرَّخَاءِ قَبْلَ حِسَابِ الشِّدَّةِ ، فَإِنَّهُ مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ فِي الرَّخَاءِ قَبْلَ حِسَابِ الشِّدَّةِ عَادَ مَرْجِعُهُ إِلَى الرِّضَا وَالْغِبْطَةِ ، وَمَنْ أَلْهَتْهُ حَيَاتُهُ وَشُغْلُهُ بِهَوَاهُ عَادَ مَرْجِعُهُ إِلَى النَّدَامَةِ وَالْحَسْرَةِ ، فَتَذَكَّرْ مَا تُوعَظُ بِهِ لِكَيْ تَنْتَهِيَ عَمَّا يُنْتَهَى عَنْهُ" (شعب الإيمان للبيهقي).

وجاء عن ابن الصّمة : (أنه جلس يوماً ليحاسب نفسَه فعدّ عمره فإذا هو ابن ستين سنة ، فحسب أيّامها فإذا هي واحدٌ وعشرون ألفاً وخمسمائة يوم ؛ فصرخ وقال: يا ويلتى ! ألقى الملك بواحدٍ وعشرين ألف ذنب ! فكيف وفي كل يوم عشرة آلاف ذنب ؟ ! ! ثم خرّ فإذا هو ميّت ! ! فسمعوا قائلاً يقول : يا لكِ ركضةٌ إلى الفردوس الأعلى).

ومن الأمور التي تعين العبد على محاسبة النفس: النظر فيما أعده الله (عز وجل) لعباده المؤمنين، وما أعده الله للعصاة الضالين المفسدين. فالخلق جميعًا بين فريقين لا ثالث لهما {فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ}[الأعراف:٣٠] ، يذكرنا القرآن الكريم بحال كلا الفريقين ، فيقول الحق سبحانه :{إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا

تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ} [فصلت٣٠-٣٢]، فالملائكة هنا لا تتنزل على الأنبياء والمرسلين فحسب ، إنما تتنزل على عباد الله الصالحين الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ، لكن متى تتنزل ؟ وكيف تتنزل ؟

أما الكيفية فعلمها مفوض إلى رب السموات والأرض رب العرش العظيم ، ولكن متى تتنزل؟ فأكثر أهل العلم على أنها تنزل على المؤمن ساعة الاحتضار لتطمئنه قائلة : لا تخف يا عبد الله ولا تحزن وأبشر بالجنة التي كنت توعد ،{نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ} [فصلت :٣١] .

أما يوم المحشر فكما تحدث القرآن الكريم في أواخر سورة الأنبياء :{وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ }[الأنبياء :١٠٣] ، وأما في الجنة فالملائكة يدخلون عليهم من كل باب {سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ}[الرعد :٢٤] ،{كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ }[الحاقة :٢٤] ، {وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ}[فصلت :٣١]، {كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ هَـذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }[البقرة :٢٥] ، {وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ

مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَّنثُوراً * وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً} [الإنسان :١٩-٢٠] .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): قَالَ اللَّهُ (أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ، فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: {فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ}) [السجدة: ١٧] (رواه البخاري). وعن أبي هريرة (رضي الله عنهما): أنَّ رسولَ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) قال: (إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ يُنَادِي مُنَادٍ : إنَّ لَكُمْ أنْ تَحْيَوْا ، فَلاَ تَمُوتُوا أَبَداً ، وإنَّ لَكُمْ أنْ تَصِحُّوا ، فلا تَسْقَمُوا أبداً ، وإنَّ لكم أنْ تَشِبُّوا فلا تَهْرَمُوا أبداً ، وإنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا ، فَلاَ تَبْأَسُوا أَبَداً) (رواه مسلم) ، ونزع الله (عز وجل) من بينهم الغل والحسد فقال سبحانه: {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ} [الحجر :٤٧].

أما على الجانب الآخر والعياذ بالله فهناك من شُغل عن الله (عز وجل) بماله ، أو بجاهه ، أو بسلطانه ، أو بتجارته ، أو بجماعته ، وفصيله ، وهناك { يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ}[عبس : ٣٤-٣٧] ، {يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}[الشعراء ٨٨ – ٨٩] ، {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ

الْغَرُورُ}[لقمان : ٣٣] يومها يندم الخاسرون حيث لا ينفع الندم ، يقول كل من يأخذ كتابه بشماله:{يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ} [الحاقة :٢٥-٣٢] .

فالنظر إلى مآل أهل الجنة ومآل أهل النار من أهم الأمور التي تعين على محاسبة النفس ، قال إبراهيم التيمي: مَثَّلْتُ نفسي في الجنة آكل من ثمارها، وأشرب من أنهارها، وأعانق أبكارها، ثم مَثَّلْتُ نفسي في النار: آكل من زقومها، وأشرب من صديدها، وأعالج سلاسلها، وأغلالها، فقلت لنفسي: أي نفسي أي شيء تريدين؟ قالت: أريد أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحًا، قلت: فأنت في الأمنية فاعملي

[الزهد للإمام أحمد].

فالآخرة تحتاج إلى سعي هو سعيها الموصول إلى مرضاة الله فيها ، سعي المؤمن بها المعد لها ، وهذا هو السعي المشكور ، أما الفريق الآخر فحتفه جهنم يلقاها مذمومًا مدحورًا ، يقول سبحانه : {فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى}[الليل: ٥-١٠] ، فالعاقل من يعمل لدنياه كأنما يعيش أبدًا ويعمل لآخرته كأنه يموت غدًا ، من منطلق قوله تعالى :{... وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ...}

[القصص :٧٧].

ما أحوج الأمة اليوم ـ كبيرها وصغيرها ، رجالها ونساءها ـ شبابها وشيوخها ، أغنياءها وفقراءها ، إلى وقفة لمحاسبة النفس ، وخاصة في هذه المرحلة الدقيقة التي تمر بها أمتنا العربية والإسلامية.

إن أغلب ما تعانيه الأمة اليوم من مشكلات وتجارة بالمبادئ والقيم وتفشي الظواهر السلبية يرجع في كثير من جوانبه إلى غياب مبدأ محاسبة النفس ، ولو تحقق هذا المبدأ الأصيل من مبادئ الإسلام ما رأينا هذه الظواهر السلبية التي تهدد وحدة الأمة وتفرق كلمتها وتشتت شملها.

* * *

فهرس الموضوعات



رقم الأيداع ٢٠١٦/٣٥٥٨


طبع بمطبعة وزارة
الأوقاف